محمود عوض



مصري.. بمليون دولار!

أول تحليل لحياة المصريين المهاجرين في كندا وأمريكا

محمود عوض

مصري .. بمليون دولار !

مكتبة الانجلو المصرية

مقدمة

لو قدر لى ان اكتب هذا الكتاب منذ مائة وخمسين سنة فقط لكان يجب ان يكون عنوانه : « الدفع المتين فى شرح احوال المساكين من المصريين ، الذين يعيشون فى بلاد الافرنج والامريكيين » تضحك؟ ابدا . فمنذ مائة وخمسين سنة فقط كان اى شخص يعصى النهر ويركب البر والبحر يعتبر مهاجرا . منفيا وليس مهاجرا ، انه — حتى — لم يكن يعتبر مسافرا ، ولا مغتربا . كان يعتبر .. مهاجرا .

منذ مائة وخمسين سنة كان المصرى اذا ترك بيت امرتطليسكن فى الشارع المجاور يعتبر .. مغتربا .. اذا ترك القرية وسافر الى القاهرة فهو .. مهاجر .. اذا ترك القاهرة وسافر الى لندرة او مرسيليا فهو مفقود . ضائع . مسافر الى بلاد الفرنجة . انه مسكين انسان يستحق الرثاء . الشفقة . الرحمة . العزاء انه جلفر فى بلاد العمالقة . انسان فى دنيا من الاشباح والعفاريت . هل تريد مثلا ؟ حسنا .

منذ مائة وخمسين سنة سافر رفاعة الطهطاوى — مصرى — الى باريس . انه يسجل فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » انطباعاته عن حياة الفرنسيين انه يقول : معلوم أن الفرنساوية يتكلمون بالفرنسية . طبعا . ولكنه بعد ذلك منبهر لانهم يستخدمون عربات لرش الشوارع بالمياه . منبهر لانهم يجلسون على كراسي ولايجلسون على الارض . منبهر لانهم يحبون النظافة ، مع انهم ليس عندهم « .. ذرة من الايمان » منبهر لانهم لاياكلون بايديهم ، وانما يستخدمون شوكة وسكينا . منبهر لانهم ينامون على « .. شيء مرتفع يسمى سرير » . منبهر لان المقاهى عندهم « .. ليست مجتمعا للحرافيش ، بل هى مجتمع لارباب

الحشمة » . منبهر لان لديهم « .. تذاكر يومية مسماة جرنالات جمع جرنال .. ماذون فيها لسائر اهل فرنسا ان تقول مايخطر لها » ..

ماذا حدث بعد مائة وخمسين سنة ؟ ماذا الآن ؟

ان الصورة تغيرت تماما . تغيرت جدا .

منذ عدة سنوات سافرت الى نيويورك ـ امريكا ـ ومونتريال ـ كندا . وفى كل مرة كنت اسمع فى المدينتين هذه الكلمات : بونجور .. جوتين تاج .. جود مورننج .. بونجورنو .. بوينوس ديلس .. هالو .. جودا .. اوهايو ..

كلمات كثيرة بالفرنسية والالمانية والانجليزية والايطالية والاسبانية والهولندية والدانمركية واليابانية

كلمات كثيرة ـ ولكنها كلها تعني كلمة واحدة عربية صباح الخير .

الآن تستطيع أن تسمع « صباح الخير » هذه ـ بلغتها العربية هذه .. فى تلك البلاد .. الآن سوف ترى مصريين هناك ، مهاجرين هناك ، ناجحين هناك ، قدما بقدم .. مع كل الجنسيات التى سبقتهم بالهجرة الى تلك البلاد .

انني كنت التقى بهم يوميا ـ على امتداد الاشهر الاربعة التى قضيتها فى كندا وامريكا . كنت اراهم فى العمل .. فى البيت فى خارج البيت .. وحدهم او مع زوجاتهم . وفي كل مرة كنت التقى بهم كان السؤال الذى يثور فى ذهنى دائما :

هل هؤلاء المصريون يختلفون كثيرا فى انطباعاتهم عن رفاعة رافع الطهطاوى ، الذى سافر كمبعوث وليس مهاجرا ـ منذ ١٥٠ سنة ؟

القول الحق ..

انهم يختلفون .. ولا يختلفون .

ان الفارق مازال هناك . ولكن الانبهار بتلك الدنيا الاخرى خارج الحدود اصبح مجرد دهشة . شعور بالدهشة .. ربما يحس به المصرى لمدة خمس دقائق . بالكثير خمسة ايام . ليس هذا هو المهم . ان المهم هو ان المصرى يدخل تلك المجتمعات

الغريبة عليه كرجل يستطيع ان يتعامل معها . انه ليس طفلا . انه لا يحبو . انه لا ينبهر . انه ـ للحقيقة ـ قد ينهزم مرة، ومرتين .. سوف نعرف لماذا .. ولكنه فى النهاية ينجح . انه انسان متحضر، مثقف . كل مايريده هو الفرصة المتساوية لبدء فى السباق بغير سلاسل . الباقى عليه . الباقى مسئوليته . اعطه الفرصة، وسوف يبهرك هو . سوف يدهشك هو بما يستطيع ان يفعله .

انك ربما تقرأ فى هذا الكتاب عن مصريين سافروا ـ هاجروا ـ بلا شىء فى جيوبهم . لاشىء يذكر . لا شىء حتى فى عقولهم .. سوى مجرد حلم . امنية . امل . تجربة . مسألة لو حسبتها بالقلم والمسطرة فسوف تحكم عليهم مقدما بالفشل . ولكنهم لم يفشلوا . لقد نجحوا . وعندما نجحوا كان نجاحهم اكثر مما توقعوه هم ـ حتى هم ـ لانفسهم .

وربما تقرأ فى هذا الكتاب عن فتيات مصريات ـ ربما امراتين او ثلاث ـ هاجرن بغير رجل يشق لهن الطريق .. ولاكتف يذرفن فوقها الدموع .. ثم نجحن .

وربما تقرأ فى هذا الكتاب عن استاذ جامعة مصرى ظل يدرس ٢٩ سنة لكى يحصل على الدكتوراه وعندما حصل عليها كانت كل الوظيفة التى حصل عليها هى .. صبى بقال .. انه لم يشعر بالبؤس، بالشقاء، بالمرارة بالهزيمة . لقد شعر بكل الرضا فى العالم . لهذا تحققت له بعد ذلك ـ بعد ذلك فقط ـ كل الاحلام التى يريدها

اكثر من ذلك .. ربما تقرأ فى هذا الكتاب عن معلم ابن بلد . رجل بجلباب وطاقية وصديرى وقبقاب . آسف، لم يكن فى قدميه قبقاب . لم يكن لديه دولار واحد يشترى منه قبقابا . ثم هاجر هذا الرجل .. ربما لم يكن يقصد ذلك . وربما لم يكن يعرف . ربما لم يكن يتخيل . ولكنه هاجر على اى حال . هاجر بغير كلمة واحدة يعرفها من اللغة العربية الفصحى ـ فما بالك باللغة الانجليزية .. ثم .. نجح هذا الرجل فى أن يصبح .. نصف مليونير .

و .. و .. و .. عشرات من القصص ومئات من النماذج التى لم تتخيل انت ـ مثلما لم اتخيل انا ـ انها يمكن ان تحقق هذا النجاح

فى بلاد تقع فى النصف الآخر من الدنيا . انهم حقائق . ليسوا مجرد اشاعات .

ولكن .. قبل ان تتعرف على هذه النماذج ـ وبعد أن تتعرف على بعضها ـ ربما تتعرف على اشياء اخرى اكثر غرابة فى هذا الكتاب .

ربما تقرا مثلا عن مجتمعات لها قيم مختلفة ومقاييس مختلفة، فى النظر الى الامور . هنا ارجو أن انبهك الى نقطة هامة . هذه هى : اذا قرات فى هذا الكتاب عن ناس يعبدون الله كل يوم احد، ويعبدون النقود كل دقيقة .. اذا سمعت فى هذا الكتاب عن امراة تمارس الحب مع رجل وزوجته فى سرير واحد .. اذا قرات عن فتاة تريد أن ترقص معك قبل ان تاكل معها .. فارجوك .. لا تصدر احكاما اخلاقية ضدهم . لا تستنكر . لا تستغفر الله وتضرب كفا بكف متحسرا على الاخلاق التى ضاعت والانحلال الذى تفشى . ارجوك لا تتحسر . منذ الف سنة ونحن نتحسر . لقد أردت بهؤلاء الناس ـ وباشياء اخرى فى الكتاب ـ ان اقدم لك اطارا عاما لافكار المجتمعات التى يعيش فيها المصريون المهاجرون . انه اطار عام .. نظارة طبية .. ميكروسكوب .. يكمل لك فجوة فى الحديث عن المصريين المهاجرين بامريكا وكندا . انهم نجحوا ـ بل نجحوا جدا ـ بناء على تلك الشروط التى وضعت قبل وصولهم . بناء على تلك الافكار التى استقرت قبل هجرتهم . هذا معناه ان مهمتهم كانت صعبة . وهذا معناه أن جهدهم كان مضاعفا . واذا كان كل واحد منهم قد صنع لنفسه الف دولار .. عشرة الاف .. مائة الف دولار .. فان نجاحهم فى حد ذاته ـ مجرد نجاحهم ـ هو الشىء الذى يستحق مليون دولار .

عزيزى القارىء ..

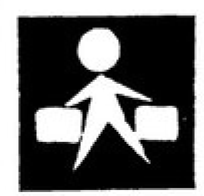
اقدم لك فى هذا الكتاب مصريين مهاجرين . مصريين بمليون دولار .. بعشرين مليون دولار .. بخمسين مليون دولار .. باكثر من خمسين . اننى ساتركك معهم خمس دقائق فى الفصل الاول .. ثم نلتقى من جديد فى الفصل الثانى . دعنا نسرع اليهم الان . تحياتى ..

محمود عوض

الفصل الاول :

بدأت حياتي في سن الخمسين !

ثلاث حكايات يرويها المهاجرون



❋ الحكاية الاولى :

●● « اسمي مصطفى .. »

ليس من المفيد ان أقول لك ان اسمي كاملا هو : مصطفى عزام ، لان هذا لن يجعلك تعرفني اكثر . في الواقع لاأحد يعرفني في مصر الآن الا حفنة أصدقاء ربما يكونون ما زالوا في الاسكندرية . حيث عملت فترة ، أو زملاء الطفولة بالمنصورة .. التي ولدت بها . ان المنصورة هي مدينة الطفولة والجمال والكورنيش والحوار والنيل .. ان كل ميدان في المنصورة ، كل شارع ، كل حارة . تقفز الى عقلي الان فورا بمجرد أن ذكرت لك اسم « المنصورة » . انها مدينة لايمكن ان ينساها أحد .. الست معي في ذلك ؟ !

انني احب المنصورة ، امشقها ، ولكن الحيــاة تقذف بالانسان دائما الى حيث لايتوقع . هذا ـ على الاقل ـ ماحدث معي عندما اضطررت .. بحكم الدراسة .. ان التحق بكلية التجارة في جامعة الاسكندرية . انت تطلب مني الدقة ؟ حسنا .

كنت طالبا شعبة المحاسبة بتجارة الاسكندرية ، الى أن تخرجت فيها في سنة ١٩٦٣ ، حاملا البكالوريوس في يدي اليسرى .. ولا شيء تماما في يدي اليمنى . لاشيء سوى بعض قصاصات الصحف التي تتضمن اعلانات الوظائف الخالية بالشركات والمؤسســات العامة . لاتهم اسماء الشركات ، فكل الوظائف مضمونها واحد بالنسبة لخريج الجامعة . انت تعرف العشرين جنيها . حسنا . عندما عينت في بنك الاستيراد والتصدير المصري كنت أحصل على هذه العشرين جنيها كل شهر . لم تكن عشرين بالضبط ، ولكنها كانت ١٧ جنيها و ٤٢ قرشا و ١٤ مليما .

كيف ارفع هذا المرتب ؟

هذا اول سؤال فكرت فيه . انت تعرف أن شابا في هـذه الايام لا يستطيع الحياة بسبعة عشر جنيها . ولكنك لا تعرف انني كنت طموحا جدا • كنت أريد أن تصبح السبعة عشر جنيها عشرين ، خمسين ، مائة ! ولماذا لا .. ؟ ان الاحلام هي الشيء الوحيد الذي لايخضع للوائح الشركات والبنوك ..

وبدأت ابحث عن حل . فكرت في ان ادرس الماجستير . ولكن اللوائح تقول انه لابد من الانتظار سنة بعد التخرج لكي يتم تسجيلي في دراسات الماجستير . ثم هناك بعد ذلك ماهو أهم : كم جنيها سيضيفها الماجستير الى مرتبي ؟ جنيهان ؟ ثلاثة ؟ بالكثير ثلاثة .

اذن .. ماهو الحل ؟

هناك حلول كثيرة . ولكن حلا واحدا منها سيطر على أفكاري : الهجرة• ولماذا لا ؟ ألم أقل لك من قبل أنني تعودت أن أحلم كثيرا !؟

ان الهجرة كانت بالنسبة لي حلما . اكثر من حلم . كانت مغامرة وقررت أن أقوم بهذه المغامرة : اذا نجحت فهو خير .. اذا لم تنجح فالعودة ممكنة الى السبعة عشر جنيها .

عند هذه النقطة بدأت أفكر : الهجرة .. الى اين ؟ الى استراليا انها بلاد بعيدة جدا ؟ ولا نعرف منها شيئا كثيرا . **الى امريكا ؟** اننا نعرف منها الكثير ليس مشجعا . **الى كندا ؟** ممكن ان كندا هي أوروبا زائد امريكا .

ثم .. سافرت الى كندا !

عندما وصلت الي مطار مونتريال كان اليوم هو يوم خميس . بالضبط كان يوم ٣٠ ابريل سنة ١٩٦٤ .

اذن .. هذه هي كندا ؟ ! لا . ليست هذه هي كندا بعد . انني ما زلت في مطار مونتريال بكندا . من المطار لا تستطيع ان ترى كندا بعد . تستطيع ان ترى فقط اجراءات الجوازات والهجرة ان الطائرة التي حملتني كانت تحمل معي مهاجرين اخرين قادمين من بلاد عديدة الى كندا . وبعد ان فحصوا اوراق كل واحد من هؤلاء .. حدثت معي اول مفاجأة .. لقد قالوا لي ان الشهادة الطبية التي احملها لا تصلح ، وانه لابد من اجراء كشف طبي جديد على قبل ان يسمح لي بالدخول . موافق . بعد هذا الاجراء اصبحت احمل تاشيرة الدخول الى كندا كمهاجر .

ولكنني في الواقع بقيت في المطار انتظر اول طائرة تتجه الى مدينة تورنتو . السبب ؟ ان مندوب الهجرة فيسفارة كندا بالقاهرة كان قد سألني قبل سفري عن المدينة التي اود الاستقرار بها عند هجرتي الى كندا . وقتها ذكرت له اربع مدن : كويبك سيتي ، مونتريال ، اوتاوا ، وتورنتو . لقد حددت تلك المدن على اعتبار انها تتمشى مع اللغتين اللتين إجيدهما : الفرنسية والانجليزية . ساعتها قال لي مندوب الهجرة انه ينصحني بالاتجاه اولا الى مدينة تورنتو ، لان اقتصادها في حالة انتعاش واستقرار . حسنا . انا الان اتجه بالطائرة الى تورنتو .

هل تعلم كم كان معي عندما وصلت الى مطار تورنتو في تلك الليلة ؟!

كان معي عشرة دولارات . اى والله . عشرة دولارات فقط ، كانت هي كل ثروتي التي هبطت بها في تورنتو . لقد خرجت من مطار القاهرة ومعي اربعون دولارا فقط . الان سمعت ان المهاجر يحصل على اضعاف هذا المبلغ عند خروجه . المهم ، انه حتى تلك الدولارات الاربعين ، لم تستمر في جيبي حتى كندا . لقد انفقت منها ثلاثين دولارا في المطارات الاوربية التي هبطت فيها الطائرة قبل وصولي الى كندا .

والان .. انا امام اول مشكلة . هذه هي كندا : بلد لا اعرف فيه شيئا ولا احدا . هذا هو جيبي : لايحتضن من النقود سوى الدولارات العشرة . لا يحتضن حتى عقد عمل ، او وعدا بعمل . لهذا كان جيبي هو اول جزء في ملابسي يحس ببرد كندا . ان عشرة

دولارات لا تكفى ابدا لخلق الاحساس بالدفء ، او الراحة ، او الطمأنينة !

ولكن .. الم اقل لك من البداية انها كانت بالنسبة لى مغامرة ؟

انى اراك الان تعترض اراك تتحفظ على كلمة « مغامرة » هذه . تقول ان هناك فرقا كبيرا بين المغامرة والمجازفة . وان ما قمت به انا هو اقرب الى المجازفة منه الى المغامرة . موافق . ولكننى فى الواقع لم اجازف . بينى وبينك انا كنت معدا نفسيا لتقبل كل شيء . اسوأ شيء . لقد سافرت على اساس انى سأعطى لنفسى مهلة سنة . فى هذه السنة اتفقت مع نفسى على ان اقبل اى شيء ، وارضى باية ظروف . لم يكن عندى مانع من ان اكنس ، اغسل اطباق ، اعمل سائقا ، اعمل حمالا ، فراشا ، ماسح احذية .. اى شيء . لم يكن لدى اية توقعات .

لقد قررت مع نفسى ان اتوقع اسوأ الحلول الممكنة ، اسوأ الظروف الممكنة . اننى ــ حتى ــ لم احمل معى تذكرة عودة من كندا ، لكى ارغم نفسى على اختبار قدرتى على التحمل والمعاناة لمدة سنة . كل شيء ــ بعد الجوع ــ كنت مستعدا لتقبله . بل حتى الجوع كنت مستعدا لمواجهته . اننى اعرف ان هذا هو الشرط المهم عندما ينتقل الانسان الى حياة جديدة وظروف جديدة . لم اكن اتوقع مساعدة من احد ، ولا حتى مجرد نصيحة . لم اكن اتوقع ان احكى همومى لاحد .. انا وحدى .. ضد ظروف لا اعلم عنها شيئا بعد . كل ما اعلمه الان شيئا واحدا : اننى مازلت فى مطار تورنتو . مازال فى جيبى عشرة دولارات . ما زال على ان ابحث عن طريقة للتصرف . هذه هى : ذهبت الى ضابط الهجرة فى المطار وسألته ــ ماهى المساعدات الممكنة التى يستطيع تقديمها لمهاجر جديد مثلى مهاجر يعرف قليلا ويملك اقل ؟

وقال لى ضابط الهجرة : اطمئن · خذ هذه التذكرة · اتجه بها الى فندق « فورد » فى المدينة ، وسوف يحسبون لك الليلة الواحدة بدولارين فقط ، الى ان تتوجه فى الصباح الى ادارة الهجرة فى تورنتو ·

ــ جميل ·· ولكن ·· كيف اذهب من المطار الى « فندق فورد » ؟

رد الضابط : بالتاكسى ··

ــ كم يتكلف التاكسى ·· تقريبا ؟

ــ ثمانية دولارات ·

ــ ثمانية دولارات ؟! ان كل ما املكه فيجيبي هوعشرة دولارات. معنى ذلك انه بعد دفع اجرة التاكسي لن يبقى معي سوى أجر المبيت ليلة واحدة ٠٠؟

هنا لم يستطع الضابط ان يرد . كانت دهشته اكبر من اى كلمات يمكن ان تخرج من فمه . لقد اعتاد هذا الضابط علىاستقبال مئات المهاجرين كل يوم • واعتاد على أن يرى عشرات من هؤلاء المئات فى حالة يرثى لها . ولكنه لم ير ابدا ــ هكذا بدا عليه ــ مهاجرا قادما بمجرد عشرة دولارات في جيبه • هذه حالة تستحق الرثاء تستحق العزاء • تستحق القتل • عشرة دولارات ٠٠ ؟ عشرة ٠٠٠ دولارات ؟ عشر . . ؟

ان الضابط لم يملك لحظات عديدة تالية ــ سوى أن يعبر عن دهشة ، لم يبد من علاماتها شيء كثير علىوجهه ــ مجاملة لمشاعرى ــ ولكننى بالتأكيد كنت أحسها ، كنت أتوقعها ، انه لم يملك ــ بعد لحظات أخرى سوى أن يقول لى : انتظر •

ودخل الضابط الى المكتب ليتشاور مع رئيسه فى هذه المشكلة الفريدة • لحظات قليلة أخرى ، ثم عاد الى بتذاكر جديدة بدلا من التذاكر الاولى •

قال لى الضابط : اعطه التذاكر الاولى من فضلك • أنها لا تصلح فى مثل حالتك • خذ هذه التذاكر الجديدة بدلا منها • توجه الىنفس الفندق • بهذه التذاكر تستطيع أن تبيت وتأكل فى الفندق مجانا • الوجبة التى لاتتناولها فى الفندق تستطيع أن تحصل من الفندق على ثمنها ــ دولار ونصف • أما أجر التاكسى فلا أستطيع التصرف لك فيه ٠ لابد أن تدفعه أنت •

ولم أكن محتاجا الى هذه الجملة الاخيرة من الضابط • طبعا سادفع انا اجر التاكسى • لقد قدم لى الضابط أقصى مساعدة ممكنة بروح من الفهم والتقدير . . لم أكن اتوقعها منه ، فبعد كل شيء . هذه مشكلتى أنا ٠٠ وليست مشكلته هو •

× × ×

المهم ٠٠ وصلت الى الفندق ، فبعد أن نقصت الدولارات فىجيبى من عشرة الى مجرد دولارين • مشكلة لابد أن أواجهها ابتداء من الصباح التالى •

فى الصباح كنت أول من توجه الى مكتب الهجرة فى تورنتو • طبعا كنت هناك من الفجر • تريد منى التفصيلهنا ؟ حسنا • مكتب

الهجرة هذا هومكتب ضخم ، يختص بكل مايتعلق بالهجرةوالمهاجرين .. ان به قسما خاصا بتشغيل المهاجرين الجدد . عندما تتوجه لى الى هـذا القسم يحددون لك رقما · وموظفا لتسجيل بياناتك · يسمى ضبط الاستخدام . انه يفتح لك ملفا خاصا بك . من الان فصاعدا ، سوف تسجل في هـذا الملف كل بياناتك أولا بأول ، المؤهلات ، الخبرة ، السن (كانت سنى يومها أقل من ٢٤ سـنة)، البلد الاصلى ، الحالة الاجتماعية ، تاريخ الوصول ، نوع العمـل المرغوب فيه . . وهكذا . . بعد ذلك يحاول رشادك الى كيفية الحصول على مسكن · فى نفس الوقت يعطيك مساعدة مالية حسب تقديره لحالتك المبدئية · فى حالتى انا أعطانى عشرين دولارا · ثم ــ الخطوة الهامة ــ هى البحث عن عمل · عند هذا الحد أمسك الضابط باحدى يديه مجموعة من اعلانات الوظائف الخالية بالصحف ، وباليـد الاخرى دليل التليفونات انه يتصل تليفونيا بكل شركة يمكن ان تناسبها مؤهلاتي وخبرتي وسني ، فى النهاية أعطانى عنوان شركة تريد محاسب تكاليف ، وقال لى : توجه الى هـذه الشركة · انهم سيجرون لك اختبارا شفويا لقياس مدى صلاحيتك للوظيفة التى يبحثون عن موظف لها . اذا لم توفق . . فعد الينا مرة أخرى .

وبسرعة البرق · توجهت الى تلك الشركة · وبعـد أن أجريت الاختبار قالوا لى سنرسل اليك الرد على عنوانك بالفندق ·

ولم أقتنع ·· في الواقع لم اكن اريد أن أنتظر·· لاوقت للانتظار ليس لدى يوم واحد أضيعه · ليست لدى ساعة ، دقيقة ، ثانية · ·· يمكن أن أضيعها فى غير المهمة الاولى العاجلة جدا : البحث عن عمل ··

لقد نزلت من الشركة واشتريت جريدة لأبحث فيهـا بنفسى عن اعلانات الوظائف الخالية بالشركات · وحتى من غير هذه الاعلانات بدأت أقرأ اللافتات في الشـوارع ، وأدخل الى مراكز الشركات · مركزا مركزا وشركة شركة ·· لكى أبحث عن عمل ·· لم أوفق ·

الان بدأت اراجع نفسى : انى انفقت آخر دولارين معى على المواصلات والصحف · لم يبق معي غير العشرين دولارا التى تسلمتها فى الصباح من ضابط الهجرة· ان كل شركة أتوجه اليها·· تسألنى عن عنوانى لكي يرسلوا الى عندما يحتاجوننى · اذن الخطوة الاولى بعـد توفير الطعام ــ هى : البحث عن مسكن أستقر فيه ·

ومن الفندق بدأت أسأل عن أرخص مسكن ممكن· وقبل أن يقترب النهار من نهايته عثرت عليه : حجرة صغيرة جدا ، صاحبتها سـيدة

عجوز من أصل مجرى · كم تريدين ياسيدتى ايجارا لهذه الحجرة ؟
ــ ١٥ دولارا فى الاسبوع ·
ــ لا ·· لا ·· هذا سعر مرتفع للغاية · تكفى عشرة دولارات ·
ردت السيدة العجوز: اسمع ·· اننى لم أتعود هذه المساومة أبدا· ومع ذلك ، تفضل ·· الحجرة لك ، بعشرة دولارات !

وعلى الفور نقلت حقائبى الى الحجرة الجديدة بعد ان اعطيت للسيدة عشرة دولارات · الآن لم يعد معى سوى عشرة دولارات أخرى · ان هذه الدولارات لن تنام معى . قرارا اتخذته حتى لا اتعرض للجوع فى الايام القليلة التالية . هذا ما اشتريته بها بالضبط .. عشر تذاكر للمواصلات ، دستة بيض ، زجاجة لبن كبيرة ، خمسة ارغفة من الخبز ، ثم ·· لم يعد معى ولا مليم ، أقصـد ·· ولا سنت واحد ! لكن ·· بعد أن توفر المسكن والطعام ·· يستطيع الانسان أن ينام مستريح البال حتى الصباح ·

× × ×

فى الصباح عدت الى ادارة الهجرة · من هناك أرسلونى الى شركة أخرى · شركة اسمها « ديهافيلاند » لصناعة الطائرات · وعنـدما وصلت قالوا لى : عد الينا غدا ·· لاجراء الاختبار ·

مرة أخرى ، لم أقتنع · لقد خرجت من هـذه الشركة لأواصل البحث عن عمل فى شركة أخرى · كل شركة ، أى شركة ، أى عمل .. لايهم .. محاسـبة ، احصاء ، ادارة أعمال ، غسل اطباق .. لا يهم ··

هل تعلم كم شركة ذهبت اليها فى أول ٣٦ ساعة فى تورنتو ؟ ٣٨ شركة · هل تعلم السؤال المشترك الذى كنت أسـمعه فى كل شركة ·· هذا هو : هل عندك خبرة كندية ؟

ــ ماذا تقصد بـ « خبرة كندية » ؟

ــ نقصـد ··· هل لديك خبرة سابقة فى العمل بكندا ؟

ــ لا ·· طبعا !

ــ اذن سوف نرد عليك بالبريد !

سؤال واحد كنت أسمعه ، اجابة واحدة كنت اقولها ، ونتيجة واحدة كنت أخرج بها · فى كل حديث أجريته داخل قسم الاستخدام بأى شركة · وحتى نهاية اليوم الثانى لى فى تورنتو ــ لم تكن هناك أية بشائر بانى سوف أحصل على عمل خـلال فترة قريبة · كلهم يصرون على حكاية « الخبرة الكندية » هذه ! ، وانا لا املكها بعد.

ال « خبرة الكندية » . اذن سوف « نرد عليك بالبريد » .اي: لا عمل !٠٠ لا وظيفة ٠ لا طعام بعد يومين ٠ لا مسكن بعد خمسة ايام ٠ لا حياة بعد اسبوع !

وفكرت ٠٠ لماذا لا اترك الشركات الكبيرة ـ وابحث عن عمل في اى مكان آخر لماذا لا اقوم مثلا بغسل الاطباق او الخدمة في اى مطعم أو بار صغير ٠ الم اتفق مع نفسي من البداية على أن أكون مستعدا لاسوا ظروف ؟ هذه اسوا ظروف غسل اطباق او مسح احذية ٠٠ لا يهم ٠٠ المهم الآن هو الحصول على مورد للحياة بسرعة ٠

ودخلت الى مطعم ٠ انه مطعم صغير ، قرأت اعلانا في واجهته من الخارج ، اعلانا عن حاجته الى شخص يخدم ليلا ويغسل الاطباق مقابل اربعين دولارا في الاسبوع ٠ أجر حقير جدا ، ولكنه في النهاية أحسن من لاشيء، احسن من العدم .انا الآن في حالة «عدم»!

ودخلت الى المطعم اعرض القيام بهذه الوظيفة ٠ وظيفة غسل الاطباق ، ولكنني فوجئت بنفس السؤال من جديد :

ـ هل عندك خبرة كندية ؟

ـ ياناس ! حتى غسل الاطباق يحتاج الى « خبرة كندية » :

نعم ٠ هذا ماحدث ٠ لقد كنت أتصور أن تواجهني أية مشكلة، الا هذه المشكلة ٠ ما هو الحل لهذه المشكلة ٠٠ ما هو الحل ؟٠٠ هكذا نمت ليلتي الثانية وأنا أحس بسد عال يواجهني اسمه « الخبرة الكندية » ! عفريت طاردني حتى في أحلامي تلك الليلة ! وفي كل مرة ـ داخل الحلم ـ كان العفريت يبدو لي بملابس مختلفة ، بأشكال مختلفة ، بأحجام مختلفة ، ولكنه هو هو في كل مرة ٠٠ وكلماته هي هي في كل حلم : أنا الخبرة الكندية !

في اليوم التالي ذهبت الى الموعد المقرر في شركة « ديهافيلاند » للطائرات لاجراء اختبار القبول لوظيفة محاسب تكاليف في قسم صناعة الطائرات « د٠س ـ ٩ »

وبعد ان ناقشني المدير المختص في مؤهلاتي وخبرتي قال لي :

ـ اننا سوف نرسل اليك الرد بالبريد ٠ ولكنني اقولها لك من الان بصراحة .. نحن لن نقبلكبسبب عدم توافر شرط اساسيفيك وهو « الخبرة الكندية »

ها هو العفريت ، الشبح ، يعود ثانية الى مطاردتي ٠ ولكنني تمالكت نفسي وأنا اقول للرجل ـ بهدوء ولكن بغيظ مكتوم :

ـ سيدي ، انني احترم رايك طبعا ، ولكنني اطلب نصحيتك في

هذه المشكلة : انني لا استطيع العمل في كندا الا اذا كانت لدى « خبرة كندية » .. ولكن .. من ناحية اخرى .. كيف احصل على خبرة كندية .. دون ان اعمل في كندا ؟ ثم .. نقطة اخرى لو سمحت ـ هل كانت امامى طريقة للحصول على هذه الخبرة الكندية في مصر .. قبل ان احضر الى كندا ؟

عند هذه النقطة بدأ الرجل يشعر بالحرج ، فالمشكلة تبدو فعلا بلا حل . البيضة من الفرخة أم الفرخة من البيضة . ولكنني استأنفت حديثي الهادىء مع المدير الرقيق .

قلت : ما دمت ترى فعلا أنها مشكلة ، وأنه لا ذنب لى في هذه المشكلة ، فانني أتقدم لك برجاء واحد : لماذا لا تعطينى فرصة متساوية مع الذين لديهم خبرة كندية فاذا اثبت في الاختبار انني في مستواهم او أحسن منهم ، حصلت على العمل . واذا ثبت أن افتقادى للخبرة الكندية يقلل من كفاءتى ، حصل على العمل من هو أكفأ منى . انها تجربة .. أرجو باخلاص أن تحاولها .

ولم يملك الرجل سوى أن يقول : معك الحق .

وعلى هذا الاساس سمح لى المدير بدخول امتحان المسابقة مع باقى المتقدمين لشغل هذه الوظيفة . كان عددهم ثمانية ، وأنا تاسعهم . هل تعلم ماذا كانت النتيجة .. انني لم أكن التاسع ، ولا الثامن ، ولا حتى الخامس . لقد اصبحت انا .. الاول .. نعم الاول على الثمانية ، كلهم لديهم « الخبرة الكندية » !

وبعد يومين استدعانى المدير ليقول لى مبروك ! الوظيفة لك !

ان أى كلمات أقولها لك الآن لن تستطيع أن تشرح لك مشاعرى في تلك الدقيقة . تلك اللحظة . اننى ما زلت أذكر الساعة ، الدقيقة التى قال لى فيها المدير تلك الكلمات الثلاث . ولا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم . كان يوم ثلاثاء . لو كنت في مكانى ، لو كان نفس ذلك الشبح ـ شبح الخبرة الكندية ـ قد واجهك مثلى ، فهل كنت تنسى ذلك اليوم ؟ انه بالنسبة لى هو اليوم الذى توقف فيه الشبح عن ملاحقتى ومطاردتى حتى في أحلامى . انه أهم عندى من اليوم الذى استلمت فيه العمل فعلا .. يوم ١١ مايو سنة ١٩٦٤ ، اليوم الذى بدأت فيه العمل بكندا لأول مرة ، في وظيفة محاسب تكاليف : المرتب ٨٥ دولارا في الاسبوع . هل تعلم ماذا حدث بعد ذلك .

في خلال سنة ونصف ارتفع مرتبى بهذه الشركة الى ١٠٥ دولارات اسبوعيا ، بالاضافة الى اجرى عن العمل الاضافى بالشركة ثلاث ليال

أسبوعيا ، مما جعل المرتب يصبح ١٢٠ دولارا ، أى ٤٨٠ دولارا فى الشهر ٠

ولم يكن هذا هو كل ما أتمناه بعد ٠ ولـكنه كان يكفى لوجود درجة من الاستقرار فى حياتى ، فارسلت الى مصر أستدعي خطيبتى التي كنت قد خطبتهـا قبل سـفرى ٠ لقد نسيت أن أحدثك عن خطيبتى ٠٠ أليس كذلك ؟ لايهم ٠ انها ستغفر لى هذا النسيان ٠٠ معلهش ياناديه . انها حاصلة على الثانوية العامة فرنسى . وبعد أن حضرت وانتهينا من عقد القران ، استطاعت أن تحصل على عمل بستين دولارا أسبوعيا ٠

ثم بدأت الحياة بعد ذلك تسير معنا سيرها الطبيعي : قدمت طلبا لجامعة تورنتو لدراسة الماجستير في الاقتصاد ٠ بعد عدة شـهور قبلتنى الجامعة ٠ ونظرا لأن دراسة الجامعة تحتـاج الى تفرغ ، فقد حصلت من الحكومة على ألف دلاور كقرض أدفـع منـه مصروفات الجامعة عن مدة سنة (٥٥٠ دولارا) ثم أسدده بعد الحصول على الماجستير مقسطا على خمس سنوات ٠

وعندما وجدت أننى لن أستطيع الجمع بين العمـل والدراسة ، استقلت من العمل ٠٠٠ وتفرغت للماجستير ٠ بالطبع لم يكن مرتب زوجتى يكفى للانفاق علينا نحن الاثنين ، فبحثت عن عمـل بسيط يأخذ منى ساعات اقل ويعطينى اجرا اقل طبعا . لقد وجدت هذا العمل ف مطعم وناد ليلى بمطار تورنتو لمدة ثلاث ليـال فقط ف الاسبوع ـ الجمعة والسبت والاحد ٠ لقد كان هذا العمل عبارة عن مراقب للمطبخ نظير خمسين دولارا فى الاسبوع ٠

ورغم أننى انتهيت فى آخر السنة من اعداد رسالة الماجستير ، الا اننى كنت اريد تحقيق نتائج اكبر فى وقت اقل ٠ الم أقل لك من قبل ان طموحى اكبر منى ٠ وأحلامى اكبر من طموحى ، ومشروعاتى اكبر من احلامى !

نعم . هذه هى الحقيقة . فقبل ان انتهى من الماجستير الاول ف الاقتصاد ٠ قدمت طلبا الى جامعة يورك للحصول على منحة دراسية لتحضير الماجستير فى ادارة الاعمال ٠ قبلتنى الجامعة ٠ اعطتنى منحة ١٥٠٠ دولار ٠ وقبل أن ينتهى شهر ابريل سنة ١٩٦٧ ـ كنت قد حصلت على الماجستير فعلا ٠

ان الماجستير كان بالنسبة لى مجرد شهادة معلومات وخبرة ، فى فرع يحتاج اليه المجتمع ٠ ان كل شركة هنا تعتبر أن نجاحها يعتمد اولا على نجاح تنظيمها وادارتها . لهذا لم يكن غريبا أن التحق ـ بعد

الماجستير ـ بشركة « أسو » للبترول ، كخبير في التنظيم والاقتصاد، بمرتب ٧٠٠ دولار في الشهر ، وخلال سنة واحدة تمت ترقيتي الى وظيفة رئيس مشروعات في التنظيم الاقتصادى بنفس الشركة وارتفع المرتب هذه المرة الى ٨٥٠ دولارا شهريا ٠

ان الترقيات هنا لا تتم بالاقدمية ولا بالمجاملة ، ولا بالطابور ، ولا بعدد الاولاد ٠ لا شيء من هذا مطلقا ٠ ان الشركة هنا ـ اى شركة ـ تتوقع منك أن تعطيها أولا حقها في العمل والانتاج ، قبل أن تعطيك هي حقك في المكافأة أو التقدم ٠٠ وعندما يكون الانسان وافدا جديدا الى المجتمع الكندى ـ او حتى اى مجتمع آخر ـ فانه محتاج الى أن يبرر نفسه مرتين : مرة كغريب ، ومرة كشخص عامل منتج ٠ لهذا كنت أحس دائما بأنه اذا كان المواطن الكندى يعمل مرة ، فلابد أن اعمل مرتين . اذا كان عليه أن يكون كفءا سبع ساعات ، فيجب علي أن أكون كفءا ٢٤ ساعة ٠ ان الطموح كان دافعى الى الهجرة ، والكفاءة هي طريقى الى الطموح . لهذا لم يكن غريبا على بعد ذلك أن اترك العمل في شركة « أسو » ، لانني وجدت عملا بمرتب أكبر في شركة أخرى ، هي أكبر شركة للاطعمة هنا ٠ شركة اسمها « جنرال فودز » ان عملي الجديد ٠ الذى هو عملي الحالى ، هو مستشار اقتصادى لدراسة التنظيم الداخلى واستثمارات السوق ٠ المرتب ؟ ١٤ الف دولار في السنة ٠ ولكن دخلي السنوى هو في الواقع أكبر من هذا ، لانني أقوم ببعض الاعمال الحرة الى جانب عملي الثابت هذا ٠ فمنذ حصولي على الماجستير في ادارة الاعمال أقوم بتقديم بعض الاستشارات لبعض الشركات الصغيرة بعد وقت عملي المعتاد . من هذه الاستشارات احصل على دخل يدور حول رقم الخمسة آلاف دولار في السنة ٠ ان هذا يجعل دخلي السنوى الان ١٩ الف دولار ، أو أكثر قليلا من ١٥٠٠ دولار في الشهر ٠ هل اقول لك الحقيقة ؟ انني لست مقتنعا بعد بهذه النتيجة ، رغم انني فخور بها انني ما زلت مؤمنا بأن المجال مفتوح أمامي لأحقق نتائج احسن ودخلا أكبر ٠ والا ايه يانادية ؟ ! آه ٠٠ ان نادية ـ زوجتي ـ مشغولة الان مع انتاجنا المشترك : طفلتنا نيفين ٠ لا ٠٠ لا ٠٠ ان عمرها مجرد ثلاث سنوات ، والفضل في رعايتها يرجع الى أم زوجتي ، حماتي يعنى التي تقيم معنا الان في منزلنا بتورنتو ٠ الحكاية ،ان ٠٠ حماتي تحبنى ٠ حب متبادل طبعا ، والا ايه ياحماتي ؟ !

❋ الحكاية الثانية :

●● راسب ابتدائية :

ارجو الا تنزعج عندما اقول لك انني راسب ابتدائية ! نعم ، لا تنزعج ، لان هذا ليس بعدأسوأ ما يمكن أن اقوله لك عن نفسي !

ان اسمي ليس : جابر كما قالوا لك . اسمي الاول هو جلال . نعم .. جلال محمود جابر .. وأنا مجـرد الشخص الذي تراه امامك الان . وهذا المحل الفخم الذي تراني فيه .. أنا صاحبه . ربما اذا عدت في مرة تاليـة فسوف تجدني قد اشتريت العمارة كلها التي تقع فوق هذا المحل . انني سأفعل ذلك ، لانني احب هذا الحي من مدينة أوتاوا . ان أوتاوا بالنسبة لي ليست مجـرد عاصمة لكندا ، انها هي المكان الذي عشت فيه تلك الفترة المبكرة من حياتي . مكان حققت لي فيه الثروة ، والخبرة ، والاسرة ، والاطفال . ولكن .. هل انت متأكد حقا انك تريد ان تقابلني انا .. رغم أنني ساقط ابتدائية ؟! ورغم أنني جئت الى هنا ـ الى كندا ـ دون أن أعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية ، أو حتى الفرنسية ؟ ورغم أنني عملت هنا في البداية ساعيا ، وسـائقا وخادما ؟ هل أنت متأكد ؟ هل أنت ... ؟ يجوز ... ! اذن .. دعني اقول لك حكايتي من البداية .

وانا ياسيدي مولود في طره البلد . بالضبط مولود في ١١يونيو سنة ١٩٤٢ نحن ستة : الاب والام ، ثم أخ يعمل في مصـانع حلوان للنسيج ، وأخت أكبر مني ثم أخت أصغر .

عندما يئست في مصر من نجاحي في الابتدائية ، عملت حلاقا . حلاق رجال أولا ، ثم حريمي بعد ذلك . أنت تعرف طبعا .. فلوس الحريم اكثر من فلوس الرجال !

لقد ظل عملي هو « كوافير » ، الى أن قرأت اعلانا عن حاجة وزارة الخارجية الى شخص يشغل وظيفة (ساعي) في قنصـلية الجمهورية العربية المتحدة بمدينة مونتريال . بيني وبينك ، لم اكن في البداية أعرف ما هي مونتريال هذه . كل ما كنت أعرفه هو انها مدينة تقع في بلد اسمه كندا . وأن كندا هذه هي بلاد بعيدة عنا جدا . أبعد كثيرا من .. اسوان !

المهم .. انهم قبلوني للعمل في تلك الوظيفة «ساعي» . وسافرت لعلا الى كندا في أواخر سنة ١٩٦٠ . مجرد شخص راسب في الابتدائية ، عمره ١٨ سنة ، يحاول ان يستوعب كل هـذه الدنيا

الجديدة التي وجد نفسه في وسطها • طبعا كنت أعرف قليلا من اللغه الانجليزية • يادوب •• ، ثانك يو •• جود مورننج •• تشرب قهوة ؟ لازم تشرب قهوة ، !!

في البداية ، لم تكن هناك مشكلة • ان شخصا مثلي ، يعمل ساعيا في القنصلية المصرية بمونتريال لابد ان يكون معظم تعامله اليومي مع مصريين مثله ، أو عن طريق مصريين يتحدثون لغته • ولكن من ناحية أخرى ـ فان العمل في القنصلية له متاعبه أيضا ففي كل يوم يحضر عشرات من المصريين ليقوموا بتجديد جوازات سفرهم ، أو استخراج جوازات جديدة ، أو شهادات ميلاد ، أو تسجيل قران • وعندما يسمع الواحد منهم كلمة ، تعال في الاسبوع القادم ، يكاد فقد أعصابه • طبعا هذا •• غلط ! هي الدنيا طارت ؟ يعني ايه لو تاخرت الاوراق أسبوع ؟ أو حتى شهر ؟! خلاص ؟! الصبر انتهى ! الواحد كان يتعب في الشرح لهم • طيب •• أقول لك ؟ الموظفين كانوا بيتعبوا جدا • بيعملوا اللي عليهم . لكن ـ التعليمات .. تعليمات ـ اللوائح .. لوائح ! لازم اللوائح •• لوائح ! لازم اللوائح والقوانين تنفذ لاستخراج كل ورقة • طيب •• انت بذمتك •• توافق على كسر اللوائح والتعليمات ؟ طبعا لا •• ،

على أي حال ، أنا ظللت في القنصلية الى أن نقلت ساعيا بالسفارة في أوتاوا العاصمة ، بعد أن تقرر اغلاق القنصلية في مونتريال • ولكنني بعد فترة بدأت أفكر : أريد أن أستقر ، أن أتزوج ، أن أكسب ، أن أجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية • لقد حصلت من قبل على برنامج في وزارة الخارجية بمصر لمدة ثلاثة شهور لتعليم مايمكنني من الانجليزي والفرنسي• ولكنني هنا ـ في كندا ـ بدأت بحكم التعامل مع الناس التقط أكبر ما يمكن من الكلمات وأحفظها • وحتى عندما كنت أشاهد برامج التليفزيون ، كنت أتابع الكلمات في الافلام وأحفظها • شهر بعد شهر •• سنة بعد سنة •• الى أن أصبحت في سنة ١٩٦٨ أجيد التعامل بالانجليزية ، وقليل من الفرنسية ، ثم أنني كنت قد سافرت الى مصرفي أجازة سنة١٩٦٤ . أجازة قمت فيها بعقد قراني على احدى قريباتي • بنت خالتي • وعندما وصلت زوجتي الى هنا ـ الى أوتاوا ـ بدأت أحس فعلا أنني رب أسرة • وعلى فكرة : ان زوجتي جاءت الى هنا وهي أيضا لا تعرف كلمة واحدة أجنبية • ولكنها للحقيقة استطاعت أن تدبر أمورها مثلما استطعت أنا في البداية

المهم ، أنه عند هذا الحد قررت أنه من الضرورى أن أجرب حظى فى العمل خارج السفارة . أنت تعرف ان المرتب هو السبب طبعا • كنت أرى الناس تكسب الالاف كل يوم •• بينما مرتبى فى السفارة مائة دولار فى الشهر • لهذا قدمت استقالتى فى سنة ١٩٦٨ من العمل بالسفارة ، وتحولت الى مهاجر بعد أن استكملت أوراقى من مصر ثم من كندا •

و •• بدأت أبحث عن فرصتى داخل المجتمع الكندى ••

فى البداية عملت فى مستشفى بأجر ٩٥ دولارا فى الاسبوع ، اى ٣٨٠ دولارا فى الشهر • بعد فترة عملت سائقا فى سفارة الارجنتين هنا — فى أوتاوا — ورغم أننى كنت سائقا للسفير ، الا أننى تركت هذا العمل بعد اسبوعين فقط • لقد اكتشفت أننى أترك وظيفة ، لاعمل فى وظيفة أخرى • وأن المرتب مضمون كل شهر ، ولكنه ثابت • كنت أريد أن يتغير دخل مرة واحدة • قفزة واحدة • بخبطة واحدة • ان هذا لا يحدث فى الوظائف ، ولكنه يحدث فقط فى التجارة . فقررت أن اعمل فى التجارة

لقد ساعدنى فى الاقتناع بهذا القرار صديق فلسطينى موجود هنا فى أوتاوا . لقد ذهبت اليه اولا اطلب منه الاشتراك معى فى البحث عن شقة للايجار .وخلال تجولنا اكتشفنا هذا المحل ،الذى ترانى فيه الان . ان صاحبته هى سيدة لبنانية عجوز هاجرت الى هنا منذ فترة طويلة • وبعد مناقشة مع السيدة اكتشفت أننى أستطيع أن أستأجر المبنى كله بمائة وخمسين دولارا فى الشهر • مبنى من دورين كما ترى : محل تجارى فى الدور الارضى ، وشقة واسعة فى الدور العلوى •• و •• اتفقت مع السيدة اللبنانية على استئجار المبنى ، رغم أنه لم يكن فى جيبى ساعتها دولار واحد •• من أين اذن أدفع الايجار ؟

بسيطة •• لقد ذهبت الى بنك •• وحصلت على قرض قدره ثمانمائة دولار بضمان شخصى • بهذه ال ٨٠٠ دولار بدأت حياتى من جديد • لقد دفعت ايجار المبنى للمالكة ، ثم أثثت الدور الارضى كمحل تجارى ، اقصد محل بقالة اعمل فيه انا ، ثم قمت بتأجير الدور العلوى حجرة حجرة • ان الدور فيه خمس حجرات •• بأربعين دولارا ايجارا للحجرة فى الشهر •• فتكون الحصيلة هى مائتى دولار فى الشهر . يعنى .. ايجار من الباطن !

بعد ستة اشهر بدأت حياتى تنتظم .. المحل التجارى يكسب .. الايجار مدفوع ، حصيلة الحجرات الخمس مضمونة • ثم أننى

أعمل فى المحل وحدى ليل نهار ، وأحيانا تساعدنى زوجتى .

ونتيجة لهذا كله أخليت الدور العلوى من السكان ، وأقمت فيه مع زوجتى والاطفال . لقد حدث هذا بعد ان اصبح كل ماق المحل مملوكا لى . نعم ، كل ماتراه الان امامك أنا صـاحبه . بمعنى آخر .. فان رأسمال هذا المحل الذى تراه ، هو الآن عشرة آلاف دولار . انا الان صاحب هذه العشرة الاف دولار . تعرف ليـه ؟ لان المحل حقق أرباحا فى السنة الاولى قدرها ثمانية آلاف دولار . ارباحا صافية بعد استبعاد مصروفاتى الشخصية . اننى أريد أن تقفز الارباح هذا العام الى ١٢ ألف دولار .. ان شاء الله ..

تعرف الحقيقة ؟ أنا فخور بما عملتـه ، فخور بأننى بدأت من لاشىء . ولا حتى كلمة انجليزى . اننى فخور أيضا بزوجتى . لقد ساعدتنى كثيرا . فى الواقع ان كلا منا ساعد الآخر كثيرا . ولكننى أقول : ان كل هذا بتوفيق من الله . هل ترى هذه اللوحة المعلقة داخل المحل . انها تقول باللغة العربية « يارب » . اننى اتفاءل بها ، كثيرا ، رغم أن زبائنى الكنديين لا يعرفون ما هى هذه اللوحة أو ما هو مكتوب فيها . ولكنهم يعرفون هذه الصورة المعلقة أمامك : صورة أبو الهول . انهم يفهمون أيضا هذه الصـورة الاخرى المعلقة : صورة مسجد السيدة زينب . الفاتحة لام هاشم .

× × ×

هل تعرف ما هى المسألة التى تشغلنى الان ؟انها هذا المنزل . لقد تعاقدت مع صاحبته على اسـتئجار هذا المبنى لمدة خمس سنوات . ولكننى الان أريد أن أشتريه . أريد ذلك .. لاننى اريد أن أحس انه قد أصبح ملكا خالصا لى . هل تعـرف كم تريد فيه صاحبته ؟ ٢٨ الفا و ..٥ دولار ! لقد قلت لها أن هذا السعر مرتفع ، ولكنها خفضت السعر الى ٢٢ الف دولار فقط . انا عرضت عليها شراءه بعشرين الفا فقط بالتقسيط . انهـا لم توافق بعد . ولكننى متأكد من أنها ستوافق فى النهاية . الا ترى أن السعر الذى أعرضه عليها معقول ؟ انه معقول .. طبعا ! انها لا تعرف أن عشرين الف دولار كندى تسـاوى عشرة آلاف جنيه مصرى بالسعر الرسمى !

على أى فاننى أتوقع أن صاحبة المنزل لو فكرت مرة أخرى فستوافق . ولهذا لا افكر فى هذه المشكلة كثيرا .

أما المشـكلة الحقيقية التى تشغلنى أكثر فهى زوجتى . أنا لا أقصد زوجتى شخصيا ، ولكنى أقصد اجراءات هجرتها . لقـد

قدمت لها أوراق هجرتها فى مصر منذ سنة ونصف سنة ولكنها حتى الآن لم تحصل على الموافقة · ان المسألة كلها اجراءات · تضييع وقت · احنا كده تعرف ؟ أنا الان عندى بنتين · بنت عمرها اربع سنوات ، وبنت اربعة اشهر . عندما ذهبت الى سفارتنا هنا لاسجل ورقة ميلاد بنتى الاخيرة ، اكتشفت أنه لابد أن أدفع عشرة دولارات ، ولابد أن أغلق المحل ساعتين على الاقل لانني أعمل فيه وحدي · و ·· ، ياريت الورقة تخلص فى يوم ، أو حتى فى أسبوع · لازم تضرب لهم تليفونات ، وتسأل كل يوم ·· ولازم تسأل بأدب ·· ولازم تنتظر ·· ولازم تنفذ اجراءات طويلة معقدة ·· كأننا فى الكعبة مش فى سفارة ! أنا عارف لوائح ايه دى ؟ موظفين ايه دول ؟! لامؤاخذة ! انت معاك الاستاذ عادل الخضرى من السفارة · لكن الاستاذ عادل ممتاز · انما تعمل أيه فى الباقين ؟ تعمل ايه فى اللوائح ؟ أصلهم معذورين برضه ·· لكن مش فى كل حاجة · بتضحك ؟! اهو احنا كده ! عاوز تمشى ؟ ليه ؟ ياأخى الواحد فرحان عشان شايف واحد من مصر . والنبى تقعد . لازم ناكل سوا . ماتخافش على مواعيدك . أنا حاوصلك بعربيتي · أقعد ياشيخ · يعنى حاتروح فين ؟ ميعادك فى السفارة؟ يعنى هى السفارة كعبة ؟! طيب ياسيدى ·· أمرك ! »

□□□

✻ الحكاية الثالثة :

●● اهلا وسهلا !··

قبل أن تتكلم ·· ماذا تفضل أن تشرب ؟ اطمئن · كل شىء موجود · لابد أن تشرب شيئا · لابد ايضا أن أسمع منك أولا · انني اريد أن تحكي لى عن مصر · لقد أوحشتني مصر جدا · ان حياتي كلها ، ذكرياتي كلها ، صداقاتي كلها مازالت فى مصر ·· لهذا أرجوك أن تحكى لى أكثر ما يمكن الآن عن الحياة فى مصر · عن شمس مصر ، ناس مصر ، يا أخى تعرف ؟ الواحد هنا زاد حبه لمصر · حب أكبر جدا مما يمكن أن تتخيل · اننى أدخر اجازاتى هنا كى استطيع ان اسافر الى مصر تسعة اسابيع كل ثلاثسنوات · ولكن مصر توحشنى ألف مرة فىالثلاث سنوات !

أنت تعرف اسمى طبعا ·· ولكن اسمى كاملا هو : حسين محمد صالح · هل من الضرورى أن أذكر لك تاريخ ميلادى ؟

اقول لك : عندماجئت الى كندا ــ منذ أربع سنوات ــ كان عمرى هو ٤٤ سنة · انها سن متأخرة كما تقول · ولكن هذا ما حدث على كل حال ·

لقد جئت الى هنا لمجرد البحث عن فرصة · لمجرد التغيير · هذا كل شيء · لم أحضر لاننى فشلت فى مصر · بالعكس · لقد كنت ــ بالمقاييس العادية ــ شخصا ناجحا فى عملى · فمنذ حصلت على ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد الاول فى سنة ١٩٤٥ وأنا متقدم فى عملى . لقد بدأت حياتى بالعمل فى النيابة العامة ــ وكيلا لنيابة الدرب الاحمر ــ الى أن خفضوا سن القضاة فى سنة ١٩٥٠ فتحولت الى السلك القضائى ، كنت قاضيا فى محكمة مصر فى البداية ، ثم رئيسا لمحكمة بعد ذلك .

وفى سنة ١٩٥٥ عرضت على شركة « شل » للبترول أن اعمل بها وكيلا لادارة القضايا ، فاستقلت من القضاء ، والتحقت بهذا العمل ·· الى أن أصبحت فى سنة ١٩٦٦ مديرا عاما لادارة القضايا فى الشركة · المرتب ٢٤٥ جنيها فى الشهر · مرتب ضخم ؟ طبعا ·· ولهذا تقرر تجميده عندما طبقت اللوائح الجديدة فى الشركة

ثم ·· بدأت أفكر فى الهجرة ·· فى البداية فكرت فى الهجرة الى استراليا أو أمريكا الجنوبية ، أو الولايات المتحدة أو كندا ، طبعا استبعدت أستراليا لاننى سمعت أن تكاليف الحياة فيها مرتفعة ·· استبعدت أمريكا الجنوبية لانهم لا يتكلمون الانجليزية أو الفرنسية ·· استبعدت الولايات المتحدة لاننى شخصيا لا أحب الامريكيين ·· اذن أهاجر الى كندا ··

هكذا جئت الى كندا فى سنة ١٩٦٦ · جئت بعد أن تركت كل شيء فى مصر ·· منزلى ، ابنتى ، حياتى · جئت لا أعرف أحدا على الاطلاق فى كندا · ولكننى عندما توجهت الى مدينة تورنتو ، التقيت بأصدقاء مصريين قدامى سبق أن هاجروا الى كندا واستقروا فى تورنتو · طبعا أصروا على أنام عندهم ·· طبعا هذا حدث ·

من اليوم الثانى بدأت المهمة الصعبة ·· مهمة البحث عن عمل وبسرعة ظهرت امامى مشكلة ضخمة واجهتنى فى كل شركة احاول أن أعمل بها · مشكلة الخبرة الكندية · ففى كل مرة أتقدم لشركة ، يرفضون لانه لا توجد لدى « خبرة كندية » ، أى خبرة سابقة فى العمل بكندا · شهر ، شهرين ، شهرين ونصف ·· وأنا ما زلت عاطلا بلا عمل ·

والعمل ؟

حاولت أن أعمل محاميا • ولكنني اكتشفت عقبتين ٠٠ فأولا هم لا يعترفون هنا بشهاداتنا الجامعية ٠٠ ان النقابات سبب فى ذلك • وثانيا لابد لى ـ بناء على ذلك ـ من دراسة القانون من جديد هنا للحصول على الليسانس من جديد •

ولكى أكون صريحا معك ٠٠ فلابد أن أقول لك أنه قد مرت على أيام قاسية هنا ـ فى البداية • أيام تحس منها أنك وحدك أمام المشاكل • وحدك ضد الظروف • أنك تريد أن تضع قدما واحدة ـ مجرد قدم واحدة ـ فى مكان ما داخل عجلة المجتمع • ثم لا تستطيع ٠٠

كان القدر الذى يحكمنى فى تلك الفترة هو شعور بالهزيمة ، بخيبة الامل ، بالحسرة أحيانا ، حسنا ، أنا لا أحب أن أفشل ، من منا يحب لنفسه الفشل ؟ ولكن كراهيتى للفشل تحولت عندى الى تحد .. الى رغبة فى التغلب على الظروف ، على العقبات ، على المشاكل •

لهذا لم أيأس ، ظللت أقدم عشرات الطلبات الى الشركات والمؤسسات ٠٠ وفى كل مرة أتلقى عشرات الردود بالرفض • عشرات الردود ، ولكن السبب واحد : عدم وجود الخبرة الكندية • اننى سوف أريك الآن اثنين وسبعين خطابا من شركات مختلفة خطابات يعتذرون فيها عن تشغيلى لنفس هذا السبب • خطابات ما زلت أحتفظ بها للذكرى .

ثم ٠٠ لم أستطع فى النهاية سوى العمل مندوبا لشركة تأمين • هذه لا تعتبر وظيفة ، لانها عمل .. مقابل عمولة . كل بوليصة تأمين أنجح فى عملها لشخص ما ٠٠ أتقاضى عنها عمولة ٠٠ ومن متوسط العمولات لم يصل دخلى بعد سبعة شهور الى أكثر من ٦٠٠ دولار فى الشهر • انها مهنة شاقة • انك تمسك فى يدك بمجموعة من بوالص التأمين ثم تدور بها على الناس فى عملهم أو منازلهم تحاول اقناعهم بالتأمين على حياتهم بواسطتك و ٠٠ بينى وبينك .. فان معظم بوالص التأمين التى عملتها فى البداية كانت لمصريين • ربما اشتراها بعضهم بحكم المجاملة • ربما بحكم تفهم الظروف ، وربما لأى سبب آخر ٠٠ المهم اننى بعد عدة أشهر بدأت أحصل من هذه الوظيفة على دخل يكاد يكون ثابتا .. تلك الـ ٦٠٠ دولار التى ذكرتها منذ دقيقة • تعرف ؟ أول شىء اشتريته من كندا كان جهاز راديو قوى ٠٠ راديو لأسمع به اذاعة القاهرة ٠٠

ان صوت القـــاهرة بالنسبة لى كان سحرا • شىء لا أنام الا على صداه فى أذنى •

ولكن عقلى كانت تشغله مهمة أخرى فى نفس الوقت • انهـــا ما زالت نفس المهمـــة • البحث عن عمـــل • اننى ــ رغم الرفض المستمر ــ لم أتوقف عن تقديم طلبات العمل فى أى شركة • بل أكثر من هذا ــ اننى فكرت فى البحث عن وظيفة فى الحكومة •• لكى أتفادى مشكلة عدم توافر « الخبرة الكندية » التى تشترطهـــا الشركات •

ان التعيين فىجميع وظائف الحكومة هنا يتم بمسابقات • لا أحد يتم تعيينه فى وظيفة الا اذا ثبت أنه أصلح المتقدمين لها • بل ان الترقيات لدرجة أعلى تتم هى الاخرى بمســابقات ، وبغير مراعاة لأية أقدمية ، أو أية اعتبـارات أخرى غير مصلحة العمل • وفى مقابل ذلك ، فانه اذا رقىأحد موظفى الحكومة الفيدرالية الىوظيفة أعلى ، ورأى موظف آخر زميـلا له ان كان أحق بالترقيـــة • فانه يستطيع أن يعترض ويرفع دعوى تقرر فيهـا المحكمة أيهما كان فعـلا أحق بالترقية على أن اشتراط امتحان المسابقة للتعيين فى الحكومة لم يكن هو المشكلة بالنسبة لى . ان المشــكلة هى أنهم ــ عند التعيين فى وظائف الحكومة هنا ــ يفضلون طبعا الشخص الكندى الجنسية عن الشخص غير الكندى • هذا أمر طبيعى •

وبالنســبة لى ، فاننى لم أكن قد حصلت بعـد على الجنســية الكندية • لهذا قدرت أننى لا أستطيع الحصول علىوظيفة حكومية الا فى حالة واحدة : أن أثبت لهم أننى أكفأ من أى شخص آخر •

وهذا ، قدرته فعلا • لقد قرأت اعلانا فى الصحف عنحاجتهم الى شغل وظيفة فى الحكومة الفيدرالية • وظيفة خبير فى الكفـاية الانتاجية • وقررت أن اتقدم للامتحان فى المســابقة الخاصة بهذه الوظيفة • قررت ذلك رغم أنها لا تتمشى مع دراستى ، وانكانت تتمشى مع خبرتى ، والبرامج التى حصلت عليهـــا فى التنــظيم والادارة أثناء عملى فى شركة « شل » بالقاهرة . وفى نفس الوقت تقدم معى ٢٢ شخصا آخر لشغل نفس الوظيفـــة . كلهم كنديون طبعا .

و •• حصلت على الوظيفة !

حصلت عليهـا لاننى أصبحت الاول على المتسابقين لشغلهـا • ســاعتها فقط قرروا تعيينى •• ســاعتها فقط بدأت أحصل على

أول مرتب منظم ، تسعة آلاف دولار في السنة ـ وهو مرتب الوظيفة الجديدة ٠٠ من يومها وأنا أعمل في هذه الوظيفة ، وأحصل على ترقياتي بعد دخول المسابقات التي تجرى لهذا الغرض ٠ والنتيجة هي التي تراها أنت الآخر ٠٠ انني أصبحت مستشارا للحكومة الفيدرالية بأوتاوا في الكفاية الانتاجية ، بمرتب ١٦ الف دولار ٠٠ وقد حدث أكثر من مرة أخيرا أن انتدبتني الحكومة لرئاسة لجان خاصة لدراسة البرامج الجديدة لتنظيم القوى العاملة ، أو قياس خطط رفع الكفاية الانتاجية ٠

ان الصورة التي أمامك هذه هي صورة نشرتها جريدة « ذي نيو أوبتيمست » في صفحتها الاولى منذ سنة ٠٠ بينما كنت أختبر كفاءة بعض العاملين في الحكومة ٠٠٠ صورة ضخمة منشورة على ثلاثة أعمدة كما ترى بعرض الصفحة الاولى من الجريدة ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ لا تأخذها أرجوك ٠ هذه هي النسخة الوحيدة المتبقية عندي من ذلك العدد ٠ انني طبعا أريد الاحتفاظ بها ، لانني أعتز بهذه الصورة ٠ ان قيمة هذه الصورة عندي ضخمة طبعا ٠ انها بالنسبة لى رمز يمثل الفارق بين النقطة التي بدأت منها حياتي في كندا ٠٠ ثم النقطة التي وصلت اليها ٠ أنا لا أقول ان هذا أحسن ما يمكن أن أعمله ٠ فما زال طموحي ضخما بالنسبة لما يمكن ان أحققه في المستقبل ، وبالنسبة للفرص التي يتيحها المجتمع الكندي لأي شخص يثبت كفاءته ٠ انني أقول فقط أن عملي الحالي هو على الاقل خطوة في الطريق الذي بدأته ٠ طريق لم أكن أتصور في البداية أنني يمكن أن أسير فيه ، أو الاستمرار في السير فيه ، أو التغلب على العقبات التي صادفتني خلاله ٠

انني منذ أول يوم والى الآن ـ أصر على أن أعطى كل وقتي ٠٠ أكثر من وقتي .. لعملي انني هنا لا أحصل على اجازات . في الحقيقة أن أجازتي السنوية هي ثلاثة أسابيع ٠ ولكنني ادخر هذه الاجازات حتى يتجمع لدى تسعة أسابيع كل ثلاث سنوات ٠ قلت لك هذا من قبل تسعة أسابيع أسافر فيها الى مصر . آه . يا أخي انت منذ قدومك الى شقتي هذه مع الصديق عادل الخضري .. وانت تقودني في حديث لا أريده عن نفسي ٠٠ الآن جاء دورك انت لابد أن تحدثني أنت الآن عن مصر ٠ أرجوك ٠٠ انني أريد أن تحكي لي عن هذا السحر الذي يعيش في داخلنا جميعا ، عن مصر . هل تتحدث معي بتفصيل ٠٠ باسهاب ٠٠ بافاضة ؟ اتفقنا ٠ تشرب ايه ٠٠ خلي الكلام يحلى !

الفصل الثاني :

عرب فى كندا :

المليونير .. والموظف .. والنصف نصف !



مع ان المصريين يشكلون الان جالية ضخمة نسبيا فى كندا ، الا اننا لو حسبنا عددهم بالنسبة لمجموع سكان كندا ، فسوف نكتشف هذه الحقيقة : انه من بين كل الف مواطن كندى .. هناك مواطن مصرى واحد يعيش فى كندا كمهاجر .. ان هذا معناه ان المصريين فى كندا يزيد عددهم قليلا على عشرين الفا · انهم بذلك يشكلون أول جالية مصرية ضخمة خارج حدود مصر . جالية ضخمة ، ولكنها مازالت أقلية داخل المجتمع الكندى نفسه . ولو وسعنا دائرة اهتمامنا بحيث ننظر الى كل المهاجرين العرب المستوطنين فى كندا .. فان النسبة فى هذه الحالة سوف ترتفع . هذه هى : من بين كل الف من سكان كندا .. هناك اربعة من

اصل عربي .. مازالت هذه النسبة اقلية ضمن المجتمع الكندي .. في الواقع انها اقلية ضئيلة جدا .

ولكن .. لو نظرنا للامور من زاوية أخرى .. فسوف نكتشف ان الجالية العربية في كندا كانت اقل من ذلك جدا ، اقل من نصف عددها الحالي ـ منذ عشر سنوات فقط ان السبب في ذلك هو ان لبنان وسوريا كانتا تمثلان المصدرين الرئيسيين للهجرة العربية الى كندا حتى وقت قريب • ومنذ سنوات قليلة فقط اصبحت مصر تشكل مصدرا ثالثا .. مصدرا رئيسيا للهجرة العربية الى كندا ..

وقد أدى اتجاه المصريين الى كندا الى تغيير كبير في طبيعة تكوين الجالية العربية هناك • انه اولا تغيير عددي، فاعتبارا من سنة ١٩٦٢ بدأ المصريون يصبحون ستة أشخاص من كل عشرة عرب يهاجرون الى كندا ، بالاضافة الى اثنين من المغرب ، واثنين من باقي الدول العربية •

ان وصول المصريين أدى الى رفع عدد الجالية العربية في كندا من ٦١ الفا الى ٨١ الفا . هذا تغيير عددي . ولكن هناك أيضا تغييرا نوعيا ترتب على اتجاه المصريين الى الهجرة الى كندا .

فلو نظرنا الى احصائيات الهجرة والسكان التي تصدرها حكومة كندا ، فسوف نكتشف الحقيقتين التاليتين :

أولا ـ ان النسبة الكبرى من المهاجرين المصريين هم مهنيون ومتخصصون .. لهذا فقد أصبحوا هم الفئة الاعلى تخصصا والاكثر احترافا بين المهاجرين العرب • ان ٣١ ٪ من المهاجرين المصريين الى كندا يتجهون أساسا الى الاعمال المهنية او النصف مهنية ، مقابل ٩ ٪ فقط من المهاجرين اللبنانيين • أما السوريون فانهم يحتلون مكانا وسطا بين الاثنين . ان هذا معناه ان المصري الذي يتجه الى كندا هو غالبا : مدير ، مهندس ، محام ، طبيب ، جراح ، كيمائي ، صيدلي ، مدرس ، رسام ، محاسب ، أو خبير فني •

ثانيا ـ ان المهاجرين المصريين هم الاقل بين المهاجرين العرب اتجاها الى احتراف الاعمال اليدوية : فبينما نجد من الاحصائيات الكندية أن حوالي نصف اللبنانيين والسوريين يتجهون الى هذه الاعمال ، نجد ان نسبة من يتجه اليها من المصريين هي اقل من الربع • أما باقي المصريين الذين لا يعملون كمهنيين أو يدويين ،

فانهم يتجهون الى الاعمال الكتابية مثـــل : صراف ، مخزنجى ، مختزل ، مترجم ، ميكانيكى ٠٠ الخ ٠

وهذا الاتجاه الذى تمثله الهجرة المصرية الى كنـدا ، يمثل فى الواقع تغييرا نوعيا كبيرا طرأ على تكوين الجالية العربية هناك ٠

ان الجالية العربية فى كندا يصل تقديرها الى ٨١ الفا من بينهم ٢٠ الف مصرى ، أما الباقون فهم أساسا لبنانيون وسوريون ٠

ان اللبنانيين والسوريين بدأوا يتجهون الى كندا قبـــل بداية القرن العشرين بقليل ٠ ان الجيلين الأولين من المهاجرين العرب الى كندا جاءوا من الشام ، تلك المنطقة التى تسمى الآن سوريا ، ولبنان ولقد ظلت السمة المشتركة لهذين الجيلين هى نفسها حتى الحرب العالمية الثانية ٠ انهم يتميزون بتعليمهم المحدود ، وخبرتهم الفنية الضئيلة ، وحرفتهم اليدوية ، وممـارستهم للتجـارة ، ورغبتهم فى الثراء ٠

اما الجيل الثالث ـ من المهاجرين اللبنانيين والسوريين فقد اتجه الى كندا بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو يتكون أساسا من أسر واقرباء الجيلين الأولين ، الذين كانوا قد استقروا فى كنـدا قبـل الحرب ٠

واعتبارا من الجيل الرابع فقط ، بدأ مستوى المهاجرين اللبنانيين والسوريين المتجهين الى كندا يضم الكفاءات التى أحرزت مقدما كل مقومات الهجرة ٠ ولكن هذا الاتجاه لم يتأكد نهائيا الا بعد أن بدأ المصريون يتجهون الى الهجرة الى كندا فى موجات متتالية غير منتظمة خلال ستينات هذا القرن ٠

ان هذا الاختلاف الزمنى والفرعى بين اتجاه اللبنانيين والسوريين والمصريين الى كنـدا ترتب عليه نتـائج فرعية كثـيرة ، هى التى تلمسها الآن فى قدرة الفئات الثلاث على تربية جذور عميقة داخل المجتمع الكندى ٠٠ فبينما المصريون ما زالوا حديثين كمهـاجرين فى كندا ٠ فان اللبنانيين والسوريين أصبحت لهم جـذور أكثر عمقا داخل التربة الكندية ٠ جذور تلمسها من مظاهر كثيرة ، منها هـذه الظاهرة مثـلا : أنه يوجد فى كنـدا ٢٥ مليونيرا من أصل لبنانى وسورى !

وفى الواقع كان أول نمـاذج ثلاثة من العرب الذين قابلتهم فى كندا يعبرون بوضوح عن قيمة هذه الجذور ، واستطيع أن ألخص هذه النماذج فى الصور الثلاث التالية :

Add to Basket

الصورة الاولى :

عندما نزل الأب مع أسرته الى شاطىء كندا منذ سبعين سنة بالضبط ، لم يكن هناك ما يبشر بأن هذه الارض سوف تكون في يوم ما أرض المستقبل • الارض عبارة عن صورة تمهيدية للجحيم • انها في منتهى البرودة عندما يحل الشتاء • وهي في منتهى القسوة عندما تصبح باردة ، وهي لا ترحم عندما تكون قاسية • انها باختصار أرض ترفض الانسان •

وظل الرجل يكافح •• الى أن مات •

مات وأكبر أولاده لا يزيد عمره على ١٧ سنة •• واضطر الشاب الى أن يدرس نصف الوقت •• ويعمل فى النصف الآخر •• واضطرت أمه الى العمل كمصممة أزياء •

ثم أصبح الشاب مهندسا •• وتخصص المهندس في الجيولوجيا وبدأ حياته داخل المناجم ، شهرا هنا وشهرا هناك .

• • •

ومرت السنوات ، فى الواقع مرت سبعون سنة منذ هاجر الأب مع أولاده الى كندا • سبعون سنة ، أصبح الشاب المهندس بعدها أبا لثلاثة أولاد ، بنتين وولد فى السنة النهائية بالمدرسة الثانوية • واصبح رئيسا لشركة ضخمة اسمها « مؤسسة الاسبستوس المتحدة » ، ومقرها الرئيسى مدينة مونتريال بكندا ، انها شركة تتولى عمليات استخراج الرصاص والذهب واليورانيوم والاسبستوس فى مناطق واسعة من العالم من بينها فرنسا .

بقيت نقطة واحدة عن هذا الرجل . أن ثروته الآن ٢٨ مليون دولار . . اكرر ثمانية وعشرون مليونا من الدولارات أى ما يقرب من ٢٣ مليون جنيه .

نقطة أخرى : ان الرجل اسمه فيليب معلوف . لبنانى . هاجرت اسرته الى كندا سنة ١٩٠٠ . مات ابوه سنة ١٩٢٠ يعيش الآن فى مدينة مونتريال بكندا . اعمار بنتيه وولده هى : ٢٢ ، ١٩ ، ١٧ سنة . الجميع مع والدهم — جنسيتهم الان كندية . . انهم لا يتكلمون اللغة العربية ولكنهم يفهمونها .

وعندما قابلت فيليب معلوف فى مقر شركته بالدور التاسع من شارع دورشستر بمدينة مونتريال قال لى : انني احاول ان أربط اولادي ببلدهم الاصلى — لبنان — بعد ان اصبحت الظروف تمكننى من ذلك الان . ان الولد يريد أن يتخصص — بعد تخرجه

ـ فى اعمال البنوك ـ انا اريد ان يتولى اعمالى من بعدى . ان عمرى الان ٥٧ سنة . اننى لم اتعب بعد لاننى حريص على عملى. لقد جئت حالا من رحلة الى جنوب افريقيا وكينيا وتنزانيا .. اننى تعلمت الترحال من ابى .. ان ابى هو الذى جاء بنا الى هنا .. ابى جاء الى استراليا اولا فى سنة ١٨٨٥ ، ثم جاء بنا الى كندا فى سنة ١٩٠٠ ، اننى لم ازر لبنان ، ولا مرة حتى الآن .. قريبا سأفعل ذلك ..

الصورة الثانية :

هذا ثانى نموذج قابلته فى كندا ، نموذج مصرى هذه المرة . هذا النموذج هو هنرى حشيمة ، مصرى عمره خمسون سنة ظل يعمل فى مصر الى ان وصل الى وظيفة مدير لبنك القاهرة فى مدينة الاسكندرية . ولكنه ترك هذه الوظيفة ليهاجر الى كندا سنة ١٩٦٢ .

انه الآن يشغل وظيفة عضو مجلس الادارة المنتدب بشركة (انترافينا) ، وهى شركة كندية لتمويل عمليات التجارة الخارجية مرتبه ٢٥ الف دولار سنويا (اكثر من ١١ الف جنيه مصرى) .. متزوج ولديه ولد وابنتان (احداهما ستتعرف عليها بعد) .. اخته ايضا تعمل فى مدينة مونتريال ، وهى متزوجة من مهندس الكترونات مصرى يعمل فى مونتريال ودخله السنوى ٢٢ الف دولار ..

وبعد ان نجح هنرى فى عمله ذهب اليه شقيق زوجته الحاصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة وبعد ان حصل على الماجستير فى الحقوق من كندا اكتشف أن العمل بالمحاماة صعب ، فحصل على بكالوريوس فى التربية ثم عمل استاذا فى احد المعاهد التعليمية ، ثم عضوا بمجلس الادارة . وبعدها حصل على منحة دراسية لدراسة الدكتوراه فى فرنسا .

الصورة الثالثة :

مصرى ايضا .. هذا النموذج الثالث .. اسمه مصطفى محمد الهلالى .

ان الدكتور مصطفى مهاجر مصرى بالصدفة .. لقد بدأ كمجرد مغترب يعيش فى كندا ، انه ذهب الى كندا فى أول يوليو سنة ١٩٦٥ ليحصل على الدكتوراه فى جراحة المسالك البولية

بعد ان حصل على الماجستير فى مصر . ومع ان مصطفى له قصة اخرى ربما أكتبها فيما بعد ، الا أنه يكفينا الآن ان نعرف انه يعمل حاليا استاذا مساعدا لجراحة المسالك البولية فى جامعة (شيربروج)بكندا ، بالاضافة الى أنه طبيب أخصائى فى المستشفى التابع للجامعة .. انهم اختاروه فى هذه الجامعة بالذات ، وهذا المستشفى الحديث بالذات . بعد أن اعتبروه هناك واحدا من اكفأ وابرز جراحى المسالك البولية .

و ... هذه أول ثلاث صور مختلفة من أعضاء الجاليات العربية الذين قابلتهم فى كندا ، بعد ان نجحوا فى الحياة داخل المجتمع الكندى . انهم مجرد ثلاثة نماذج من الـ ٨١ الف عربى الذين هاجروا الى كندا ويعيشون فيها الآن . بعضهم اكتسب الجنسية الكندية ، وبعضهم لم يكتسبها بعد .

حتى تكون الصورة أمينة تماما فلابد أن أضع تحفظا كبيرا هنا . هذا هو : ان النماذج الثلاثة السابقة ـ النموذج اللبنانى والنموذجان المصريان ـ لا يمثلون القاعدة بالنسبة للمهاجرين العرب فى كندا . انهم ليسوا كذلك ـ لا هم ولا النماذج الثلاثة التى تحدث عنها الفصل الاول من هذا الكتاب .. بمعنى أنه ليس من اللازم بالضرورة أن كل مهاجر الى كندا سوف يحقق نفس هذه النتائج فى نفس هذه المدة القصيرة .. بل انه ربما توجد فى مقابل ذلك حالات فشل سوف تناقش اسبابها ، ونستعرضها فيما بعد ولكن النتيجة الرئيسية بعد هذا كله هى : ان النجاح .. الخارق احيانا ـ هو امر ممكن دائما بالنسبة للجالية العربية فى كندا ..

والواقع ان النماذج الثلاثة تعطينا صورة تشمل كل العناصر المميزة للجالية العربية فى كندا . فاللبنانيون مثلا هم ـ كما ذكرت من قبل ـ أول المهاجرين العرب الى كندا . ان هجرتهم الى هناك بدأت فى وقت مبكر من نمو المجتمع الكندى .. وبالتالى فانهم اكثر اندماجا فيه واكثر قدرة على النجاح .. وهذا معناه ان نتوقع وجود مليونيرات بينهم مثل المليونير فيليب معلوف الذى اشرت اليه منذ قليل .

وفى مقابل ذلك فان السوريين هم ثانية مجموعة عربية بدأت تهاجر الى كندا بعد اللبنانيين اما المصريون فهم ـ كما عرفنا فى الصفحات السابقة ـ احدث من هاجروا الى كندا .. ومع ان عددهم فى كندا ينمو الان بسرعة ، الا أن هذا العدد له خصائصه المشتركة .. بل وحتى يكاد يكون له نفس الاعمال المتشابهة .

فنحن نجد ان المصريين المهاجرين الى كندا هم عادة موظفون .. اساتذة فى الجامعات والمدارس ، مهندسون ، أطباء ، مديرو بنوك . ولكن .. ما زالت هذه كلها اعمال موظفين ، أقول هذا من خلال الشهور التى قضيتها فى لقاءات بالمئات منهم فى كندا .

وهذا فى مقابل ان اللبنانيين نادرا ما يهاجرون للحصول على وظيفة . لقد اكتشفت فى كندا انه من النادر جدا ان اجد لبنانيا يعمل موظفا فى مصلحة حكومية مثلا .. قد أجد اللبنانى موظفا فى شركة ــ رئيسا لمجلس ادارة مثلا ولكنه فى نفس الوقت .. صاحبها ! ..

وعندما تذهب الى مدينة أوتاوا ــ عاصمة كندا ــ او الى مدينة مونتريال .. اكبر مدن كندا .. فانك ستجد على الفور حوالى ثلثى المطاعم وربع المحلات التجارية يملكها او يديرها لبنانيون وسوريون . ولا يمكن ان تجد مطعما مفتوحا فى مدينة أوتاوا مثلا يومى السبت والأحد الا اذا كان صاحبه لبنانيا أو سوريا .

وعندما سألت واحدا من هؤلاء عن سر هذه الظاهرة قال لى : « المسألة بسيطة . المسألة تبدأ دائما بواحد فقط من الاسرة يأتى الى هنا مهاجرا .. وحيث انك تستطيع الحصول على قروض ضخمة من البنوك هنا ، فان اسهل عمل واسرعه ربحا هو ان تفتح مطعما . ان هذا العمل له مزايا كثيرة .. فاولا المنافسة فيه ممكنة ، ليس فقط من حيث مستوى الاطعمة . ولكن من حيث ساعات العمل . فكل المحلات هنا تغلق ابوابها فى الخامسة مساء بينما نحن نظل نعمل الى ساعة متأخرة من الليل . وكل المحلات تغلق يومى السبت والاحد حيث العطلة الاسبوعية هى شىء مقدس ، بينما نحن كشرقيين معتادون على العمل ساعات أطول وعددا اكبر .. ثم .. عندما ينجح احدنا هنا فانه يرسل لاحضار عائلته او اقاربه لكى يعملوا معه .. وهكذا تبدأ العجلة فى الدوران ..

ان المتكلم هنا اسمه يوسف راشد .. لبنانى .. صاحب مطعم بمدينة اوتاوا عاصمة كندا هاجر الى هناك منذ ١٥ سنة .. بدأ حياته بالعمل باجر اسبوعى لايزيد على ٣٥ دولارا ولكنه الان يملك مطعما ربحه الصافى الفا دولار شهريا » بالاضافة الى منزل قيمته الحالية مائة وخمسون الف دولار . منزل كان قد اشتراه منذ عدة سنوات بـ ٦٥ الف دولار .

× × ×

ان اللبنانى اذن من بين أعضاء الجالية العربية فى كندا ــ تجده دائما يمارس اعمال التجارة عندما يهاجر الى هناك .. وهو عادة

يبدأ حياته بطريقة متواضعة للغاية .. وعندما يغامر فانه كثيرا ما يفشل ويخسر كل ما يملك .. ولكن اللبنانيين لديهم مثل شعبي يقول « تقتل اللبناني ·· يطلع تاني » ــ وهذا صحيح الى حد كبير ــ فاللبناني .. مثل اى تاجر لا يعترف بالهزيمة مطلقا .. ويحاول دائما ان يبدأ من جديد . السوريون أيضا فى كندا نجدهم غالبا يمارسون اعمال التجارة ولكن السوريين يقعون فى منتصف المسافة بين اللبناني من ناحية والمصرى من ناحية اخرى

ومن الطريف هنا انني كنت كلما دققت النظر فى حياة المهاجرين العرب كلما ذهبت الى كندا، كنت اكتشف أن الجميع هنا فى كندا ــ يحملون صفات شعوبهم . يحملونها كل هذه المسافة .. وهى تطاردهم طوال هذه المسافة ..

فالمصرى يبحث عن العلم ·· والسورى يبحث عن الشهرة ·· واللبناني يبحث عن المال ··

المصرى يريد الاستقرار ·· والسورى يريد التغيير ·· واللبناني يريد الثروة ··

المصرى يحلم بالامن ·· والسورى يحلم بالنفوذ ·· واللبناني يحلم بمليون دولار ··

المصرى يتمنى راحة البال ·· والسورى يتمنى راحة القلب ·· واللبناني يتمنى راحة الجيب ··

المصرى يعمل بعقله ·· والسورى يعمل بصوته ·· واللبناني يعمل بعقله ويده واسنانه ··

المصرى مثقف ·· والسورى مجادل ·· واللبناني متعب ··

المصرى يعبد الله ·· والسورى يعبد الله واسرته ·· واللبناني يعبد الله ومحفظته .

المصرى مطيع للسلطة ·· والسورى متمرد على السلطة ·· واللبناني ثائر ضدها .

المصرى قنوع ·· والسورى متطلع ·· واللبناني مجازف .

المصرى مشدود الى ماضيه ·· والسورى مشدود الى سمعته ·· واللبناني مشدود الى رصيده فى البنك ··

المصرى فى غناه يشترى منزلا ·· السورى يشترى ارضا ·· اللبناني يشترى اسهما ··

المصرى ينفق الى آخر مليم فى جيبه ·· السورى ينفق الى آخر مليم فى جيب اسرته ·· اللبناني ينفق الى آخر مليم فى جيوب الاخرين .

المصري قد يحمل في جيبه صورة لوالدته .. السورى صورة لابنه .. اللبناني لايحمل صورة على الاطلاق ..

المصري يرضيه الثبات .. السورى يرضيه التطور .. اللبناني ترضيه الفوضى ..

المصري موظف غالبا . والسورى تاجر احيانا .. واللبناني تاجر دائما ..

المصري محافظ عادة .. والسورى مغامر نادراً .. واللبناني مغامر ابدا ..

فتكون نتيجة هذا كله هى :

اللبناني يفشل أحيانا · وينجح غالبا · والسورى .. ينجح احيانا .. ويفشل نادرا .. والمصرى يعيش .. يعيش فقط !

و ... هذه هى أول نتيجة خرجت بها بعد التأمل فى حياة الـ ٨١ ألف مصرى وسورى ولبنانى .. الذين يعيشون فى كندا .

وانت تلمس هذه النتيجة فى طبيعة الاعمال التى يتجه اليها اعضاء الجالية العربية فى كندا : فاللبنانيون يمارسون الاعمال التجارية ، ابتداء من البنوك والبورصة والمضاربة .. الى ادارة المطاعم والفنادق . والمصريون هم غالبا اساتذة فى الجامعات والمعاهد والمدارس ، وموظفون فى الشركات وبعض مصالح الحكومة .. اما السوريون فهم بين بين .

والواقع أن سمعة المصريين فى كندا هى امر يفخر به كل مصرى . فبشهادة رئيس وزراء مقاطعة كويبك نفسه ، فان الكنديين يرون ان المدرسين المصريين هناك هم اكفأ المدرسين والاطباء المصريين هم اكفأ الاطباء وابرزهم . وقد رأيت فى مدرسة واحدة بمدينة مونتريال ١٢ مدرسا مصريا .. من مجموع المدرسين البالغ عددهم ٢٧ مدرسا !

بل انه حدث منذ خمس سنوات أن عمل طبيب مصرى فى احد المستشفيات القريب من مدينة مونتريال . وبعد خمس سنوات وصل عدد الاطباء المصريين فى المستشفى الى ١٧ طبيبا. لقد أصبح المستشفى « مستعمرة » مصرية خارج الحدود ! ان السبب فى هذا بسيط : لقد أعجب مدير المستشفى بكفاءة وامانة الطبيب المصرى الاول .. فطلب منه أن يرشح له طبيبا مصريا ثانيا . وثالثا ورابعا .. مكان كل وظيفة تخلو فى المستشفى .. مما أدى فى النهاية الى هذه النتيجة .

× × ×

والواقع ان هذه الظاهرة ترجع الى سببين :

فاولا : المصرى بطبعه موظف ممتاز . هذا عيب كبير فى المدى الطويل ، ولكن هذا موضوع آخر . المهم .. ان المصرى منظم فى عمله ، متقن له .

وبالاضافة الى هذا فان الثقافة المصرية أكثر شمولا من ثقافات اخرى كثيرة . فالمقارنة هنا تمثل المقارنة بين الثقافة الاوربية والثقافة الامريكية . الاولى أكثر شمولا والثانية أكثر تخصصا . الاولى تعطيك منقفين والثانية تعطيك فنيين . الاولى تمتاز فى العلوم الانسانية والثانية تمتاز في العلوم التطبيقية والعملية .

وثانيا : يرجع السبب ايضا فى ظهور كفاءة المصريين الى طبيعة المجتمع الكندى نفسه . انه مجتمع يحترم الكفاءة ويتيح لها مجالا واسعا للعمل والتقدم . ونظرا لانه عبارة عن مجتمع من المهاجرين فان المعيار الوحيد المعترف به لتمييز الافراد هو كفاءتهم .

وانت تلمس هذا فى اى مكان تتجه اليه فى كندا ، مع انك لن تجد المصريين والعرب عموما — فى اى مكان فى كندا .

ان العرب يتركزون فى مقاطعات معينة داخل كندا ، فى مدن معينة داخل هذه المقاطعات .

انا نعلم ان كندا مقسمة سياسية الى عشر مقاطعات هى : نيوفاوندلاند — جزيرة برنس ادوارد — نوفاسكوتيا — نيوبرونسويك — كويبك — اونتاريو — مانيتوبا — ساسكاتشيوان — البرتا — كولومبيا البريطانية ، ثم منطقتان اداريتان بعد ذلك تديرهما الحكومة الفيدرالية ، ومن بينها المناطق الشمالية .

ومن بين المقاطعات العشر السابقة فاننا نجد بصفة عامة ان معظم التركيز العربى يوجد الآن فى مقاطعة كويبك ، وبالذات فى مدينة مونتريال . اما التجمع العربى الثانى فيوجد فى مقاطعة أونتاريو . والتجمعان العربيان الثالث والرابع موجودان فيمقاطعة البرتا ومقاطعة نوفاسكوتيا . ان ثمانية من كل عشرة مواطنين عرب فى كندا يعيشون فى واحدة من هذه المقاطعات الاربع . وبالنسبة للمهاجرين المبتدئين فان ٩٠ ٪ منهم يختارون عادة مقاطعة كويبك أو أونتاريو بالذات مقرا لاقامتهم .

ومن بين العرب فى كندا ، نجد أن المصريين بالذات يتجهون غالبا الى الحياة فى المدن ، وبالذات مونتريال .. تورنتو .. أوتاوا .. ويندسور ، لندن ، أونتاريو ، أوفانكوفر .

ان هذا التركز ساعد الجاليات العربية فى كندا على تنظيم

نشاط اجتماعي مستمر ومنتظم بين اعضائها . ان هذا لم يحدث بعد بصورة فعالة بالنسبة للمصريين ، ولكنه حدث بالنسبة للبنانيين والسوريين .

ونحن نستطيع ان نتابع هذا النشاط الذى تقوم به الجالية السورية اللبنانية بكندا فى عدة مجالات بالتحديد ..

فاولا : هناك النشاط الاجتماعى الواسع ، الذى تلمس مظاهره فى الحفلات التى يقيمها اللبنانيون والسوريون فى مناسبة الاعياد القومية لبلادهم أو فى المناسبات العامة .

وثانيا : هناك الجريدة التى يصدرونها فى كندا باسم (الشرق الاوسط فى كندا) جريدة تصدر باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ويمتلكها لبنانى اسمه جوزيف لحود . صحيح أنها جريدة بدائية جدا ولغتها ركيكة جدا وتدار بطريقة تجارية جدا .. ولكنها جريدة على اى حال !

وثالثا : هناك اللقاءات التى تتم فى عطلة الاسبوع وحفلات عطلة الاسبوع والتى يكون مكانها المفضل هو الكنائس العربية والمساجد الاسلامية . ونظرا لان المساجد ما زالت نادرة جدا هناك فانى سوف أتحدث الان عن نشاط الكنيسة أولا .

× × ×

ان أول مايلفت النظر فى نشاط الكنيسة العربية فى كندا هما شخصيتان بالذات .. أولهما الاب جورج كورياتى ، ممثل الكنيسة الكاثوليكية اللبنانية فى كندا . والثانى هو الأب روفائيل ممثل الكنيسة المصرية هناك .

ان القس كورياتى يعرف عددا كبيرا من العرب فى كندا ، وبالذات معظم المقيمين فى مدينة مونتريال . انه يقيم فى كنيسته بمونتريال كنيسة ضخمة مسجل فيها ..٢٥٠ اسرة اى ..١٢٥٠ شخص تقريبا . والواقع ان وجود الاب كورياتى هناك ادى الى حل مشاكل كثيرة بالنسبة للمصريين بالذات الذين هاجروا الى كندا ــ مسلمين أو مسيحيين .

فاولا ــ بالنسبة للمشاكل التى تواجه المصرى المهاجر خلال ايامه الاولى من حيث الاقامة او الطعام يوفرون له مكانا مريحا للاقامة ووجبات رخيصة تسدد قيمتها عندما يبدأ فى العمل .

وثانيا ــ بالنسبة لترجمة الوثائق الرسمية ــ الشهادات الجامعية وشهادات الزواج والميلاد مثلا ــ لابد من ترجمتها من

اللغة العربية الى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية او العكس . عملية تتكلف ٢٥ دولارا للشهادة الواحدة . ولكن الاب كورياني يقوم بها مجانا والحكومة الكندية تعترف رسميا بترجمته . وقد تبدو هذه المسألة تافهة ، ولكن لا يدرك مدى قيمتها الا من هاجر فعلا واحتاج اليها عدة مرات .

ولقد قال لى الاب كورياني عندما قابلته فى كنيسته بمونتريال « اننا استضفنا هنا مرة رئيس وزراء مقاطعة كويبك . ولقد عبر الرجل فى خطابه يومها عن تقديره للثقافة الواسعة والكفاءة الممتازة التى يتمتع بها المهاجرون المصريون . وقال فى خطابه أيضا ان الرجل العادى فى كندا احس ــ من خلال المهاجرين المصريين ــ بان الشعب المصرى فعلا شعب صاحب حضارة عظيمة ويتمتع بثقافة عالية . وانه يتمنى لو تضاعف عدد المهاجرين المصريين » .

ومن المؤكد ان السبب الرئيسى فى ذلك يرجع اولا الى تركز المصريين فى وظائف معينة وهامة داخل المجتمع الكندى ، منها مثلا التدريس ، ففى وزارة التعليم هناك الآن خمسمائة مدرس عربى ــ معظمهم مصريون ــ يقومون بتدريس اللغة الفرنسية فى مقاطعة كويبك وحدها . هذا الرقم على مسئولية الاب كورياني .

ولكن اذا كانت جذور المصريين فى كندا قد امتدت فقط الى المدارس واجهزة التعليم ، فان اللبنانيين والسوريين ــ بسبب هجرتهم المبكرة الى كندا ــ قد امتدت جذورهم الى أعمق من ذلك ان أحد المهاجرين العرب مثلا ــ الذين هم من اصل سورى قد اصبح عضوا فى البرلمان الفيدرالى ، واسمه بيير دبانى .

وهناك عضو اخر بمجلس الشيوخ الفيدرالى من اصل لبنانى واسمه ميخائيل باشا . وقد اخبرنى الاب كورياني ان الحكومة الكندية اختارت قاضيا من الجالية العربية للفصل فى النزاع الذى يكون احد اعضاء الجالية طرفا فيه ــ على خلاف النظام المعمول به هناك ، وذلك تعبيرا عن تقديرهم للجالية العربية فى كندا .

× × ×

والشخصية الثانية المتصلة بالجالية المصرية بالذات عل نطاق واسع هو الاب روفائيل الذى اوفدته بطرركية الاقباط فى مصر الى كندا سنة ١٩٦٧ لرعاية احوال المسيحيين الموجودين فى شمال امريكا . ان القس روفائيل حاصل على الدكتوراه فى الاجتماع من فرنسا ، ويقوم حاليا بتمثيل الكنيسة المصرية فى كندا والولايات المتحدة .

وعندما زرت القس روفائيل فى المرة الاولى بعد وصوله الى كندا بسنةواحدة ، كان مايزال مقيما فى شقةضيقة ، وبامكانيات محدودة للغاية . ثم زرته مرة أخرى بعد ذلك بسنتين .. فوجدته قد انتقل الى منزل جديد . منزل من دورين وسط مدينة مونتريال ، مجهز بالامكانيات اللازمة له لمباشرة عمله . وبعد ان كان يبحث عن المصريين المسيحيين فى المرة الاولى ، اصبحوا هم يبحثون عنه فى المرة الثانية ، واصبح لديه جدول بالزيارات اليومية التى يقوم بها ، ومواعيد سفره المنتظمة الى المدن التى يتجمع فيها المصريون كل يومى سبت وأحد .

وبالطبع مازالت هناك فجوة ضخمة بين النشاط الذى تستطيعه الجالية المصرية ، والنشاط الذى تستطيعه الجالية السورية واللبنانية . ان ضعف الامكانيات المادية ، وقلة العدد نسبيا ، وقصر المدة فى كندا .. هى أسباب رئيسية فى ذلك . ان الجالية اللبنانية السورية نفسها لم تبدأ نشاطا اجتماعيا موحدا الا بعد أن قضت فى كندا اكثر من ثلاثين سنة .

لقد شكل اللبنانيون والسوريون جمعية لهم فى سنة ١٩١٩ . لممارسة النشاط الاجتماعى والثقافى . جمعية احتفلت فى سنة ١٩٦٩ بيوبيلها الفضى . وفى هذا الاحتفال بمرور خمسين سنة اقامت الجمعية عدة حفلات للطعام والرقص وجمع التبرعات ، واصدرت كتابا انيقا ضخما اراه بين يدى الآن . كتابا يبيعونه للاعضاء بأربعة دولارات . ويضم دليلا بعناوين وتليفونات أربعة الاف سورى ولبنانى من أعضاء الجمعية المتمركزين فى مونتريال ، أوتاوا ، وتورنتو .

والكتاب يبدأ بصورة خطاب من جون درابو عمدة مونتريال .. موجه الى رئيس الجمعية اللبنانية السورية الكندية . فى الخطاب يقول العمدة **« انني سعيد بالمشاركة مع الاصدقاء العديدين بالجمعية اللبنانية السورية الكندية فى تقديم التهانى القلبية منى ومن زملائى المواطنين فى مناسبة العيد الخمسين لتاسيس هذه الجمعية . ان زملائى المواطنين ذوى الاصل اللبنانى والسورى قد ساهموا دائما فى تقدم ونمو مدينتنا . ان احتفالاتهم بهذا العيد سوف تشهد بغير شك تقييما لانجازاتهم واملا فى التحرك نحو اهداف جديدة . ان الجمعية اللبنانية السورية الكندية فى كويبك قد لعبت ــ من خلال نشاطاتها المتنوعة ــ دورا ديناميكيا فى كثير**

من الحركات الاجتماعية والثقافية . اننى اتمنى لها نجاحا دائما ومستمرا » .

ان نشاط الجمعية السورية اللبنانية فى كندا لا يتم فقط من خلال ناديها فى مونتريال ، وانما ايضا من خلال الجمعية المتفرعة عنها للسيدات اللبنانيات والسوريات فى كندا . جمعية خيرية تشكلت هى الاخرى فى سنة ١٩٣٠ .

وعندما قابلت رئيسة هذه الجمعية فى مونتريال — واسمها مسز ايلى ابو سمرة قالت لى : « ان الحديث حول تشكيل هذه الجمعية بدأ فى سنة ١٩٢٩ · حديثا بدأ على أساس حاجة الجالية اللبنانية السورية الى جمعية خيرية تقوم بتقديم المساعدات للاسر الفقيرة الموجودة . او ارشاد ومساعدة المهاجرين الجدد الذين يصلون من الوطن . وقد تقرر تشكيل هذه الجمعية فى اجتماع خاص حضرته ثلاثون سيدة ، برئاسة المرحومة السيدة نجلاء . وفى ذلك الاجتماع اعلنت السيدات ان هدفهن هو مساعدة المحتاجين من اسر المهاجرين السوريين واللبنانيين ، وانتخبن مسز ونيس عبد النور رئيسة لهن ، ومسز سليم الشامى نائبة للرئيس وحددن رسم الاشتراك فى الجمعية بثلاثة دولارات سنويا ، مع استخدام نادى الجمعية اللبنانية السورية فى مونتريال مقرا لاجتماعاتهن نصف الشهرية »

واضافت مسز ايلى ابو سمرة : « اننى الان انتخبت رئيسة لجمعية السيدات هذه . لقد ارتفع رسم الاشتراك السنوى الى خمسة دولارات ، واصبح عدد عضوات الجمعية فى مونتريال فقط يقترب من المائتى سيدة ، النسبة الاكبر منهن نشيطات ونشاط الجمعية يتم تمويله من طريق الحفلات التى تقيمها للطعام والرقص وجمع التبرعات » .

وقبل ان انسى ، اريد ان اسجل ان مسز ايلى ابو سمرة كانت تحدثنى معظم الوقت باللغة الانجليزية . انها حاولت فى البداية التحدث باللغة العربية ، ولكن بعد كلمة او كلمتين استنجدت باللغة الانجليزية . انها تمثل الجيل الثانى من المهاجرين اللبنانيين فى كندا . انه جيل ذاب اكثر فى المجتمع الكندى ، ولا يحتفظ بصورة واضحة لوطنه الاصلى الا من خلال والديه . صورة تتركز معانيها دائما فى الشعور بالحنين والشوق نحو الوطن الاصلى .

ومع انها سيدة خفيفة الدم جدا ، ومع انها الان مواطنة تحمل الجنسية الكندية ـ وتملك مع زوجها شركة ضخمة فى مونتريال ـ الا ان أول شيء طلبته مني هو : قل لى آخر نكتة ! طلب تقليدى تسمعه من اى عربى عندما تقابله ، فالنكتة هى فن السخرية .. والحياة فى كندا لا تعطى وقتا حتى للسخرية !

ان الحياة فى كندا تعطى فقط وقتا للعمل ثم الراحة من العمل . وحتى الراحة من العمل هى فى الوقت نفسه استعداد لعمل اليوم التالى . انه مجتمع للمتحركين فقط .. العاملين فقط . النشطين فقط . انه مجتمع من المهاجرين ، والمهاجر بطبعه شخص نشيط كفء ، متحرك ، ويحلم بثروة أكبر او مناخ افضل . ان ادراك هذه الحقيقة كان سببا فى اتجاه اللبنانيين والسوريين . ثم المصريين مؤخرا . الى كندا .

وكلما تعمقت اكثر فى حياة أعضاء الجاليات العربية فى كندا .. فان هذه الاعذار سوف تختفى من مسامعك : ممتاز ، ولكن متعب! متفوق .. لكن صغير . متطلع .. لكن مجازف . كفء .. لكنه مغامر . ان النماذج السابقة من الاشخاص يرفضها مجتمعنا كثيرا انه **يفضل عليها نماذج أخرى بلاطعم ولا لون ·· ولاخطأ ·· يفضل من لا يجرب ولا يغامر ولا يجازف ولا يثير مشاكل .**

ولكن هذه النماذج نفسها هى التى تنجح فى كندا . ان المجتمع هناك يطلب منك أن تعمل اولا . العمل شاق . اذا عملت .. فستكافأ اذا تعلمت .. فستكسب .. اذا تفوقت .. فستتقدم اذا فكرت فستنجح .

اما اذا لم تفعل فالوظيفة مقبرتك والجحيم مصيرك . ساعتها لن ينتظرك أحد · لن يرحمك أحد ، ساعتها لن تستطيع التقدم ، ولا حتى التراجع الى بلدك .. لكى يرحمك فيها أحد ..

و .. نحن الان قد بدأنا نتحدث عن المجتمع الكندى نفسه انه حديث طويل يحتاج الى فصل اخر لمناقشته .

الفصل الثالث :

نظرة على المجتمع الكندي

يحدث في كندا فقط !



باختصار شديد، هذه هي كندا : الجد هندي .. الاب انجليزي .. الام فرنسية .. الابن الماني .. والزوج امريكي . انه زواج بعقد عرفي . زواج غير موجود رسميا ـ حتى لا يردد الناس الاشاعات ـ ولكنه زواج فعلي . انه حقيقة ، امر واقع ، قدر لا مفر منه !

ان كندا اخذت ارضها من الهنود الحمر ، واخذت دستورها من بريطانيا ، ونشاطها من فرنسا ، ونظامها من المانيا ، ونقودها من امريكا !

ان ميراثها هندي ، افكارها انجليزية ، طعامها فرنسي ، شوارعها المانية ، ثم حياتها كلها بعد ذلك .. امريكية !

ان الحياة في كندا معناها في الواقع الحياة في امريكا .. دون ان

تكون موجودا فى واحدة من الولايات الخمسين بامريكا . ان كندا هى الجار الشمالى للولايات المتحدة الامريكية ، ومع ذلك فانك فى كندا تحس ـ مثلما احس انا ـ بانك ما زلت فى امريكا .

فالرجل العادى بكندا يتحدث بلهجة امريكية ، ويركب سيارة بويك أو بليموث او ثندربيرد ، ويسير بها على طرق سريعة ، ويملؤها بنفس نوع البنزين ، ويذهب الى السينما بسيارته ، ويأكل الهامبيرجر والسجق والفشار ، ويشاهد مباريات الكرة فى التليفزيون ـ احيانا على نفس القناة الملونة التى تشاهدها امريكا ، ويعيش فى منزل مكيف ، بمطبخ عصرى مجهز ، مطبخ تجد فيه دائما الثلاجة والسخان والخلاط والبوتاجاز الاوتوماتيكى وغسالة الملابس وغسالة الاطباق ، ثم .. بعد هذا كله .. يحمل معه فى اجازته مشواة لاعداد الطعام على الشاطىء .

ان الرجل الكندى يعيش اذن كامريكى .. دون أن يكون امريكيا حياة تتيح له امتيازات كثيرة ، ولكنه يدفع ثمنها ايضا . فالاجور اقل من امريكا قليلا ، والجو ابرد من امريكا قليلا ، والدولار الكندى اقل فى قيمته من الدولار الامريكى قليلا .

ومع ذلك .. فهذه هى الصيغة التى اختارتها كندا للحياة بجوار العملاق الامريكى . لقد تزوجت كندا بامريكا . زواجا مع وقف التنفيذ . ان الزوج والزوجة يعيش كل منهما فى بيت مستقل . دولة مستقلة . الزوج يدفع الاموال ، والزوجة ترد اليه الارباح كل سنة . ارباحا ضخمة . ان حجم الاستثمارات الامريكية فى كندا وصل الى ثلاثة الاف مليون جنيه خلال السنوات العشر السابقة فقط .

فحينما تكون كندا هى الجار الشمالى للولايات المتحدة ، وحينما يكون شعبها عشرين مليونا .. بجوار شعب امريكى يزيد عدده على ٢٠٠ مليون ، فلابد ان يؤدى هذا الوضع الى وجود تاثر مستمر لصالح الدولة الاكبر ، وهى الولايات المتحدة . ولابد ان تلاحظ هذا التأثير فى مظاهر الحياة اليومية بكندا ، عندما تسافر اليها أول مرة .

× × ×

ان كندا بلد بعيد عنا بما يعادل ١٧ ساعة بالطائرة . انها تقع فى قارة امريكا الشمالية . سقف امريكا وتقع شمال الولايات المتحدة الامريكية . ان كندا هى ثانى بلاد العالم من حيث المساحة . معنى ذلك أن مساحتها اكبر من مساحة الصين الشعبية مثلا ، واكبر من

مساحة الولايات المتحدة نفسها . بل ان مساحة كندا تكاد تتساوى مع مساحة جميع الدول العربية ، بينما سكانها هم خمس سكان الدول العربية .

باختصار : مساحة كندا عشرة ملايين كيلو متر مربع وسكانها عشرون مليونا .

ان هذا العدد الضئيل من السكان لا يكاد يوحي بأن كندا يمكن ان تصبح ذات شأن في المستقبل . ولكن الحقيقة عكس ذلك تماما فلو استمر المجتمع الكندى بمعدل تقدمه الحالى فان القرن القادم سوف يكون قرنهم . حقيقة كانوا يلقنونها لاطفالهم فى المدارس منذ سنوات . المستقبل سوف يكون لهم . هذه الحقيقة تتأكد سنة بعد أخرى .. بالرغم من المشاكل الحضارية التى يواجهها شعب كندا .

من هذه المشاكل مثلا .. تعدد الثقافات التى تسعى للسيطرة على العقلية الكندية . هناك الثقافة الفرنسية من جانب والثقافتان الانجليزية والامريكية من جانب اخر . ونتيجة لهذا التنافس اصبحت كندا جسرا فوق الفجوة الثقافية بين أوربا وامريكا . اصبحت حلا وسطا بين الحضارة الاوربية والتكنولوجيا الامريكية ولكنه لم يصبح حلا الا مؤخرا فقط . فمن قبل ظلت المشكلةتواجه كندا لسنوات طويلة .

فالصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجلو سكسونية على أرض كندا يرجع الي ثلاثة قرون سابقة . ان كندا كانت أرضا مجهولة حتى نهاية القرن الخامس عشر . ثم بدأ الناس يذهبون الى كندا قادمين من أوربا .. بحثا عن الثروة واسلوب جديد فى الحياة .

الفرنسيون ذهبوا اولا ، ثم الانجليز ــ لقد بدأ كل منهم يكتشف هذه الارض المجهولة الواسعة ويضع لها الخرائط . وخلال فترة قصيرة اصبح خليج سنت لورنس فى كندا مدخلا لامبراطورية فرنسية جديدة فى أمريكا الشمالية .. بينما بريطانيا تقيم هى الاخرى امبراطورية ثانية لها فى الشمال الغربى من كندا .

وكان لابد فى النهاية ان يقع الصدام بين الامبراطوريتين . بين المهاجرين الفرنسيين والمهاجرين الانجليز اولا ، ثم بين الدولتين الحاميتين .

ان كندا ــ المولودة حديثا ــ هى موضوع هذا الصراع . لقد اختلف الاب ــ الانجليزى ــ مع الام الفرنسية خلافا ادى الى

الطلاق . عندما وقع الطلاق بين الام والاب بدأ الخلاف على النقطة الرئيسية : من منهما له حق الوصاية على الطفل ، على كندا ؟ .

وبعد صراع طويل ومنافسة حادة بين بريطانيا وفرنسا .. انتهى الخلاف على مائدة مفاوضات . لقد ظهر خطر جديد قادم من الجنوب ـ من الولايات المتحدة ـ التى كنت تخوض غمار الحرب الاهلية بين شمالها وجنوبها ، وبدا يلوح فى الافق احتمال قيام الولايات المتحدة بغزو اراضى كندا أو ضمها .. كعقاب لبريطانيا ضد مساعدتها للجنوب فى الحرب الاهلية . عند هذا الحد اصدرت بريطانيا تشريعا سمى « قانون امريكا الشمالية » بعد هذا القانون بدأ الاتحاد التدريجى بين المقاطعات الكندية . اتحاد فيدرالى انتهى الى قيام دولة كندا من المحيط الاطلنطى شرقا الى المحيط الباسيفيكى غربا .

ان هذا القانون صدر فى اول يوليو سنة ١٨٦٧ . انه قانون تذكره كندا اليوم باعتباره يحمل قرار ميلادها . ان هذه ـ على ما اعتقد ـ هى أول دولة تحتفظ بشهادة ميلادها فى ارشيفها .. مكتوبة بالساعة والتاريخ !

×××

ومع ذلك .. فان شهادة الميلاد لم تحل المشكلة تماما . فحتى اليوم ما زلت تلمس فى كندا ذلك الصراع المستتر بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية . وفى وقت قريب انتشرت فى مقاطعة كويبك ـ أغلب سكانها من أصل فرنسى ـ دعوة للانفصال سياسيا عن كندا . وهذه الدعوة الحادة ـ هذا الخلاف الساخن ـ أدى الى وجود لغتين رسميتين الان فى كندا : الانجليزية والفرنسية . وادى الى اعطاء فرصة متساوية للثقافة الفرنسية .. تواجه بها نفوذ الثقافة الانجلو سكسونية فى كندا . بل انه حدث منذ سنوات قليلة أن قامت حكومة كندا بتغيير اسم شركة طيرانها من « ترانس كندا ايرلاينز » الى « ايركندا » لارضاء الفرنسيين .

ان هذا التعدد اللغوى والثقافى ليس هو المشكلة الوحيدة فى التعريف بكندا . فى الواقع أن التعريف بكندا هو امر صعب من نواح كثيرة . صعب لان كندا بلد واسع جدا ، متنوع جدا ، شعب مختلف فى أصوله جدا ، متعدد فى اسلوب حياته جدا .

ان حدود كندا مثلا تطل على المحيط الاطلنطى شرقا ثم المحيط الباسيفيكى غربا والمحيط القطبى شمالا .. عشرة ملايين كيلو متر

مربع . لهذا تجد ان الكنديين يسجلون اكبر رقم مكالمات تليفونية فى العالم . هناك تليفون لكل شخصين ونصف شخص من السكن:

ودرجات الحرارة فى كندا متنوعة . اقلها ٢٥ تحت الصفر فى اقصى الشمال ، واعلاها ٤٥ درجة مئوية (اى اكثر من حرارة اسوان) فى الجنوب . تستطيع اذن ان تجد الصعيد فى كندا .. او تجد القطب الشمالى .

والسكان فى كندا مختلفون . انهم عشرون مليونا ـ هذا صحيح ولكن ٤٠٪ منهم هم من اصل بريطانى .. ومن ثم فلغتهم الاولى هى الانجليزية ثم ٣٠٪ من السكن هم من اصل فرنسى .. ومن ثم فلغتهم الاولى هى الفرنسية . باقى السكان من جنسيات اخرى متعددة . الجالية الالمانية مثلا هى ثالث مجموعة سكانية من حيث الحجم .

ولقد كان يقال فى الماضى ان الانجليز والفرنسيين هما « الجنسان المؤسسان » لكندا . عبارة مضللة لان كلا من الفرنسيين والانجليز ينتميان للجنس القوقازى . وهى مضللة ايضا لان كندا ـ قبل الاكتشاف الاوربى لها ـ كان يقطنها مجموعة من الهنود والاسكيمو .. كل منهم يعتبر جزءا من الارض مملوكا له .

ولان الانجليز والفرنسيين والالمان هم اهم ثلاث مجموعات سكانية فى المجتمع الكندى .. فان كلا منهم نقل الى كندا صفاته الاصلية . التى كنت اواجهها هناك من وقت لاخر .

فالفرنسى : فردى ، عاطفى ، صافى الذهن ، متمرد ، تحصل منه على كل شىء عن طريق اعتزازه بكرامته .

والانجليزى : روتينى ، عنيد ، هادىء ، صبور ، لا يؤمن بالثورة ، يعبد التقاليد ، يتظاهر بانه غبى ، وتحصل منه على كل شىء عن طريق شعوره بتادية الواجب .

والالمانى : متشائم ، مطيع ، منظم ، حيوى ، كفء ، محب لوطنه ، يعبد القوة .. وتحصل منه على كل شىء عن طريق شعوره بالمسئولية الاجتماعية .

لهذا اصبح المجتمع الكندى المعاصر خليطا مشتركا من هذه الشخصيات الثلاث ، زائد الشخصية الامريكية .. التى سنتناولها بالتفصيل فيما بعد . وهنا ياتى الدور على عدة ملاحظات :

فاولا : مع ان مساحة كندا تغطى اكثر من نصف قارة امريكا الشمالية .. الا ان معظم سكان كندا بصفة عامة (٧٠ ٪)

يعيشون داخل مائة ميل فقط فى جنوب كندا وشمال الولايات المتحدة . لان هذه المنطقة اكثر دفئا بالطبع واكثر قربا لامريكا .

وثانيا : ان مقاطعتى كويبك واونتاريو هما اكثر مقاطعتين فى كندا ازدحاما بالسكان ، حيث يتركز فيهما حوالى ٦٤ ٪ من مجموع سكان كندا كلها .

وثالثا : ان معظم السكان القادمين من اصل فرنسى يتركزون فى مقاطعة كويبك بكندا بينما معظم القادمين من اصل انجليزى يتركزون فى مقاطعة اونتاريو ، ومقاطعة كولومبيا البريطانية .

والواقع ان بريطانيا تعيش فى كندا فى اكثر من هاتين المقاطعتين ولكن مقاطعة كولومبيا البريطانية بالذات تستطيع ان تلمس مظاهر الحياة الانجليزية امامك يوميا : شاى الساعة الخامسة فى الاباريق الفضية ، اطباق الكعك ، لعبة الجولف على مدار السنة .. الخ .. ان السياح الامريكيين الذين لا يستطيعون عبور القارة ثم عبور الاطلنطى لزيارة انجلترا يجيئون الى هنا كبديل عن زيارة لندن .

اما فرنسا فانها تعيش داخل كندا فى مقاطعة كويبك ،وبالذات فى مدينة مونتريال بمقاطعة كويبك . ان مونتريال هى اكبر مدينة فى كندا ، وهى رابع مدينة فى قارة امريكا الشمالية كلها ، وهى اكبر مدينة فى العالم تتحدث الفرنسية بعد باريس . فى الواقع انهم يسمونها احيانا « **باريس امريكا الشمالية** » . وربما . فالفتيات فى مونتريال اجمل واكثر اناقة منهن فى اى مكان آخر بكندا . والطعام فى مونتريال هو ايضا احسن واكثر تنوعا ويقال ان عدد مطاعم مونتريال يصل الى اربعة آلاف مطعم ، بعضها له سمعة دولية . وحياة الليل فى مونتريال هى ايضا اكثر تنوعا منها فى كندا كلها .

وبالاضافة الى ذلك فان مونتريال فيها اكبر انتاج من اجهزة التليفزيون الفرنسية فى اى مكان فى العالم . وفيها ايضا يقام مهرجان دولى للافلام ينافس مهرجان نيويورك وسان فرانسيسكو وفيها ثلاث جامعات : جامعة ماكجيل ، وهى الاقدم وتتحدث الانجليزية .. ثم الجامعة الفرنسية الضخمة « جامعة مونتريال » .. ثم الجامعة الحديثة « جامعة السير جورج ويليامز » ذات المبانى العصرية التى تشبه دكاكين البقالة .

ان مونتريال هى المدينة الوحيدة فى كندا التى تستطيع ان تقف على قدم المساواة مع لندن ، نيويورك ، باريس ، طوكيو ،

او سان فرانسيسكو .. كمدينة دولية مثيرة تحيا فيها بمتعة .
انها مدينةيقل عمرها عن ٣٥٠ عاما ، ومع ذلك فهي واحدة من أسرع
المدن تغيرا وتطورا في العالم . ان سكانها لايزيدون على ربع سكان
مدينة نيويورك ، ومع ذلك فانها تصدر سنويا نفس عدد تراخيص
البناء التي تصدرها مدينة نيويورك . ان مونتريال مدينة تتطور
بسرعة ، تتغير بسرعة ، انها حقا لا تتغير ــ انها تنفجر ! ان
المباني تنطلق فيها الى ارتفاع اربعين طابقا . تنطلق من الثقوب
في الارض لتصبح ناطحات سحاب خلال أشهر قليلة .. ان رائحة
غبار الاسمنت هي دائما في انفك حينما تسير في شوارع مونتريال
ان منطقة المحلات التجارية في وسط مونتريال تختفي تدريجيا
لتصبح تحت الارض ، في حالة طلاق بينها وبين زحام السيارات
وزحام الناس فوق الارض . وفي احد هذه المراكز المبنية تحت
الارض ــ بلا سفيل ماري ــ نجد المطاعم والمحلات والمسارح
والمقاهي .. موجودة امامك تحت الارض بعيدا عن السيارات
والاتوبيسات المتزاحمة في الشوارع فوق راسك . ان احدث
بورصة في العالم موجودة هنا ــ في مونتريال واحدث الطرق
السريعة موجودة هنا ــ تحيط بمونتريال من جميع الاتجاهات .
واسرع طريق الى نيويورك تستطيع ان تسير فيه من هنا (.. ؛
ميل) واظرف السيدات تجدهن هنا ، مرتديات بلاطي الفراء
يتجولن في المحلات ثم يشترين الشاي مساء في ريتز . من
البلاطي التي ترتديها هؤلاء السيدات صنع احد الرجال ثروة
ضخمة ، ثم مات . اسمه جيمس ماكجيل .. تاجر الفراء الذي
ترك أمواله لتأسيس جامعة سميت باسمه وهي الآن من
احسن جامعات امريكا الشمالية .

ان مونتريال هي رمز لماضي كندا ، ففيها بدأ اول بنك واول
سكة حديد ، أول باخرة .. وهي ايضا رمز لمستقبل كندا ..
حيث أحدث بورصة .. اكثر سكان .. احسن تعليم ..
انشط ادارة ..

ولكن .. مع هذا كله .. فان مونتريال ليست هي كل كندا .
في الواقع ان كندا تختلف كثيرا جدا عن مونتريال .. بل ان كندا
الحالية تختلف جدا عن كندا التي سخر منها المفكر الفرنسي
فولتير يوما عندما قال انها .. مجرد افدنة من الثلج .

ان الوحدة التقليدية للحياة في كندا هي القرية ، وليست
المدينة .. صحيح أن هناك عددا من المدن الكبيرة في كندا ، ولكنها

تمثل استثناءات على قاعدة عامة . القاعدة هي انتشار القرى الصغيرة .. او على الاصح .. المدن الوسط بين العاصمة والقرية بل ان مدينة أوتاوا ــ عاصمة كندا ــ هي مجرد قرية كبيرة .

في مثل هذا المجتمع لا يمكن ان تكون غريبا .. فانت لا يمكن ان تشعر بالغربة داخل قرية صغيرة .. ان الصحف المحلية تنشر صورتك عندما تستخرج رخصة قيادة سيارة او عندما تتزوج .. كخبر هام يستحق اهتمام الناس ..

ان هذه هي الطريقة الوحيــدة التى تتفاهم بها الكنديون مع مشكلة الحجم الضخم لبلدهم . ان الاحساس بأن شعب كندا هو شعب من التجمعات الصغيرة .. احساس يتأكد لديك كلما مررت خلال عدد من المدن الصغيرة عبر اطراف كندا .

لقد عشت عدة ايام في احدى هذه المدن الصغيرة ــ مدينــة شيربروج . عشت في منزل صديقى المعروف هنــاك الدكتور مصطفى الهلالى .. وبعـد ان عشت في هـذه المدينة الصـغيرة بدأت احس بمزايا جديدة .

ففي شيربروج ، مثلما في اى مدينة صغيرة اخرى في كـنـدا ، تستطيع ان تجد الاسواق المحلية ، الجـريدة المحلية ، الاذاعة المحلية ، ان هذه الاذاعات المحلية هي كلها نسخ كربونية متكررة من البرامج والاعلانات التجارية .. ومع خروجك بالسيارة من مدينة ودخولك الى مدينة اخرى .. يختفى صوت اذاعة المدينـة السابقة تدريجا ، وتبدأ في سماع صوت الاذاعة المحلية الجديدة للمدينة التالية .. انها تقول لك في اعلانها اشتر سـيارة كبيرة بالسعر العادى .. وسوف نعطيك معها سيارة صغيرة مجانا .. هكذا تحصل على سيارتين بسعر سيارة واحدة ، هكذا يقدمون لك الاعلانات المستمرة في المجتمع الكندى .

ان الحياة في المدن الصغيرة قد تكون امرا مريحا لاناس كثيرين ولكن بالنسبة لي شخصيا ، كان الملل يتسلل الى بسرعة بعد عدة ايام . وفي كل مرة يحدث هـذا ، كنت احس ان احسن شيء استطيع ان افعله هـو ان انــزل الى الشــارع الرئيسى واسير متفرجا على الناس ..

وفي احدى هذه المرات اقترب منى رجل عجوز سألنى : هل انت متعلم ؟ ولم اعرف بماذا ارد ، فالسؤال يبدو غريبا .

ــ هل انت متعلم ؟ .. هكذا كرر الرجل سؤاله مرة اخرى .

ولاول وهلة تصورتها طريقة جديدة فى الشحلاذة ! ولكن الرجل عندما يئس من الحصول على اجابتى سالنى : كم تساوى اربعين عندما نجمعها اربع مرات ؟!

وعندما قلت للرجل « مائة وستين » .. بدا عليه السرور والانشراح .. لقد تركنى وهو يكرر لنفسه مندهشا مائة وستين .. مائة وستين .. مائه وستين .. ما و .. !

وربما كانت هذه هى المرة الوحيدة التى سمعت فيهـــا هذا السؤال فى كندا .. فالتعليم فى كندا ــ التعليم المستمر ــ هو شىء حيوى جدا .. ان صـــوت الراديو يعلن لك بانتظـــام .. « لاتتخلف » .. هذا شعار يتردد كثيرا .. ان الراديو يقول لك « ان التعليم معناه التقود » .. تخرج من المدرسة العليا وسوف تكسب اكثر .. ان الحكومة تقول لك ســوف تدفع لك ستة دولارات شهريا اعانة عن كل طفل لك تحت سن العاشرة . ثمانية دولارات عن كل طفل تحت سن السادسة عشرة . بعدها ستوقف الاعانات .. ولكن .. اذا استمر ابنك فى التعليم بعد سن السادسة عشرة ، فسوف ترفع اعفاءاتك الضريبية بمقدار ٥٥٠ دولارا فى السنة ! .

ان التعليم الابتدائى والثانوى مجانا فى كندا ، ومع ذلك فانهم يقدمون هذه الامتيازات لاغراء الناس على مواصلة التعليم انك تلمس هذه النظرة العلمية للتعليم جنبا الى جنب مع بقايا النظرة العاطفية للامور . وهناك .. بقايا كثيرة من هذه العواطف فى كندا

انى ما زلت اذكر شخصا معينا كنت اقابله فى الفندق الذى نزلت به فى مدينة اوتاوا .. انه جرسون يعمل فى مطعم الفندق وفى كل مرة اتناول فيهـــا طعاما كان هذا الرجل ياتى الى ، بابتسامة واسعة على شفتيه قائلا تحت امرك يا سـيدى . هذه كلمـــات عادية . ولكن غير العـــادى هو ما يقوله بعد ذلك : **« هل انت غريب يا سيدى . اهلا بك هنا .. هذه هى ارض المستقبل .. انت الان فى كندا . ارض الاحلام . كلهم امامك هنـــا يحلمون بشىء ما . ولكن قل لى او سمحت .. هل يعجبك طعامنا هنا ؟ هل يعجبك حقا ؟ ثم .. هل تعجبك كندا ؟ ارجو أن تعجبك يا سيدى ! انها لم تعجبنى انا عندما هاجرت الى هنا فى البداية ، ولكننى بعد ذلك احببتها ، عشقتها .. »**

ان جورج ــ هو اسم الجرسون على ما اتذكر ــ كان يسالنى كل يوم نفس السؤال بحماس شديد : ما رايك فى كندا ؟

انه يقول السؤال .. ثم يحقق النظر فى وجهى مراقبا اقل تعبير ، اقل تغيير ، اقل اشارة ، اقل علامة .. كرد فعل .. لسؤاله ، كما كان يقول لى سؤاله لاول مرة .. او كما لو كانت الاجابة التى سارد بها اقوالا ماثورة !

ولكن الكنديين هم عدد كبير من جورج هذا . انهم شغوفون بمعرفة راى الاخرين فيهم، انهم يسالونك علىالطريقة الانجليزية ويسمعونك على الطريقة الالمانيـة ، ويردون عليك على الطريقة الفرنسية .

وربما كان هذا الاهتمام منهم بمعرفة راى الدنيا فيهم .. هو بقايا لانعزالهم عن العالم .. انهم لم يعودوا منعزلين ، ولكنهم كانوا كذلك فى وقت ما . . ان هذا الانعزال اثر على اشـياء كثيرة فى حياتهم . وحتى فى تفكيرهم ، ان الشخص الكندى العـادى يستطيع أن يجعل عقله مجموعة غرف مستقلة تماما عن بعضها البعض فى كل غرفة موضوع او مشكلة .. وفى الغرفة المجـاورة موضوع مختلف تماما او مشكلة اخرى جدا ..

انك تلمس هذه الظاهرة اكثر فاكثر على المستوى الشخصى .. لقد حدث لى مرة ان ركبت القطار من مونتريال الى اوتاوا . وفى القطار جاء مقعدى بجوار سيدة شابة .. سيدة متزوجة .. عمرها لا يزيد على الثلاثين .. عندما جلست انا كانت هى تقرا كتابا وجهها جاد جدا ، عيناها على الكتاب تماما . عقلهـا مع كل سطر تقراه ، اصابعها على كل صفحة تقلبها .

بعد خمس دقائق رفعت السيدة عينيها من على الكتاب . وبدات تسالنى . الان وجهها مشرق جدا ، عيناها لامعتان جدا، ابتسامتها واسعة جدا . خمس دقائق .. ثم الى الكتاب مرة اخرى ، بعد عشر دقائق .. اغلقت السيدة الكتاب .. فى هذه المرة اغلقته نهائيا .. وبدات تتحدث معى .. حديثا بدا جـادا جدا .. وانتهى غير جاد جدا !

وفى كل مرة كنت اتحدث مع الشخص الكندى العادى كان يتاكد عندى نفس الاحساس .. الاحساس بانه سوف يقول .. الان دعنا نضحك « فنضحـك » .. الان دعنا « نتناقش » الان ـ لا نضحك .. !

ربما كان الانعزال الجغراق الذى عاشت فيـه كندا قبل فترة سببا فى ذلك .. وربما لم يكن . ولكن احساس الشخصى ان له

علاقة . لقد ذهب الى كندا فى البداية كل شخص مرفوض من مجتمعة ومن ظروفه . لقد عاش هناك يصنع ظروفا جديدة .. عاش على ارض عذراء . وفى طقس يرفض الانسان ، طقس يرغمك نصف السنة على ان تعيش فى عزلة وتفكر فى عزلة .

لقد ذهبت الى كندا اول مرة فى شهر نوفمبر . ثانى مرة فى شهر يونيو .. فرق شاسع بين المرتين وبين الشهرين . فى المرة الاولى بداية الشتاء ، فى المرة الثانية بداية الصيف .. بداية الخروج الى الشوارع والاختلاط بالناس والحياة خارج المنزل . هذا يحدث فى الصيف فقط . اما فى الشتاء فانت وحدك داخل غرفتك . داخل منزلك .. بعيدا عن البرد القارس فى الشارع .

اذكر وانا فى اوتاوا اننى كنت احب كثيرا ان انظر من نافذة غرفتى الى الشارع قبل لحظات من سقوط الظلام . ان السماء تمطر ثلجا . والثلج على الارض ينعكس عليـــه لون اقرب الى الزرقة ، اقل قليلا من زرقة السماء . اننى ارى فى الشارع اناسا قليلين يسيرون ببطء . سيارات كثيرة تعدو بسرعة .. ومن مكانى فى حجرتى كنت اشاهد المبانى المواجهة . نوافذ زجاجية مغلقة على ستائر خفيفة .. ستائر يبدو من داخلها قليل من الضوء فى لون برتقالى شاحب . لم يكن هناك صوت مجرد ثلج يتساقط . مجرد سيارة تعبر الشارع بين لحظة واخرى .. وللحظـــات قليلة فى كل مرة اتصـــور نفسى فى موسكو وليس فى اوتاوا . هكذا يصفون جو موسكو فى الشتاء ..

ولقد كنت اتصور اننى عرفت شـــتاء كندا هذا : ثلج يلمع . هواء نقى ، نسمات جافة ولكننى لم ادرك كم كان هواء الشتاء هنا جافا .. الى ان تركت قطعة خـبز مرة فى الغـــرفة ليلا . وفى الصباح رأيت قطعة الخبز ما زالت جافة .. ولكنهـــا اصبحت اكثر جفافا . اكثر جفافا من قطعة حديد !

وعندما كنت اشعر بالجفاف فى فمى كنت اشرب كوبا من المياه، او انزل لاشرب كوبا من البيرة . ان الفندق الذى انزل فيه به مرقص وبار فى الدور الارضى .. انه كل ليلــة مزدحم بالنـــاس والموسيقى والرقص .. ولكننى كرهت الاعتذار من عدم الرقص كل ليلة ، ثم كرهت قدح البيرة ثم المنظر كله الذى يتكرر كل مساء .. فى هذه اللحظة يحس الانسان بالملل . وعندما لايكون لدى فى الحجرة ما اقراه ، وعندما لا يمر على صديق . فاننى كنت اشعر بوحدة قاتلة ..

ان هذا الشعور بالوحدة ــ هذا الاحساس بالعزلة ــ هو اول احساس يكتشفه المصرى فى نفسه عندما يذهب الى كندا مهاجرا ، او حتى زائرا . انه احساس يلازمه فى ايامه الاولى بالذات ، ايام البحث عن وظيفة ، عن فرصة عمل .

ولكن المصرى المهاجر لن يكون وحده الذى يشعر بهذا الاحساس . هناك مليونان ونصف مليون شخص آخر هاجروا الى كندا فى السنوات العشرين الاخيرة . وبداوا حياتهم بهذا الاحساس . ان هذا العدد الضخم من المهاجرين ــ فى مثل تلك المدة القصيرة ــ جاءوا من مثل هذا العدد الكبير من الدول (٦٠ دولة) .. ربما لم يحدث فى تاريخ اى دولة أخرى .. الا كندا

ان المغناطيس الذى جذب هؤلاء كان اولا : قطعة ارض . ثم بعد ذلك اصبح اسلوب حياة ، اسلوب تنظيم ، نظام عمل . ان الوصفة السحرية التى جذبت تلك الجنسيات المتنوعة الى كندا هى وصفة بسيطة بقدر ما هى معقدة : اعمل .. تكافأ ! اعمل اكثر . تكافأ اكثر . تعلم .. تكسب . فكر . تتقدم .

لقد اكتشف المجتمع الكندى ان هذه الوصفة السحرية هى الحل الوحيد المتاح امامه لكى يتقدم ــ فلانه مجتمع متنوع جغرافيا .. مختلف سكانيا .. متغير طقسا .. فان المعيار الوحيد المفتوح امامه للتفرقة بين سكانه هو مقدار عملهم .

ان معنى ذلك بسيط : ان كل خبرة جديدة يكسبها المهاجر او المواطن فى كندا .. سيترتب عليها أوتوماتيكيا زيادة فى دخله .. كل برنامج تعليمى يدخله .. يترتب عليه ترقية .. كل برنامج تدريبى ينجح فيه معناه فرصة اكبر ووظيفة افضل .

ولكن هذا معناه فى نفس الوقت : انك اذا لم تعمل ، اذا لم تتعلم ، اذا لم تتقدم ، اذا لم تنجح ، فلن يرحمك احد . لاوساطة لا اقدمية . لا اعذار . ان العمل مطلوب اولا ، ثم بعد ذلك المكافأة . التضحية اولا .. ثم تأتى النتيجة هل تريد مثالا على ذلك ؟ حسنا ..

ان اى مهاجر .. اى مواطن هنا ــ فى كندا ــ يستطيع امتلاك اى مساحة يريدها من الارض مقابل دولار واحد . نعم بدولار واحد تستطيع أن تمتلك خمسين فدانا ، مائة فدان ، مائتى فدان .. انت ورغبتك .. هذه هى النتيجة . ولكن قبل الوصول الى هذه النتيجة هناك شروط .. تطبيقا لقوانين تعمير الاراضى هنا فى كندا .. يستطيع اى شخص امتلاك اى مساحة

من الاراضى البعيـدة عن المـدن ـ حسب المناطق التي يحددها القانون ـ بشرط ان يعمرها بشكل ما خلال ثلاث سنوات . ان التعمير يبدأ من مجرد بنـاء كوخ بسيط ، وينتهى الى زراعة هذه الارض الجديدة . هذا هو السبب فى انهم لن يحصلوا منك على ثمن لهذه الارض سـوى دولار واحد . انهم يريدون تعمير المناطق البور . انها ليست مناطق نائية ، فبعضها لا يبعد عن مدينة مونتريال مثلا سوى ثلاثين كيلومترا . ولكن تعمير الاراضى الجديدة . امتلاك الاراضى الجديدة بدولار واحد .. هو نتيجة التضحية التى قمت بها انت مقدما . تضحية الحياة بعيدا عن القرن العشرين . بعيدا عن الحضارة ، بعيدا عن الاضواء والدفء والناس فى مونتريال .. بثلاثين كيلو مترا !

بهذه الطريقة اصبح لديهم فى كندا الان ١٧٤ مليون فدان من الاراضى المزروعة . اكرر : مائة واربعة وسبعون مليونا من الافدنة .. (لاحظ ان كل المساحة المزروعة فى مصر هى سـتة ملايين فدان) .. ومع ذلك فان هناك ٤٠ مليون فدان أخرى من الاراضى الجاهزة للزراعة . ونظرا لضخامة الرقم ، فاننى سأقوم من الان فصـاعدا بكتابة الارقام بالحروف .. حتى لا يتصـورها القارىء اخطاء مطبعية !!

أولا : انه ـ بعد استبعاد المائة والاربعة والسبعين مليون فدان المزروعة فعلا والتى تمثل ٨ ٪ فقط من مساحة كندا الاجمالية، هناك اربعون مليون فدان فى كندا صالحة للزراعة فورا .. وعلى ذلك لا يزرعها أحد . وهناك بعد هذا كله ستون مليون فدان اخرى قابلة للاستصلاح الزراعى . وعلى ذلك ، لا احد يزرع .. ولا أحد يستصلح .. السبب : نقص السكان . كيف يستطيع مجرد عشرين مليونا من السكان تعمير عشرة ملايين كيلو متر مربع ؟ مستحيل بعشرين مليونا !!

ان القرن العشرين يعطيهم فى كندا حلا جزئيا لهـذا المشكلة . لقد اصبحت الزراعة فى كندا هى زراعة ميكانيكية وليست يدوية معنى ذلك ان الزراعة فى كندا هى مجرد صناعة اخرى . ونتيجة لذلك ، فانه منذ مائة سنة كان الحجم المتوسط للزراعة الواحدة فى كندا ٩٨ فدانا . الان اصبح حجم المزرعة فى المتوسط ٣٥٩ فدانا . أن الميكنة والاستعانة بالآلات هما السبب فى ذلك . ان تحول الزراعة الى صناعة هو سبب . فالزراعة فى كندا لا تعنى مجرد زراعة ، ولكنها تمتد لتشمل صناعات ضخمة قامت عليها.

صناعات مثل منتجات الالبان والدواجن والفواكه والخضراوات، انها زراعة ـ وصناعة تعتمد على الزراعة ـ لا تستخدم مجرد زراعة .. انها تستخدم اساسا متخصصين .. ابتداء من المهندسين الزراعيين الى العمال الفنيين .

لهذا السبب أصبحت كندا هى مخبز العالم : اكبر انتاج من الحبوب ، اكبر صادرات من المواشى .. اكبر صناعات غذائية .

ومع ذلك .. فان الزراعة ليست هى اهم مجال اقتصادي فى كندا . فى الواقع ان الزراعة لا يعمل بها فى كندا سوى ٩ ٪ من القوى العاملة . انها ـ حتى ـ ليست احسن مجال متاح للعمل داخل الاقتصاد الكندى .

ان الاقتصاد الكندي متنوع بقدر ما هو ضخم . انه يبدأ من تربية الماشية وصناعة الالبان وقطع الاخشاب الى استخراج الذهب والنحاس والفحم والبترول واليورانيوم ، الى صيد الاسماك وتوليد الكهرباء الى بناء السفن وصناعة السيارات والصلب

ان مثل هذا الاقتصاد ، مثل هذا التنوع الصناعى . يحتاج الى درجات متنوعة من الكفاءات . يحتاج مثلا الى محاسبين ، معماريين كيمائيين ، اطباء ، أطباء اسنان ، رسامين، أمناء مكتبات ممرضات ، مهندسين ، صيادلة : مدرسين ، جيولوجيين ، علماء فى الرياضة ، الذرة .. الخ ..

ومن ناحية أخرى .. فان التنوع يستدعى ايضا درجات عالية من الخبرة والتخصص . ولكن هذه ليست مشكلة فى كندا . فهناك برامج تدريبية وعلمية متنوعة تعطيك الخبرة المطلوبة فى كل شيء .. ابتداء من آخر تطورات صناعة الصلب .. الى آخر تطورات صناعة الازياء ! .

ان البحث عن عمل فى كندا اذن ليس هو المشكلة . فاذا كانت القضية هى البحث عن عمل ـ اى عمل ـ فان كندا بها الاف الاعمال الشاغرة التى تستوعب مائة مليون مهاجر جديد على الاقل ؛ وبالاضافة الى العشرين مليونا الموجودين حاليا .

هناك اعمال فى كل مدينة ، كل قرية ، كل شارع ، كل ركن . لقد تعرفت عند مهاجر مصرى وزوجته بفتاة كندية اسمها كريستين . عمرها ١٦ سنة . طالبة فى المرحلة الثانوية . ان مرتبها مائتا دولار فى الشهر . كل ما تفعله هو الوقوف ٤ ساعات

كل يوم فى موقف سيارات بمدينة مونتريال . تأخذ منك سيارتك لكى تدبر لها مكانا وسط السيارات الواقفة . هذا هو كل شيء. مع ملاحظة ان المائتى دولار لا يدخل فيها البقشيش الذى يدفعه لها أصحاب السيارات .

واذا كانت القضية هى البحث عن ــ اى عمل ــ فانك تستطيع شراء او استئجار قطعة أرض فى اى مدينة لكى يستعملها الناس كموقف للسيارات . لامبانى ولا استثمارات . مجرد قطعة تنتظر فيها السيارات وتدفع رسوما بالساعة فى مقابل انتظارها . اذا نجحت فى ايجاد مثل هذه الارض . فالنتيجة هى دخل شهرى لا يقل عن خمسة الاف دولار .

واذا كانت القضية هى البحث عن وظيفة ــ اى وظيفة ــ فانك تستطيع ان تعمل سكرتيرا ــ او سكرتيرة اذا كنت فتاة . كل الشروط المطلوبة هى أن تكون دراستك حتى الثانوية وان تجيد الانجليزية والفرنسية وتعمل من الساعة التاسعة صباحا حتى الخامسة مساء ، مع اجازة يومين فى الاسبوع . الاجر فى هذه الحالة اربعمائة دولار شهريا . هكذا فعلت فتاة مصرية اسمها منى تعمل حاليا فى اوتاوا ؛ بالاضافة الى زوجها المهندس .

المهم .. ان البداية ليست مشكلة . وهى عادة ما تكون بداية متواضعة جدا ، الى ان يستطيع المهاجر ان يندمج فى المجتمع الكندى . القضية اذن ليست العمل .. ولكن القضية هى : اى نوع من العمل ؟ ان الهجرة فن .. او مشكلة . ان استعداد المهاجر مقدما للاندماج فى المجتمع الجديد .. ان دراسته السابقة لحضارة هذا المجتمع وعاداته وتقاليده .. ان تمكنه من اللغات السائدة فى هذا المجتمع .. ان استعداده للعمل الشاق المضنى المتواصل وعدم الاستقرار لمدة سنة على الاقل .. كل ذلك يجعل الهجرة بالنسبة له فى النهاية خطوة الى الامام .

ولكن المهاجر الجديد لن يستطيع التقدم الى الامام الا اذا عرف اولا : كيف يبحث عن عمل .

لقد قابلت عددا من الذين فشلوا بعد هجرتهم فى الحصول على عمل . عدد قليل ولكنهم فشلوا على اى حال . وفى كل مرة كنت اجد اسبابا خاصةبكل حالة ــ طبعا ــ ولكن هناكدائما امرا مشتركا

ان البحث عن عمل هو فى حد ذاته .. فن ! انه فن يختلف من مجتمع الى مجتمع ، ولكن جوهره فى النهاية يبقى واحدا . ان

البحث عن عمل معنـاه انك تبحث عن مشتر لكفاءتك ، لخبرتك لمؤهلاتك . ومادام انه عملية بيع وشراء .. فلابد ان يتوقف سعر البيع فى النهاية على مدى دراسة البائع مقــدما لحالة المشترين وظروفهم واحتياجاتهم .. بالاضافة الى فهمه للظروف العامة ، والافكار العامة فى هذا المجتمع كله .

ــ لقد رايت فى كندا وامريكا مكاتب متخصصة فى التدريب على شىء واحد : كيف تبحث عن عمل . انها مكاتب متخصصة والاقبال عليها ضخم .. انها لاتبحث عن عمل .. ولكنها تعلمك كيف تبحث انت لنفسك عن عمل . انها مكاتب منتشرة ــ ليس فقط لان هنـاك سيلا مستمرا من الذين يريدون العمل لاول مرة ، ولكن لان معظم الناس .. حتى الذين يعملون فعلا .. يواجهون فى وقت ما من حياتهم مشكلة البحث عن عمل افضل ، او تغيير لعملهم الحالى .

ولقد دفعنى حب الاستطلاع مرة الى دراسـة المحاضرات التى يعطونها فى احد هذه المكاتب بمدينة مونتريال فى كندا . ان جوهر المحاضرات يعتمد على نقاط قليلة .

انهم اولا يقنعونك بأن فرصة العمل هى دائما موجودة فى السوق . فما دام لا يوجد كساد ، فان هناك وظائف جديدة ، وظائف تخلو ، ووظائف تتغير .

انهم يقنعونك ثانيا بأن البحث عن عمل ليس بحثا ، ولكنه عمـل فى حد ذاته . انك لا تستطيع ان تعتبر أيام بحثك عن عمل ايام اجازة .. او حتى نصف اجازة . انك عندما تعمل فى وظيفـة .. فانك تعمل فيها ٤٠ ساعة أسبوعيا .. وعندما تبحث عن وظيفة فيجب الا تعمل ٤٠ ساعة فقط ، ولكن خمسين ، ستين ، سبعين .

انهم يقنعونك بعد ذلك بان عليك ان تحلل خبرتك وقدرتك . لا بد ان تعرف بالضبط ما الذى تستطيعه ، وما الذى لا تستطيعه .

ويقنعونك ايضا بأن عليـك دائما ان ترفع مسـتواك وخبرتك وتدريبك . ويشرحون لك فائدة ذلك هكذا : ان الشاب العادى الذى وصل عمره الى ٢٥ سنة امامه فى المتوسـط ثمانون الف سـاعة عمل باقية فى عمره المتوقع . والرجل العادى الذى يبلغ عمره ٤٥ سنة ، مازال أمامه اربعون الف ساعة عمـل . انك اذا استطعت ــ بالتعليم والتدريب ــ أن ترفع اجـرك عن السـاعة الواحـدة

بمقدار دولار واحد فمعنى ذلك انك سترفع دخلك بمقدار ثمانية آلاف دولار ! .

وهم ينبهونك بعد ذلك الى ان من المهم جدا ان تكتب ملخصا لمؤهلاتك وخبرتك . ملخصا تكتبه فى ورقة او ورقتين على الآلة الكاتبة . ملخصا تكتبه على اساس انه قائمة باعمالك ومهاراتك . وتعده بشكل تعرض فيه نفسك وخبرتك .. الخبرة الاحدث تكتبها اولا ، والاقدم تكتبها اخيرا . مع ملاحظة انه من الضرورى ان تذكر اشياء محددة .. ومختصرة .

وهم يطلبون منك بعد ذلك أن تدرس سوق العمل واقتصادياته .. فانت حينما تملك خبرة ، تريد بيع هذه الخبرة المحددة لطرف آخر وتكسب منها . ولو تصورت انك المشترى فلابد ان تتذكر انك عندما تشترى سلعة من محل ما .. فانك تشتريها لانك تحتاج اليها .. وليس لانك تريد مجاملة البائع . وهكذا ، فان اى شركة لن تعطيك عملا ، الا اذا كانت تحتاج خبرتك .

وفى النهاية يقولون لك نقطة هامة : لا تكتف بالذهاب الى مكاتب الاستخدام أو وكالات التوظيف . ان كل بناء جديد تراه فى الطريق ، كل صديق تعرفه ، هو مصدر لك للسؤال عن الاعمال الجديدة أو الاعمال الشاغرة .

×××

هذا هو جوهر ما يدرسونه فى تلك المكاتب التى دخلت بعضها فى امريكا وكندا . ان ما يقولون لا يزيد عن مجموعة من البديهيات .. ولكنها بديهيات ينساها كثير من الناس الذين يهاجرون الى الخارج . ناس قابلت بعضهم هنا ــ فى كندا .

ومع ذلك .. فاننى افترض ان دراسة حالات الذين نجحوا فى العمل ، الذين نجحوا فعلا ، هى التى يمكن أن تعطينا خبرة بالمشاكل التى أحصرها ، والنتائج التى وصلوا اليها انها أيضا تعطينا فكرة محددة عن مدى استعداد الشخصية المصرية للتكيف مع ظروف وافكار مجتمع أجنبى .

عند هذا الحد .. يصح ان ننتقل من فحص المجتمع الكندى .. الى فحص حالات المصريين الذين نجحوا فعلا داخل المجتمع الكندى .

الفصل الرابع :

امرأة .. بعد منتصف الليل !



منتصف الليـل هو قطعا وقت غير مناسب لزيارة امرأةمحترمة تعيش وحدها في منزلها . انه وقت غير مناسب ابدا . ماذا يقول الناس .. ماذا يقول الجيران ؟ اى قدر من الضرر يصيبها في سمعتها عندما يهمس جيرانها لبعضهم البعض. لقد فتحت نادية بابشقتها امس لشاب .. بعد منتصف الليل ؟ !

وليت الناس يقولون عن نادية هذه الكلمات فقط .

فلكى اجعل انا الامور اسوا بالنسبة لها ، طلبتها في التليفون قبل منتصف الليـل بساعة واحدة وقلت لها : انني لا اعرف الطـريق الى منزلك . لهذا سوف اصحب معى اثنين من اصدقائي .

الان اصبحنا ثلاثة . تصور ؟ ثلاثة رجال يزورون امرأة شابة

في منزلها بعد منتصف الليــل ؟ ومع امراة مثـل نادية .. امراة بمثل هذا الشباب ، مثل هذا الجمال ، مثـل هذا الصوت الرقيق في التليفون .. فلابد ان يتوقع الانسان اعتراضـات كثـيرة من الناس عليها . اعتراضات من الناس .. وهمسات من الجيران.. واشاعات من الاصدقاء .

ان افكارا كهذه كانت تدور في راسي وانا متوجه مع صديقي في السيارة الى منـزل نادية ، ان نادية هي امراة مصرية تعيش وحدها مع طفليها الصغيرين في شقة تستاجرها بضواحي مدينـة مونتريال . امراة في سن التاسعة والعشرين او امراة مصرية تهاجر وحدها الى كندا .

ولم يكن هناك مفر من ان اذهب الى نادية في منزلها في منتصف الليل . فلقد كنت على موعد لمغادرة مونتريال في الصباح الباكر من اليوم التالي .

ولم يكن هناك مفر ايضا من ان اذهب اليها مع صـديقي .. فالطريق من مونتريال الى الضاحية التي تسكن فيها نادية يستغرق ثلاثة ارباع الساعة بالسيارة .. « تطلع على طول .. تدخل شمال .. ترجع لليمين .. بعد الميدان الى الطريق السريع .. من المدخل السادس تتجه يمينا .. ثم يسارا .. ثم » .. لست اعرف شيئا في هذا كله .. خذ يا احمد التليفون لو سمحت ، واعرف هـذا العنوان .. لا مؤاخذة يا نادية .. ان احمد صديقي .. وسوف احضر في سيارته مع صديق ثالث .. »

ولم تستطع نادية أن تقول شيئا . لم تقل نعم ، ولم تقل لا . امر واقع . لقد قالت العنوان لاحمد في التليفون بكلمات مترددة وصوت اقرب الى الندم منه الى الثقة .

ان المراة التي تعيش وحدها لا توافق على زيارة رجال غرباء لها في شقتها في مطلع النهار ، فما بالك بمنتصف الليـل ؟!

ولكن كنت اعلم انني تركت هذه الاخلاقيات المريضة خلفي في مصر . لقد تركتها انا كزائر . ولكن نادية تركتها كمهاجرة .. وهذه بالضبط هي النقطة التي بدأت عندها حياة نادية تلفت نظري .

ان نادية ــ هكذا يحلو الحديث مع فنجان شاي داخل شقتهـا الانيقة في الطابق الثاني من العمارة ــ تتمتع بطول ملحوظ في قوامها وتقاطيع متناسقة في وجهها وشعر طويل على راسها ومسـئولية ثقيلة على اكتافها .

انها من مواليـد الاسكندرية . واحـدة من هؤلاء الفتيـات الجميلات التى كانت المجلات فى مصر تنشر صورها على الغلاف فى اعـداد الصيف . انهـا بحكم رغبتها ـ التحقت بكليـة آداب الاسكندرية . وهى ـ بحكم جمالها ـ تزوجت مبكرا وهى ما تزال فى السنة الثانية . تزوجت فى سنة ١٩٦١ من عضو مجلس ادارة فى شركة اليـوف للاراضى بالاسكندرية وقبل ان تحمـل نادية الليسانس فى يدها سنة ١٩٦٥ كانت قد شعرت بالحمل فى داخلها مرتين ـ فانجبت طفلين : سامى ، وزيزى . هل تستطيع الفتاة ان تكون اما فى تلك السن المبكرة ؟ هـذه الايام ؟ لست ادرى .. ولكن هذا ما حدث فى حالة نادية . فى الواقع ان ما حدث لها بعد ذلك كان اسوأ .. فبعد سنة واحدة من تخرجها توفى زوجها .. توفى سنة ١٩٦٥

انها الآن ارملة. انها ارملة فى سن الخامسةوالعشرين، هذا عمرها يوم مات زوجها . من هنا بالضبط سوف تنقلب حياتها رأسا على عقب . لقد كانت سعيدة مع زوجها ، سعيدة مع اسرتها ، سعيدة مع مجتمعها . ولكن .. مادام زوجها توفى .. وما دام الرجل اختفى من حياتها ، فيجب ان يعود المجتمع الى محاسبتها كامرأة .

ولكنها الان ليست مجرد امراة . انها ارملة . واحدة من هؤلاء السيدات اللائى يتوقع منهن المجتمع اسلوبا خاصا فى الحيـاة ، وطريقة خاصة فى الحديث .. وقيودا خاصة فى التعامل مع الناس

من الآن فصـاعدا اصبحت نادية ارملة • واحـدة من هؤلاء اللائى يراقبهن المجتمع ٢٤ ساعة فى اليـوم •• ويفرض عليهن حصاره ويلزمهن بوصاياه .. ويطلبمنهن طاعته •• ويسحب منهن حق الحياة ٢٤ ساعة فى اليوم •

من الآن ، من هـذه اللحظة •• منذ اصبحت نادية ارملة •• فان المجتمع سوف يحاسبها فى كل يوم مرتين : مرة كامراة ومرة كارملة • انالحياة بالنسبة لها يجب انتقتصر علىاربعة جدران• يجب ان تقتصر علىمجرد الطعام • انها تاكلجيدا ، تلبسجيدا ، وهذا يكفى •• انه يكفى من وجهة نظر المجتمع فى مصر •• لكى تكون المراة مستريحة البال فى سن الخامسـة والعشرين • انهـا نصف حياة ، ربع حياة ، انها ليست حياة على الاطلاق .. ولكن هـذا لا يهم •• ليس من حق المراة فى اى شئ اكثر من العلف الذى يعطيه لهـا المجتمع •• فالمراة هنـا ـ فى مصر ـ يجب ان

تعلم ان مهمتها ٠٠ كل مهمتها في الحياة ـ هي ان تطبخ ٠٠ تغسل ٠٠ تكنس ٠٠ تنظف ٠٠ تلبس ٠٠ ترعى الاولاد ٠٠ وتخشى الله ٠٠ واشاعات الناس ٠ اذا خرجت الى الشارع فالحراس بجانبها ، والرقباء خلفها ، وكلام الناس فى ذيلها ٠ اذا تحدثت مع شخص غريب ٠٠ فالخطيئة هدفها ، والجحيم مصيرها والنار جزاؤها والحبس عقابها ٠٠ ان هذه الوصاية من المجتمع هى شيء تفرضه التقاليد ، شيء يفرضه الناس ، يفرضه القانون ٠

ان نادية أرملة ٠٠ وأم لطفلين ٠٠ ولكن الوصاية على طفليها لابد أن تكون بحكم القانون ٠٠ من حق أهل زوجها أن الاولاد هم أولادها هى ، انها أمهم ، ولكن من قال ان الأم تستطيع أن ترعى أولادها ؟ من قال ان الأم تستطيع أن تهتم بأولادها ؟ ان القانون فى مصر لا يقول ذلك ٠٠ يقول فقط ان أهل الزوج يستطيعون رعاية الاولاد أفضل من أمهم ٠٠ ويقول أيضا ان الأم اذا أرادت أن تسافر الى الخارج ـ مجرد زيارة ـ فلابد أن يوافق أهل الزوج ٠٠ كتابيا وأمام شهود ٠٠ على سفر الاولاد معها ٠٠ القانون ٠٠ قانون ٠ انالقانون يعرف عن الاولاد أكثر مما تعرف أمهم ٠٠ ان الأم مثقفة تخرجت من الجامعة ٠٠ ولكن القانون ليست فيه الجامعة ٠ انها تريد أن تسافر فى الصيف مرة الى لبنان .. ولكن القانون ليس فى لبنان .. القانون فيه فقط : الاسكندرية !!

ان شيئا من هذا القبيل كان يدور فىرأس نادية وهىتستقل الطائرة ٠٠ مع أولادها ـ متجهة الى زيارة قصيرة فى لبنان ٠ زيارة سياحية ٠ ان الاولاد معها فى الطائرة ٠ سامى وزيزى ٠ ولكن هذا لم يحدث الا بعد مفاوضات ومناقشات ومداولات مع أهل الزوج ٠ مداولات انتهت الى تنازل خطير من أهل الزوج : لقد قرروا أن يوافقوا على سفر الاولاد مع أمهم بشرط أن تكون المدة هى ١٥ يوما فقط ٠ مبروك !

ولكن نادية فكرت كثيرا بعد الـ ١٥ يوما ٠ فكرت قبل أن تعود مع أولادها الى الاسكندرية ٠ هل تعود من جديد لكىتصبح أما ٠٠ مع وقف التنفيذ ! هل تعود من جديد الى كلام الناس وهمسات الناس واشاعات الناس ؟ ممكن ٠٠ غير ممكن ٠٠ غيرممكن ٠٠ نعم ٠٠ غير ممكن ٠٠ **القرار** : لا عودة ٠٠ **القرار** : العمل فى الخارج ٠ **القرار** : الهجرة ٠ **القرار** : الهجرة الى كندا !

هكذا بدات نادية تعد اوراقها للهجرة الى كندا • انها تخرجت من قسم اللغة الانجليزية بآداب الاسكندرية • ولابد أنها سوف تجد ـ بشكل ما ـ عملا تعول به طفليها في كندا • لقد استطاعت ان تعمل في لبنان ـ معلمة في مدرسة داخلية ببيروت حتى تستكمل أوراق هجرتها الى كندا • الن تستطيع ذلك في كندا ؟
شيء واحد يحسم الموضوع كله : طائرة الى كندا •
هكذا ذهبت نادية الى كندا • الى مونتريال في كندا • كان اليوم هو ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ ، يوم ثلاثاء • يوم مشرق ، مشمس ، مبشر بالامل •

ان نادية هي ـ فيما اعلم ـ اول امراة تجيء الى هنا طالبة الحرية بدلا من الزواج . انها هنا! . هنا فقط ـ يجب ان تتعلم كيف تعيش بغير زوج . بغير رجل ، بغير كتف تبكي عليها . لا احد هنا يبكي على احد . الناس هنا ـ في كندا تعمل فقط . تعمل او تموت !

وبشعور الامل هذا بدات نادية تبحث عن عمل في مونتريال بكندا • انها تفعل ذلك دون ان تعرف احدا على الاطلاق ، او شيئا على الاطلاق في كندا !

ان اول شيء حدث معها في الايام الاربعة العظيمة الاولى لها في كندا كان ـ لا شيء • لا عمل ! مصيبة •• كارثة •• انها ليست كارثة بالنسبة لها فقط •• ولكن ـ اهم من ذلك جدا ـ انها كارثة بالنسبة لطفليها •• سامي الذي اصبح عمره الآن خمس سنوات ، وزيزي •• ثلاث سنوات •• ان نادية هنا ـ في مونتريال تستطيع ان تحصل على الحرية ولكنها ـ ايضا تستطيع ان تحصل على الجوع • على الفقر • انها ربما تستطيع لأول مرة ان تجوع •• ولكن الاولاد ؟•• الاولاد • انهم هم ثقيل •• عبء •• مسئولية • ان هذه المسئولية هي كل ما يشغل راسها في كل مرة تبحث فيها عن عمل بشركة او مؤسسة في مونتريال•• لقد تحولت مسئولية الاولاد في راسها الى مغص •• نعم •• مغص تشعر به يوميا •• مغص •• وتقلص في الامعاء •• وصراع مستمر •

ولكن نادية تذكرت شيئا هاما • لقد تذكرت ان الاستقلال عن الرجل ـ الاستقلال عن شخص يحمل همومها ـ هو امر يتطلب صمودا وشجاعة • ان المراة لا تصبح شجاعة بمجرد

نصيحة تسمعها من الآخرين • انها تصبح شجاعة ، حرة ، مستقلة ، لانها تريد ان تكون شجاعة ، حرة ، مستقلة •• و •• عندما يصبح الانسان حرا ، مستقلا ، فانه لا يقبل التنازل عن استقلاله ابدا •• لا يمكن •• مستحيل ••

عند هذا الحد فقط بدأت نادية تحس بطاقة جديدة في داخلها • طاقة تدفعها الى عدم اليأس • الى الامل ، الى مواصلة البحث عن عمل .. ان البحث عن عمل هو الان .. عملها . انها تتصرف كما لو كانت تملك عشرة رؤوس وعشرين يدا ، مع انها لا تملك سوى عقل واحد .. عقل امرأة .. ويدين اثنتين ، كل واحدة منهما تمسك بواحد من طفليها .

ولان الله يعلم قوانين الاحوال الشخصية فى مصر •• فقد رزقها بعمل فى خلال اسبوع واحد من وصولها . انها لم تستطع أن تعمل مدرسة ، فالمدارس مغلقة بسبب أجازة الصيف • ولكنها استطاعت أن تعمل سكرتيرة • نعم سكرتيرة بمرتب ٣٧٥ دولارا فى الشهر •• هذه أول ٣٧٥ دولارا — أول دولار واحد — تحصل عليه هنا من عملها هى . انه ليس مبلغا تأخذه من جيب زوجها . ليس نفقه تأخذها بحكم القانون ، ليست اعانة . انه مرتب .. قيمة عمل .. الآن فقط تستطيع نادية أن تقول انها مستقلة •• الآن فقط تستطيع أن تقول انها حرة

ولكن •• مع الحرية يأتى ضيف آخر •• ضيف لابد منه •• مع الحرية تأتى .. المسئولية ان تصبح حرا معناه فى نفس الوقت أن تكون مسئولا •• ان نادية الآن حرة ولكن حريتها تعني ايضا انها اصبحت مسئولة عن نفسها ، وعن اولادها • مسئولة عن الحصول على احترام الناس لها كانسانة ، قبل ان تحصل على اعجابهم كامرأة •

ان شيئا من هذا كان يدور فى راس نادية عندما قدمت طلبات للعمل كمدرسة . الى ان استطاعت بعد ثلاثة شهور أن تصبح فعلا مدرسة .. بسبعة آلاف دولار مرتبا سنويا . انها اذن تعيش فى شقتها الخاصة مع طفليها .. شقة فى احدى تلك العمارات المتناثرة فى شارع « سبرنج جاردن » احدى ضواحي مونتريال « نفس الشقة التى ذهبت اليها فيها مع صديقى المصريين المقيمين بمونتريال » .
ولقد ذهبت الى نادية فقط بعد ان سمعت عنها مايدعونى الى احترامها سمعت ذلك من الاب روفائيل ممثل الكنيسة المصرية فى

مونتريال . وسمعت ذلك ايضا من الناس . انالناس هنا لاينهشون سمعة بعضهم . الناس هنا . ناس .. لا وقت هنـا للثرثرة او الاشاعات أو الهمسـات . وحتى لو ذهبت الى نادية فى شقتها بعد منتصف الليل ، مع رجلين اخرين غريبين ، فان المجتمع لن يلوك سمعتها بالسنته فى الصباح التالى . ان المجتمع هنا يهتم بالمضمون فقط .. والجوهر فقط ، وليس الشكل .

ان سمعة نادية هنا ، فى مونتريال ـ هى مزيج من الاثنين . الشكل والجوهر . انها هنا نموذج لامراة مصرية . امراة عادية . انها عادية عندنا ، ولكنها لم تكن عادية عندهم هنا ابدا مارأوها فى مدرستها . ان زميلاتها المدرسات تعجبن قائلات لها : « **مصرية ؟ .. هل انت مصرية ؟ هل فى مصر نساء يتكلمن الانجليزية هكذا ؟ انك .. حتى تلعبين بينج بونج .. هـل تعرفين فى مصر البينج بونج ؟ .. مش معقول ؟!** »

ولكن نادية فعلت فى مونتريال اشياء كثيرةغير معقولة . او ـ على الاصح ـ اشياء لم تكن تبدو لها معقولة من قبل . انها الآن تستطيع أن تعتمد على نفسـها . وتستطيع ان تأخذ الاولاد فى نزهة يومى السبت والاحد وتستطيع ان تتحدث معك كرجل لرجل ولكنها لاتستطيع القدوم الى مصر فى زيارة ! نعم لاتستطيع .. لأنه لابد لها ـ هكذا تعتقـد ـ ان تأخذ موافقة كتابية على صحبة اولادها عند خروجها من مصر عائدة الى كندا . نعم لاتستطيع .. فالقوانين فى مصر لاتصبح قوانين الا عندما تتعلق بالمراة . قبل ان يتعلق القانون بالمراة . يمكن ان يتحـول الى اى شىء .. ولكن مع المراة فقط . يصبح القانون .. قانونا .. انه قانون لايعرف فى كندا ، ولا مونتريال بكندا . قانون لايرحم .. وناس لاترحم

ـ« .. ارجوك .. لا داعى لان تكتب عنى فى مصر .. لن يصدق الناس . انهم يصدقون الاشياء السيئة فقط » !!

وقلت لنادية : « ان الناس لم تقل عنك شيئا سيئا فى كندا . هل يفعل الناس ذلك فى مصر ؟! »

فى الواقع انى لم اكن اوجه السؤال لنادية ، ولكنى كنت اوجهه لنفسى .. فعنـدما تذكرت فقط انى ارتكبت جريمة . تذكرت انى اصطحبت معى رجلين غريبين ، وانا جميعا زرنا نادية فى شقتها بعد منتصف الليل ، واننى فوق هذا كله تكلمت عنها باعتبارها نادية .. فقط .. نادية .. ثم نقطة بعد ذلك !

ولكن . .

بعض الناس تستطيع ان تناديهم فورا باسمهم الاول . ان نادية واحدة منهم . . انها واحدة من هؤلاء الذين تنجذب اليهم بسرعة . ليس لانك تعرفهم من قبل . . ولكن لانك تحترمهم انك تحترمهم من قلبك . . بحيث يصبح لديك ـ مثلي ـ حب استطلاع . انك تعود اليهم مرة ومرة لكي تدرسهم . وكلما درستهم اكثر ، نشأ في داخلي شعور بالتعاطف معهم . شعور كان غائبا عني في البداية ولكنه استمر معي حتى اللحظة الاخيرة . حتى الثانية صباحا . . عندما خرجت من شقة نادية مودعا لها في هــــدوء . . حتى لايستيقظ طفلاها من نومهما .

هكذا عدت الى السيارة مع صديقي المصريين اللذين صحبتهما معي . . عدنا الى السيارة لنبحث من جديد عن طريق عودتنا الى مونتريال : الى الامام حتى الطريق الرئيسي ـ ثم يسارا ، ثم اتجه يمينا من المدخل السادس . . الى الطريق السريع حتى الميدان . . ثم يمينـــا . . فامام . . فيسارا الى . . الى . . الى اين ؟! هكذا بدأنا نتشاور . . أنا وصديقاي اللذان يحيطان بي كساندويتش داخل السيارة ساندويتش من الازواج ، فاكرام واحمد كلاهما متزوج . . انهما اثنان من المصريين المهاجرين الناجحين المقيمين في مدينة مونتريال . اكرام ، سمسار في البورصة . . واحمد مدرس ثانوي .

وفي لحظة واحدة اتفقنا جميعا : نذهب الى بيت اكرام . .

اتفقنا على ذلك ، لان هناك مهمة عاجلة تنتظرنا في بيت اكرام . . مهمة عاجلة جدا وضرورية جدا . . سماع اسطوانات **ام كلثوم** ! ان اسطوانات ام كلثوم موجودة في اماكن مصرية كثيرة في مونتريال . ولكن اهمها بالنسبة لي مكانان اثنان ؟ أحد المطاعم المملوكة للعرب . ولكنه مطعم مغلق بعد منتصف الليل ، والمكان الثاني هو منزل صديقي اكرام . . ان اكرام سمسار صباحا . . ومستمع لام كلثوم ليلا . . هذه وظيفته . .

انني سوف انسى اشياء كثيرة قبل ان انسى لقاءنا كل ليلة في المطعم العربي ، ولقاءنا تلك الليلة في منزل اكرام . ان شقة اكرام صغيرة . . ولكنها كانت في تلك الليلة كبيرة جدا بالنسبة لنا ، لان اكرام يمتلك عدة شرائط سجل عليهــا احدث اغاني ام كلثوم . (احدث هنا تساوي عشر سنوات مضت ؟)

لقد وصلنا الى شقة اكرام ، احمد وأنا . . ثم . . بدانا . . كما يحدث دائما فى المطعم العربي ، بدانا نستمع الى صوت ام كلثوم . شيء واحد اجمعنا عليه : ان بلادنا كلها تعيش فى هذا الصوت . نيل مصر ، جبال لبنان ، تلال الاردن ، لهيب الجزائر ، سحر المغرب حضارة بغداد ، وتاريخ القاهرة ،عمق المحيط ، صفاء ، السماء اتساع الصحراء . .

واحيانا كان هذا كله يختفى عندما يتعطل جهاز التسجيل . لحظتها يسكت هذا كله . يتحول الى صدى . ذكرى . امل . والى ان ينجح احدنا فى اصلاح الجهاز . . فان كل لحظة كانت تزن فوقنا كجبل . . ثم . . يعود الصوت . تعود بلادي ، بلاده . . بلادها ، بلادنا . . .

« ارجوك . . » هكذا يقول لى اكرام واحمد فى لحظة واحدة . « ارجوك . . ان تكتب عن املنا هذا . لقد لمست بنفسك فى زياراتك لاعضاء الجالية العربية هنا : **ان ام كلثوم بالنسبة لنا ليست مجرد مطربة تغنى . . انها قطعة من بلادنا . انها رمز لبلادنا اننا نرجوك ، لو رأيت ام كلثوم . . ان تنقل اليها رجاءنا بان تقيم لنا حفلة هنا . . اننا ٨١ الف مغترب . . ولكن حفلة واحدة لام كلثوم هى تحقيق لـ ٨١ الف امنية ـ ٨١ الف امل . ان ام كلثوم بالنسبة لنا ليست قضية غنائية . . انها قضية وطنية . . »**

ان الوطنية هى التى دفعت احمد البطريق ـ صديقى الجالس معنا الآن ـ الى الدخول مرة فى معركة بالايدى هنا ـ فى مونتريال مع حفنة من اليهود الصهيونيين المتعصبين . بالمناسبة : فى كندا ربع مليون يهودى .

ان المعركة التى خاضها احمد كانت مع ١٢ يهوديا صهيونيا . معركة كانت فيها اصابات ونزيف ودماء وبوليس و . . . و . . . ولكن احمد لم يفعل ذلك الا بعد وصوله الى كندا بثلاث سنوات . . نعم . . ثلاث سنوات . .

قبل هذه السنوات الثلاث كان احمد موظفا بشركة السكر بالحوامدية فى الصعيد . مجرد موظف . انه رئيس لاحدى ورديات انتاج السكر فى الشركة . . ولكنه موظف . . هذا ماكان احمد يحلم به على أى حال . . طوال دراسته بمدرسة الليسيه فى مصر الجديدة ومعهد السالزيات الايطالى فى القاهرة . كان احمد يريد الوظيفة لان عقله كان مع شيء آخر . . مع لعبة كرة اليد . انها هوايته . هواية اصبح فيها لاعبا دوليا يمثل بها مصر فى بطولة البحر الابيض

المتوسط وفى الدورة العالمية بموسكو وفى كل منتخب مصرى دولى يسافر الى الخارج .

ولكن الرياضة لاتستطيع ان تكمل لاحمد النقص فى مرتبه . . ان مرتبه فى شركة السكر وصل الى ٢٢ جنيها . هذا هو الرقم الذى تزوج عنده احمد فى بداية سنة ١٩٦٤ . الآن اصبح زوجا ، اصبح عليه ان يتأكد كل يوم من ان النقود مازال فى جيبه . عندما كان أحمد أعزب لم تكن المسألة تهم كثيرا . انه يأكل وينام مجانا عند والدته و « .. برضه لما الحكاية تزنق قوى الواحد يأخذ من ماما اسعافات مالية » .. اسعافات لاترد طبعا .

ولكن هذا لايحدث حينما يكون الانسان زوجا .. حينما تصبح زوجا ، تصبح رب اسرة تصبح مسئولا فلابد ان تشغلك كثيرا مسألة المرتب . انها تشغلك ٣٢ يوما كل شهر و ٢٥ ساعة كل يوم .. ولان أحمد هو مجرد موظف ، فالمرتب محسوب مقدما محسوب لمدة سنة قادمة، عشرسنوات قادمة، عشرين سنة قادمة .. !

ثم . . فكر احمد فى الهجرة .. عندما فكر فى الهجرة الى كندا كانت المسألة فى راسه بمثل هذه البساطة « .. الواحد يروح يعمل قرشين ويرجع ثانى بعد كام سنة » .

كانت هذه هى الفكرة التى تحتل راس احمد . رغم أنه وصل بخمسة عشر دولارا فقط فى جيبه ، الى مونتريال يوم ١٤ مايوسنة ١٩٦٤ .. لقد وصل وهو لايملك سوى اللغة الفرنسية التى يجيدها بسبب دراسته ، وخبرته فى شركة السكر ،وال ١٥ دولارا التى يحملها فى جيبه .. انه لم يخرج من مصر ب ١٥ دولارا . فى الواقع انه خرج بمائتى دلاور .. ولكن مثلما يحدث دائما مع كل مهاجر .. لم يستطع أحمد ان يحتفظ بالمائتى دولار فى جيبه حتى يصل الى كندا .. عندما توقفت الطائرة فى بلجيكا نزل أحمد هناك ليقضى اسبوعين كسائح . اسبوعين لم يبق معه بعدهما سوى الخمسة عشر دولارا كيف يفعل ذلك ؟ كيف يجرؤ على ذلك ؟ هل يفعل احد ذلك ؟ نعم . المصريون يفعلون !! ان هذا عمل جنونى بالنسبة لشخص مهاجر .. شخص مازال امامه مستقبل مجهول لم يواجهه بعد .. شخص لابد ان .. ان .. ولكن مافائدة ذلك الآن ان مافات مات ! هذا ماحدث مع احمد على اى حال !

ان ماحدث مع احمد بعد ذلك شبيه فى قصة سابقة بطلها مصطفى عزام (تتذكره) ؟ .. ولكن الفارق هنا بسيط : ان أحمد استطاع بمساعدة ادارة الهجرة فى مونتريال . . ان يجد عملا بعد ثلاثة ايام

فقط من وصوله .. مسالة شـاذة لاتحدث الا نادرا ، ولكنها .. حدثت . .

الآن اصبح احمد موظفا .. انضمن جديد رئيس وردية، ولكن في ادارة كهرباء كويبك انها ادارةحكومية .. والمرتب فيها ..٧١ دولار في السنة . ولكن .. لكن .. احمـد يريد ان يعمل مدرسا . بالذات .. مدرس ! .. لماذا يا احمد تصر على التدريس بالذات انه وظيفة متعبة .. ؟

« نعم .. متعبة .. ولكنها مضمونة .. فيها استقرار ، وفيها امن . عندماتصبح مدرسا فانت تصبح فعلا موظفحكومة . مرتبك غير قابل للخصم وانت غير قابل للفصل و .. انت تفهم طبعا » !!

نعم .. انا افهم .. الم اقل من قبل ان المصرى قد يطوف العالم كله ، قد يغيرعمله ومستقبله ، قد يسافر ، يهاجر . ولكنه فيالنهاية يريدان يكون موظفا !! اناحمد حصل على وظيفة التدريس بعد سنة ونصف من عمله في ادارة الكهرباء . عنـدما بداها اصبح مرتبه ..٦٩ دولار في السنة ، مرتب اقل منمرتبه فيادارة الكهرباء .. ولكن هذا لايهم .. ان المهم فقط هو انها وظيفـة حكومية .. وظيفة فيادارة المدارسالحكومية بمونتريال .. وظيفة تسمح لاحمد باعطاء ١٨ حصة فقط في الاسبوع .. وثلاثة اشهر اجازة صغيرة كل سنة .

عند هذا الحد فقط ، بعد هذا الضمان فقط ، يستطيع أحمد أن يحس الاستقرار بالطمانينة ، عند هذا الحد يستطيع أن يستدعى زوجته التى تركها خلفه في القاهرة .

ان ماتوقعه احمد انيحدث معه ، ولم يحدث ، حدث معزوجته . لقد وصلت الى مونتريال . شهر . شهران .. ستة اشهر .. سنة و .. لا عمل ! انه هو الذى لايريدها أن تعمل . يكفى انيعمل هو . ولكن .. ان الزوجة . ترى كل من حولها يعمل ، لا أحـد حولها .. لازوجة .. ولا أم ولا فتاة .. تبقى في المنزل طوالاليوم في انتظار زوجها .. ان الحياة هنا تصبح كومة هائلة منالملل عندما يكون هنـاك عمل ! . الطبيخ ليس عمـلا ، الكنس ليس عملا ، الغسيل ليس عملا ، تنظيف البيت ليس عملا .. انها جميعا اعمال تنجزها الالات في ساعة واحدة .. ماذا تفعل الزوجة الآن فيال ٢٣ ساعة الباقية كل يوم ؟! لابد من عمل .. لابد من عمل ..

هكذا وافق احمد أخيرا على ان تعمل زوجتـه .. من الاسبوع التالي مباشرة كانت الزوجة تعملمضيفة في فندق هيلتونمونتريال، اربعة آلاف دولار مرتب في السنة .

نعم .. بدا المجتمع هنا يفرض طابعه على الزوجين .. لا احد هنا يتوقف ابدا على ماهو عليه . لابد ان تتعلم كل يوم شيئا جديدا ، تكسب مهارة جديدة . تحصل على خبرة جديدة هكذا التحقت الزوجه لمدة تسعةاشهر ببرنامج علاجي للامراض الجلدية والتحق الزوج ببرنامج تدريبي في التربية البدنية بجامعة مونتريال للحصول على شهادة تعادل البكالوريوس . النتيجة تغيرت الزوجة عملها لتصبح معالجة في مستشفى « جريجورى » بمونتريال . زاد المرتب الى ٥١٠٠ دولار في السنة .

النتيجـــة الثانية : زاد مرتب احمد في المدرسة الى ٧٩٠٠ دولار في السنة .

النتيجة الثالثة : حصل احمد على عمل اضافي بالمعرض الدولي في مونتريال . عمل يقوم به في غير وقت عمله الصباحي كمدرس . لقد عمل مشرفا على اجنحة عديدة . اجنحة من بينها : جناح بورما ، تايلاند ، الجزائر ، المغرب ، وجناح الجمهورية العربية المتحدة .

المرتب : ١١ الف دولار في السنة .

ثم .. عندهذه النقطة تذكر احمد شيئا هاما . تذكر انني صامت خلال الدقائق الخمس الاخيرة .

ـ لماذا انت صامت ؟

هكذا سالني . ولكن لم استطع ان اجيب على السؤال . قطعا كان هناك شيء ما يشغلني عن الكلام . لم يكن مرتب احمد وزوجته هو ماشغلني . مرتب يدمل في مجموعة الى ٢٤ الف دولار في السنة . ولم تكن النتيجة التي حققها احمد وزوجته هي التي شغلتني . نتيجة تستحق التقدير .

ان ماشغلني قبل هذا كله كان شخصية احمد نفسه وهو يتكلم انه يتكلم ، ويتكلم وجهه البريء .. وشعره القصير .. وحاجباه الكثيفان .. ونظارته الطبية .. وجسمه الممتليء .. انه جسم مصارع اكثر منه جسم مدرس . داخل هذا الجسم ؛ تحت هذا تستطيع ان تكتشف في احمد انسانا آخر . انسانا طيبا . انسانا صريح الكلمات ، صافي القلب ، امين التعبير الى درجة مدهشة ، انه مصرى . بالضبط ـ فلاح مصرى . ليس هذا ذما . هـــذا منتهى المدح . فمع ان احمد ـ من مواليد محافظة الشرقية بالذات من الابراهيمية في الشرقية ، الا انه تعبير حي عن الشخصية المصرية التقليدية التي تقابلها في الطريق كل يوم . انه بسيط ، ســاخن الدماء ، بوجهه طفل فوق جسم شاب وعقل عجوز .

انه يقول لى : « تعرف انا تعبت هنا فى البداية من ايه ؟ كل واحد فى حاله .. فى مصر كنا غير كده . كنا شلة اصدقاء كأننا اخوات .. اللى فى جيبى فى جيبك . هنا مفيش كده . الصداقة هنا هى مجرد زمالة .

« .. انا اول عمارة سكنت فيها لم اسمع جارا يقول لى عندما اقابله . صباح الخير ، تسعة شهور مضت قبل أن اسمع هاتين الكلمتين : صباح الخير ..

« .. انا يا اخى مش عارف ليه احنا وقفنا الاشتراك فى المعرض الدولى بمونتريال جناحنا كان شىء يفرح .. الواحد كان يحس بالفخر كلما دخل راى صورة عبدالناصر فى المدخل .. بينى وبينك ، انا اتعمدت اعلقها فى مدخل الجناح علشان نغيظ اليهود .. دلوقت مفيش جناح .. طيب ياناس ؟ الصورة ؟ احنا عاوزين الصورة ..

« تعرف .. ؟ اليهود هاجمونا فى الجناح المصرى مرة فى شهر يونيو سنة ١٩٦٧ . كان رابع يوم الحرب .. الساعة كانت سبعة مساء . وفجأة ١٢ واحد دخلوا يهاجمونا فى الجناح . كنا ثلاثة . صديق مدرس مغربى اسمه على حسين ، وصديق ثان وانا .. اول مادخلوا بداوا يكسروا فى الجناح و .. نزلوا فينا ضرب .. لكن .. مع مين ياأخ ؟ وشرفك .. كلها ثلث ساعة كنا مشرحينهم ! ولماوصل البوليس شافهم مليانين جروح ونزيف والارض كلها دم .. دمهم طبعا

« .. انا صحيح اخذت الان الجنسية الكندية ، ولكن ما زلت مصريا ... »

هكذابدا احمد حديثه عن شلة الاصدقاء ، وانتهى به الى الجنسية الكندية ؛ جنسية حصل عليها بعد خمس سنوات من عمله فى كندا ،

والواقع انه لم تكن هناك جنسية كندية منذ حوالى ربع قرن مضى .. فقبل ان تصدر كندا قانون الجنسية فى اول سنة ١٩٤٧ ، لم تكن كلمة « كندى » تعنى شيئا محددا ، او واضحا . فى البداية كان المواطن الكندى يعتبر فى حكم الرعايا البريطانيين ، واحيانا لم يكن يعتبر كذلك .

ولكن ، منذ سنة ١٩٤٧ — اصبح الشخص الكندى « هو الشخص الذى يولد فى كندا ، او يولد فى الخارج لاب كندى ، او يتجنس بالجنسية الكندية . لكى تحصل على الجنسية الكندية ، لابد ان تقيم فى كندا خمس سنوات على الاقل ، بشرط أن تكون مقيما فى كندا بصفة دائمة فى السنة الاخيرة .

ان هذا الوقت الذى استغرقه تنظيم الجنسية الكندية كان فى الواقع رمزا لمشكلة « تحقيق الشخصية » التى عاشتها كندا حتى

فترة قريبة فقط • فالدولة ـ اى دولة ـ لا يمكن أن تستحق هذه التسمية لمجرد أنها تجمع عددا من الافراد يعيشون داخل حدود سياسية • ان الشعور بالانتماء لجنسية دولة معينة ، ليس مجرد مفهوم قانونى • ان سكان الدولة يجب أن يكون لديهم شعور مشترك ، شعور بصفتهم المشتركة .. وتجربة تاريخية يحسون انها تجربتهم •• انهم يجب بكلمات اخرى ـ أن يكون لديهم تصور جماعى يفسرون بماضيهم ويشكلون مستقبلهم .. اذا لم يوجد هذا الشعور فان الدولة تظل غير قائمة على أسس ثابتة راسخة •

ان هذه الاسس الثابتة الراسخة لم يبدأ توافرها فى المجتمع الكندى الا قريبا فقط .. بسبب العوامل المتصارعة التى احاطت ـ وما زالت تحيط ـ بالمجتمع الكندى .

ان عضوية كندا الطويلة فى الامبراطورية البريطانية •• ان قربها من الولايات المتحدة، ان الانتقال الدائم للناس والافكار عبر الحدود •• ان التبعية الاقتصادية ـ لبريطانيا اولا ثم لأمريكا ـ ان تنوعها الثقافى الداخلى •• ان حجمها الجغرافى الواسع والمتنوع •• كل هذا ادى فى النهاية الى تأخر ظهور ما يمكن أن تسميه بـ « الشخصية الكندية » أو حتى « الجنسية الكندية » .. ان الثقافتين الرئيسيتين اللتين تتصارعان داخل المجتمع الكندى لا تشتركان حتى فى لغة واحدة احداهما فرنسية والاخرى انجليزية •• ان أحسن جامعة فى كندا ـ جامعة ماكجيل ـ تقدم لك العلوم بأفكار كندية وخبرات دولية وأموال أمريكية • بل انه حتى الطعام الكندى .. هو عبارة عن مجموعة من أطعمة لجاليات وأذواق تجمعت فى كندا •• هناك الطعام الفرنسى ، الصينى ، الهندى ، الايطالى ، الاسبانى ، و •• الهامبيرجر •• ان المهم أن كندا تقدم لك المادة الخام التى تريد أن تطبخ منها اى شيء ، انها تقدم لك الخوخ والفلفل والطيور والملوخية والبامية و ١٥٠ نوعا مختلفا من الاسماك !

لهذا السبب بالذات فان المطاعم فى المدن الكبرى بكندا هى محل مربح للغاية .. ومع ذلك .. فاننى لم اجد فى كندا سوى مصرى واحد صاحب مطعم .. انه مواطن مصرى هاجر الى كندا سنة ١٩٦٤ •• بالتحديد فى شهر أغسطس • اسمه جورج سعد •• ان كل ما حمله جورج من مصر هو ١٣٥ دولارا أمريكيا و٣٦٤ فرنكا سويسريا و٥٥٠ ماركا المانيا (مجموع هذا كله لا يزيد عن مائة وخمسين جنيها مصريا) •

. ويبدأ جورج حياته بافتتاح مطعم في مونتريال . في خلال سنة باع مطعمه بعشرة آلاف دولار .. ثم قام بتاسيس مطعم آخر اسمه « علي بابا » يساوى الآن عشرين الف دولار . ان جورج يقدم فى هذا المطعم ــ مع مصرية اخرى اسمها انفوريا ــ اى ماكولات مصرية تريدها . فول مدمس ، فلافل ، كشرى ، بصارة ، ملوخية ، بامية .. الخ . بعضها عبارة عن معلبات مستوردة من مصر ــ وبعضها خضراوات مزروعة في كندا ، وفى بعض الاحيان يقدم لك جورج كبيبة شامية ، او هامبيرجر انجليزى او سجق امريكى ، او اسماكا كندية !

من أحد أنواع هذه الاسماك صنع لنا مضيفنا الليلة ــ صديقى اكرام عبد الحميد ــ وجبة خفيفة .. فى الواقع لم يكن اكرام هو الذى أعد الوجبة .. فالانسان فى سن الـ ٣٧ لا يستطيع أن يطبخ لنفسه شيئا .. ولكن اعدتها زوجته وقسمتها والدته التى تعيش معهما .

ان اكرام ــ وزوجته المهذبة ــ يستطيع ان ياكل اى شىء بشرط أن يسمع أم كلثوم أولا . اننا الآن ناكل وجبة سمك .. على صوت تسجيلات **أم كلثوم** .. ديكور .. لزوم القعدة .. لزوم البقاء باجسامنا فى كندا والانتقال بعقولنا الى مصر ..

لقد كنت دائما أرى اكرام ياكل لحوما ويسمع « **انت الحب** » . ياكل فول مدمس ويسمع « **الف ليلة وليلة** » . ياكل بصارة ويسمع « **انت عمرى** » .. ياكل طعمية ويسمع « **اسال روحك** » ياكل خوخ ويسمع « **الاطلال** » .. ياكل بطيخ ويسمع « **مرت الايام** » ..

ان التسجيلات الحديثة لاغانى أم كلثوم لم تصل الا منذ يومين اثنين فقط .. لقد وصلته مع صديق له يعمل فى مؤسسة الطيران العربية .. ان اكرام نفسه كان يعمل من قبل فى الطيران العربية .. اكرام كان طيارا .. ومع ذلك فان أول عمل بدأ به حياته فى كندا منذ خمس سنوات هو مخزنجى .. نعم مخزنجى .. مجرد امين مخازن فى شركة للاسطوانات . ان اجره كان سبعين دولارا فى الاسبوع (وهو أجر متواضع جدا بمقاييس الاجور فى كندا) .. بعد شهرين اصبح رئيسا للمخزن .. شهرين آخرين .. ثم عمل كبائع فى محل لبيع الموبليات . برنامج تدريبى لمدة ستة اشهر فى الازياء ثم انتقل اكرام الى العمل مديرا لقسم الازياء الحريمى فى محل آخر .. هل تعلم ماذا يعمل اكرام الآن ؟

سمسارا .. انه يعمل سمسارا في بورصة مونتريال .. وعندما ذهبت اليه في المرة الثانية كنت اريد ان اتأكد بعد انه ما زال سمسارا ولم يصبح عالما في الذرة مثلا !!

لقد تضاعف دخل اكرام مرات عديدة بعد عمله الجديد كسمسار ولكن الواقع أن تغيير العمل في كندا هو امر ضروري · فالمجتمع يقنعك هنا بأن الهدوء بديل عن الموت ، وان الحركة هي دليل الحياة ·· ان الحركة تعني أشياء كثيرة ، ولكن أهمها أن تتحرك دائما نحو خبرة جديدة ، أو عمل جديد ، ومسئولية جديدة ·· وفي كل مرة لابد لك من أن تحصل على برنامج تدريبي ·· ليس فقط لكي تترقى في عملك الحالي .. وانما لكي تنقل الى عمل آخر مختلف. ان المجتمع يقول لك ان الاعمال التي تعطيك دخلا أكبر هي تلك التي تتطلب منك تعليما أكثر وتدريبا أطول ويقظة دائمة ·

ان اكرام لم يكن يستطيع البقاء في عمله — سمسارا — الا اذا جلس على مكتبه في البورصة بعشرين عينا مفتوحة .. لا بعينين اثنتين فقط .. ان البورصة معناها الاسهم : معناها المضاربة معناها التجارة ، معناها الدقة ، معناها السرعة · ان لحظة واحدة قد تعني عشرين الف دولار خسارة او مكسبا لزبونة .. ان تحليل الاخبار الاقتصادية في الصحف كل صباح قد يعني فرصة ضخمة يلتقطها ، أو كارثة محققة تصيب استثماراته ، التي هي في النهاية ، استثمارات من يتعاملون معه ·

ولان الناس دائما يتأثرون في حياتهم العادية بمهمتهم التي قضوا فيها يومهم في المناقشة مع اكرام هي دائما مناقشة سريعة متلاحقة مفككة ·· بكلمة واحدة تتكلم في الاقتصاد ·· وبكلمة واحدة أخرى تتكلم في الهبوط على القمر · ان الطبيخ مثلا هو بالنسبة لاكرام اما ناقص بنط او زائد بنط .. والصوت عنده عالي نقطة ، أو ناقص نقطة · والمناقشة عنده هي دائما كلمة تقولها فتكسب جدا ، أو جملة تنساها فتخسر تماما ·· والسهرة عند اكرام هي واحد زائد واحد يساوي عشرة يتكلمون في وقت واحد و ·· يا خبر أبيض !!

تعرف الساعة كام يا اكرام ؟ الساعة كام يا أحمد ؟!

— ايه يعني ·· احنا لسه بدري ·· الساعة اربعة صباحا يا اخي !!

انت مش رايح بأتوبيس السادسة صباحا الى شيربورج ؟ خليك بقى صاحي الساعتين دول ! !

الفصل الخامس :

صبى بقال .. بالدكتوراه !



هل سمعت عن استاذ جامعة يعمل .. صبى بقال ؟! لا يوجد خطأ : استاذ جامعة .. يتحول الى صبى بقال ! استاذ جامعة ، بشهادة ابتدائية .. واعدادية .. وثانوية .. وبكالوريوس .. ودكتوراه .. و ٢٩ سنة عمرا .. يعمل صبى بقال !

« أمر ده اللى موجود .. عاجبك والا لا ؟ » .. عاجبنى طبعا هكذا قال أستاذ الجامعة المصرى لنفسه عندماهاجر الى كندا . لابد أن يعجبه أن يعمل صبى بقال . لابد من ذلك والا .. مافائدة الدكتوراه التى يحملها معه اذن ؟ ان الدكتوراه أصبحت ـ فجأة ـ بلا قيمة . الدكتوراه فى يده لم يعد لها قيمة على الاطلاق ، سوى أن تقنعه بالا يدق راسه فى الحائط ! الذين لا يحملون الدكتوراه

هم فقط الذين يدقون رءوسهم فى الحائط ، اما أصحاب الدكتوراه فانهم لا يفعلون !! فائدة معقولة بعد ٢٩ سنة ضاعت من العمر فى الدراسة !

لم تكن المشكلة فى الدكتور المصرى أستاذ الجامعة • ولم تكن المشكلة فى المجتمع الذى هاجر اليه بكندا • ان كندا بلد كبير واسع بفرص كبيرة واسعة • وفى كندا ليس من المهم من أنت ، ولكن المهم فقط هو : ماذا تعمل •

ان كندا تحتاج الى عمال • وتحتاج الى اساتذة جامعة • ولكنها قبل هذا كله تحتاج أولا الى شخص مستعد أن يضع عقله فى عمله ، وقلبه فى جيبه • حينما تكون من هذا النوع ، فان المجتمع يعطيك كل شىء : الدفء ، الفرصة ، العمل ، النقود ، الامل فى حياة أحسن • ان المجتمع يعطيك الفرصة فى أن تبدأ من جديد دائما • أنت تشق طريقك بكفاءتك وأصابعك العشر •

ولم تكن المشكلة اذن فى المجتمع الكندى نفسه •• ولا كانت المشكلة فى الدكتور المصرى استاذ الجامعة • كانت المشكلة هى ان السوق — فى اللحظة التى هاجر هو فيها الى كندا — لا يحتاج الى مؤهله . انه يحمل الدكتوراه فى وراثة الحيوان من جامعة عين شمس بالقاهرة • لقد ظل اربعة اشهر يحاول أن يعمل بهذه الدكتوراه فى مجالين اثنين فقط بكندا : الزراعة ، او تربية الحيوان •

ان الزراعة او تربية الحيوان فى كندا ليست فى حاجة الى شخص يحمل دكتوراه • كل واحد عنده مزرعة وانتهى الامر • ماذا يفعلون بالدكتوراه فى •• الحيوان ؟ ان القمح سوف يصبح قمحا • من غير دكتوراه • ان البقرة سوف تصبح بقرة • من غير دكتوراه • ان على المهاجر المصرى اذن — هذا المهاجر بالذات — ان ينسى فورا حكاية الدكتوراه هذه ، ويبدأ فى البحث عن عمل آخر مؤقتا • عمل •• اى عمل والسلام !

وهذا بالضبط ما جعل الاستاذ المصرى يتحول الى شخص عملى جدا ، عندما التحق بمحل بقالة •• يعمل صبيا فيه • انه يبيع لك البطاطس على انها بطاطس ، وليس على انها مجموعة نشويات •

انه يبيع لك زجاجة اللبن باعتبارها لبنا •• وليس باعتبارها مجموعة فيتامينات •

انك لا تعرف هذا الرجل ، ولا انا أيضا كنت أعرفه •• الى أن سمعت عنه ، قابلته ، جلست معه ناقشته •• ذات ليلة من ليالى مدينة شيربروج فى كندا •

ان شيربروج مدينة صغيرة جميلة هادئة .. بجو ممطر قليلا وشوارع نظيفه غالبا . من أحد هـذه الشوارع صحبني صديقي الدكتور مصطفى الهـلال الى منزله . انه هو نفسـه . الدكتور الهلال ـ أستاذ جامعة مصرى مقيم في شيربورج ، ومنزله الهادىء يطل من الدور الثاني على أحد تلك الشوارع الملونة .. منزل انيق يتكون من مطبخ وأربع حجرات و .. صـالة . في هذه الصالة جلسنا جميعا . خمسة من الضيوف .. كلهم مصريون .. معظمهم أساتذة جامعات ـ والدكتور مصطفى .. ووالده الزائر .. و ـ أنا

كنا على موعد لكى نتناقش . لم يكن واضحا بالضبط في أى شىء سوف نتناقش ـ ولكن الشىء المتفق عليه فقط هو أننا سوف نجلس معا .. ونتفق أو نختلف معا . المهم والسلام .. أن نقضى المساء معا .

لقد كانوا في الواقع مجموعة من المثقفين المصريين .. ان الجلسة اتسعت بعد دقائق قليلة عندما انضم اليها ضيوف جدد . وخلال ربع ساعة فقط . أصبحنا نضم طالب الدراسة وطالب الزواج ، وطالب العمل وطالب قصص العمل ان الشخص الاخير هو أنا بالطبع

وكان الدكتور محمـد فهمى ـ أحـد الضيوف ـ هو الشخص قبل الاول أحسن من الاول !

ان الدكتور فهمى هو المهاجر المصرى ـ صـاحب الدكتوراه ـ الذى عمل صبيا في محل بقالة ان هـذا العمل كان بالطبع آخر شىء يتصوره عنـدما حصـل على الدكتوراه في وراثة الحيوان من جامعة عين شمس بالقاهرة . ان الدكتوراه في مصر شىء هام جدا يسعى اليه الناس لكى يضعوا تلك الكلمة السحرية قبل أسمائهم ـ كلمـة « دكتـور » ! انهم حتى من غير دكتوراه ـ ينتحلون الدكتوراه لأنفسهم في كثير من الاحيان !

المهم .. ان محمد فهمى كان واحدا من الذين تمنوا طول عمرهم ان يحصلوا على الدكتوراه . كان هذا منتهى أمله عندما حصل منذ عشر سـنوات على البـكالوريوس من كليـة زراعة عين شمس . البكالوريوس ، ثم الماجستير ، ثم ـ أخيرا ـ الدكتوراه .

وعندما فكر محمـد ـ الآن الدكتور محمـد ـ في الهجرة كان آخر مكان عمل به في مصر هو معهد أبحاث الصحراء. لقد هاجر الى كندا بالذات ـ لا لسبب سوى أن أخته سبقته للعمل هنـاك سـكرتيرة في احـدى الشركات . هاجر بلا عقد عمل ، ولا وعد

بعمل ، ولا شيء مطلقا سوى شهادة الدكتوراه التي ترجمها في مصر ـ ترجم الشهادة ـ الى الانجليزية بسبعة جنيهات !

انأول شيء فعله الدكتور محمد بعد وصوله الىكندا هو ارسال صورة منشهادة الدكتوراه ـ معملخصبخبرته واعماله السابقة ـ الى وزارات الزراعة في جميع مقاطعات كندا العشر ٠ انه ـ أليس هذا حقه ؟ ـ يريد عملا في واحد من الميدانين اللذين تخصص فيهما : الزراعة ٠٠ او تربية الحيوان ٠ انالدكتوراه التي يحملها هي في وراثة الحيوان ، ولكن لا يهم ٠

ثم شهر ، شهران ، اربعة أشهر ٠٠ ولم يصل رد ٠ ولا رد ٠ لم يصل اليه رد واحد ايجابي من الجهات التي أرسلاليها طلباته بالبريد ، أو التي ذهب اليها بنفسه ٠ لا أحد هنا يحتاج الى الدكتوراه التي يحملها محمد ٠ لا أحد يحتاجها ـ فيالوقت الذي وصل هو فيه على الاقل ٠٠ وبعدين ؟ لابد من التصرف ٠

ولكن التصرف لا يمكن أن يتم مادام محمد يتمسك بمسالة الدكتوراه هذه ٠ هكذا نصحه بعض الاصدقاء المجدين فيكندا ٠ ولم يكن الدكتور محمد ينظر الى هذه النصيحة ٠ لقد اتفق مع نفسه على أن المشكلة المبدئية هيأولا كيف يضع قدمه فيمكان ما داخل هذا المجتمع الجديد الغريب عليه ٠

عند هذا الحد ـ هذا الحد فقط ـ تذكر أنه درس الاحصاء ـ ضمن المواد الكثيرة التي درسها ـ وأنهم هنا ربما يحتاجون اليه في عمل احصائي ٠٠ أكثر من حاجتهم اليه في تربية الحيوان ٠ وبسرعة ٠٠ بدأ الدكتور محمد ـ **الآن محمد فقط** ـ يبحث عن عمل كخبير احصاء ٠ وبسرعة ٠٠ جاءه العمل المطلوب ٠ وظيفة حكومية ٠ وظيفة كلمهمته فيها دراسة المعدل الاحصائيللحوادث التي تتسبب فيها الآلات الزراعية ٠

هكذا وضع الرجل الشاب ـ ٢٩ سنة ـ قدمه أخيرا على أولى درجات السلم ٠ انه الآن ـ الآن فقط ـ يستطيع أن يبحث عن فرصته في هذا المجتمع ٠٠ دون أن يكون مسدس البطالة فوق رأسه ٠ وهذا ما حدث فعلا ٠

لقد رأى محمد أن العمل الذي يقوم به هو عمل اقتصادي أكثر منه زراعيا ، وأن عليه أن يجرب أعمالا أخرى كثيرة قبل أن يصل الى العمل الذي يناسبه ٠

« ٠٠ ما رأيك في العمل كبائع في محل بقالة ؟ » هكذا ردد محمد لنفسه انه يسمى العمل «بائع» ولكنك تستطيع ان تسميه

« صبى بقال » ٠٠ لان العمل هو كذلك فعلا ٠٠!

ولم يتردد !٠٠ لقد قرأ اعلانا عن حاجة أحد المحلات الكبرى لأشخاص يعملون بائعين فيالمحل ٠ بائعين فيأقسام الخضراوات ، الملابس ، الاحذية ، الكاميرات !

نعم ٠ محمد يستطيع أن يحصل على هذه الوظيفة ـ لقد تذكر فجاة أن لديه خبرة ضخمة سابقة في كاميرات التصوير ٠ لقد كان لديه وهو صغير كاميرا اشتراها له والده ٠ انها لم تكن تلتقط صورا على الاطلاق ، فقد كانتمجرد لعبة ٠٠ ولكنها كاميرا والسلام ! أحسن من مفيش !

بهذه الفكرة الضخمة عن التصوير والكاميرات ، ذهب محمد الى المحل و ٠٠ حصل على الوظيفة ٠ وظيفة بائع وفى قسم الكاميرات بالمحل ، مع أنه في بعض الايام كان ينقل للعمل في قسم الخضراوات ليحل محل شخص آخر ٠

وفى الصباح المبكر كل يوم ـ ولمدة شهر ـ كان محمد يذهب الى عمله مبكرا لكى « يذاكر » كتالوجات جميعآلات التصوير ٠٠ حتى لا يخطىء في شرحها طوال اليوم لكلزبون راغبفيالشراء ٠ بهذه الطريقة استطاع محمد أن يحصل منالمحل علىمرتبمتواضع للغاية ـ ٢٥٠ دولارا في الشهر ٠

ان محمد يتوقف فجأة عن الكلام ٠ انه يتذكر ٠ انه يتذكر منظره عندما كان يقوم بهذا العمل ٠ شقاء هناك ٠٠ لا ألم ٠٠ لا مرارة ٠٠ بل انها جميعا ذكريات يعتز بها ٠ انه يقول مثلا وهو يضحك منأعماقه : « مرة ٠٠ جاءت الىالمحل واحدة ست ٠ انها ست شيك جدا ٠ دخلت محلقسم الملابس واختارت ملابس بالف دولار ٠ دخلت قسم الموبيليات واختارت أثاثا بألف دولار أخرى ٠ قسم الاحذية ٠٠ قسم الكاميرات ٠٠٠

« ٠٠ في الحقيقة لم تشتر منى سوىقلم حبر وولاعة ، ثمنهما ثلاثون دولارا ٠ ولكنها اشترت منالمحلكله بضائع بخمسة آلاف دولار ـ انها لم تدفع شيئا ٠٠ فلقد طلبت ارسال هذه الاشياء الى منزلها في عنوان كذا ٠٠ والدفع عند الاستلام ٠ حاضر ٠

« ٠٠ وقبل أن ينتهى نفس اليومكانت السيدة قد توجهت الى محلات أخرى واشترت بضائع أخرى بنفس الطريقة ٠ الدفع عند الاستلام ٠

« ٠٠ ولكن ٠٠ قبل أن ينتهى اليوم كانوا قد اكتشفوا أنهذه السيدة الشيك جدا هى مجرد : نصابة ! لقد ارتاب مندوب

أحد المحلات في الامر عندما ذهب يوصل البضاعة الى العنوان المذكور ·· فوجد بضائع أخرى ضخمة ارسلتها محلات أخرى كثيرة و ·· لا أحد في المنزل · وعندما أبلغ الشرطة استطاعوا بعد فترة العثور على السيدة ·· واستدعوا جميع الباعة الذين اشترت منهم — وأنا من بينهم — كي يتعرف كل واحد على البضائع التي اشترتها منه السيدة الشيك جدا ! » ·

هكذا يحكي لك محمد عشرين حكاية وحكاية عن تجربته في العمل لمدة شهر بمحل البقالة هذا .

ان التجربة لم تستمر اكثر من شهر واحد ، لانه بعد هذا الشهر فوجيء محمد بخطاب مغلق يصله بالبريد المسجل . ماذا في الخطاب ؟ ورقة ماذا في الورقة ؟ استدعاء . ماذا يقول الاستدعاء؟ يقول : ان قسم الابحاث بوزارة الزراعة الفيدرالية يحتاج الآن الى باحث زراعى حاصل على الدكتوراه .. وان مرتب هذه الوظيفة يبدأ من ١٠٥٠٠ دولار وينتهي بـ ٢٢الف دولار في السنة .. اذا كانت هذه الوظيفة تناسبك فتفضل بالحضور لاجراء حديث شفوى قصير معك !

.. اذا كانت تناسبه ؟!

طبعا هي وظيفة تناسبه جدا ·· انها الوحيدة التي تناسبه .. ان الوظيفة التي يريدها محمد قد جاءت اليه اخيرا .. الان فقط — يتحول محمد من جديد الى : الدكتور محمد !

ولكن في الحقيقة — لم يكن ممكنا ان تأتى هذه الوظيفة الى الدكتور محمد قبل الان . لم يكن ذلك ممكنا لانها لم تكن موجوده .. لم تكن شاغرة .. في الوقت الاصلى الذى طلبها هو فيه . ولانه لم يتمسك بها .. لانه بحث عن العمل ولم يبحث عن الوجاهة .. لانه رأى في الصفر رقما والبداية المتواضعة شرفا .. لانه رأى المشكلة تحديا .. والقصة امتحانا .. لانه لم يضع قدما على قدم ..لم يلعن حظه ولم يسخط على ظروفه .. لانه واجه المجتمع بتصميم لا يلين ورغبة لا تنهزم ·· لهذا كله ·· حصل محمد فى الشهر السادس على ما اراده في الشهر الاول .

والواقع ان المسألة ليس فيها حظ بقدر ما فيها توقيت مناسب ·· فقد تكون الوظيفة المناسبة موجودة أمس ، وغير موجودة اليوم .. وقد يضطر حامل الدكتوراه الى العمل كبائع .. ولكنه في القاعدة العامة — سوف يحصل على عمل مناسب غدا .

وانا لا أريد ان اذكر هنا امثلة لعشرات المصريين الذين استطاعوا العمل كاساتذة جامعات فى كندا ـ دون ان يمروا بهذه التجربة التى مر بها منذ دقائق الدكتور محمد فهمى .

لا اريد ان اشير مثلا الى الدكتور فريد سليمان الاستاذ الحالى بكلية زراعة جامعة ساسكاتشوان .. او الدكتور عفيفى سليمان الاستاذ بهندسة جامعة ماكماستر .. اوالدكتور محمود علىالمنزلاوى استاذ اللغة الانجليزية فى كولومبيا البريطانية .. أو الدكتور لطفى فام استاذ الادب الفرنسى بجامعة كارلتون .

او الدكتور حامد محمد نجم استاذ تغذية الدواجن بجامعة ماكدونالد .. او الدكتور فوزى طه استاذ الكيمياء الصناعية بجامعة فلوريدا .. او الدكتور محمود عدوى الشرقاوى الاستاذ المساعد بطب جامعة مونتريال .. او زميله الدكتور رشاد الطواشى الاستاذ بكلية الصيدلة فى نفس الجامعة .

لا اريد ان اذكر مثلا الدكتور مصطفى عارف الذى يعمل بالمزارع التجربة الكندية ، او الدكتور نسيم عبد الملك بمركز ابحاث أوتاوا .. او الدكتور فتحى سالم بمركز ابحاث الشركات ، او الدكتور السيد محمد حسنى الباحث فى ليفاكس .

لا أريد اذكر هذه الامثلة ـ وعشرات غيرها ـ للمصريين الذين وجدوا عملهم المناسب فى وقت أقصر بتضحيات اقل . ولكن ما أريد ان أقوله هو أن البحث عن عمل جديد فى مجتمع جديد .. هو أمر يتطلب صبرا .. مع توقع التضحية المؤقتة باشياء كثيرة .. لولا هذا الاستعداد السابق للتضحية ـ لما استطاع الدكتور محمدفهمى ان يكون مثلا كقصة كفاح وتصميم وقوة ارادة . فمادمت لم تتفق مقدما ـ قبل وصولك ـ على العمل المناسب لك فى كندا .. فان المهاجر سوف يحتاج الى وقت ـ قصير أو طويل للعثور على هذا العمل الذى يريده .

اما اذا كنت قد حصلت على عملك المناسب قبل وصولك .. فهذا بالطبع افضل .. مع انه ليس ممكنا فى معظم الاحوال اننا ربما نجد امثلة كثيرة على ذلك بين المهاجرين المصريين فى كندا .. عندك الدكتور مصطفى الدمرداش مثلا ... انهم يشيرون اليه فى كندا باعتباره من ابرز المصريين الذين يحتلون الآن وظيفة كبرى ـ تعادل وكيل الوزارة او المدير العام على الاقل ـ فيما يساوى عندنا وزارة الخزانة او التخطيط .

ان الدكتور الدمرداش هو واحد من اثنين فى حكومة كندا ، اللذين يحملان الدكتوراه فى الرياضة البحتة فرع علمي صعب ومعقد .. ولهذا لم يتجه اليه او ينجح فيه عدد كبير .. ولان خبرة الدمرداش ليست متوافرة بكثرة .. فقد طلبته حكومة كندا من حكومة بريطانيا رسميا منذ خمس سنوات .. انه فى الاصل كان مديرا عاما لشركة سيبا للادوية فى مصر .. ثم اتجه الى سويسرا وبريطانيا منذ تسع سنوات للعمل كمستشار فى التخطيط لبعض شركات الادوية . وظل هذا هو عمله فى لندن الى ان احتاجت حكومة كندا الى شخص فى مثل كفاءته .. فارسلت تطلبه رسميا من الحكومة الانجليزية ..

لقد سافر الدمرداش الى كندا منذ اربع سنوات لكى يعمل مديرا للتخطيط المالى بالادارة العامة للحكومة . ادارة تعادل خليطا من وزارتى الخزانة والتخطيط بمصر .. المرتب ٢٠ الف دولار سنويا . العمل هو التنظيم الرياضى بأجهزة الادارة بالحكومة الفيدرالية بكندا .. أجهزة يعمل بها أكثر من ٢٣٠ الف موظف .

ولماذا نذهب الى أوتاوا ؟ نحن الآن فى شيربروج .

ان معنا الان .. فى جلستنا هذه بمنزل الدكتور الهلالى بمدينة شيربروج ــ مصرى آخر ذهب الى كندا منذ سنتين فقط .. انه الدكتور منير فؤاد سعد ــ استاذ سابق بالمعهد العالى الفنى بشبرا ــ القاهرة .. لقد سافر الدكتور منير الى النرويج أولا لعمل أبحاث فى تخصصه .. التصميم الهندسى .. ثم سافر الى كندا عندما تعاقدت معه جامعة شيربروج على مواصلة نفس الابحاث بها .

ان الدكتور منير له آراؤه الخاصة بالهجرة الى كندا . انه يقول مثلا : «.. انا ارى ان من يحضر الى هنا لابد ان يكون فقط واحد من اثنين : اما شاب متخرج حديثا .. أو رجل كبير فى السن ولكن خبرته معترف بها فى أحد الفروع العلمية المطلوبة .. أما الشخص الاول فيستطيع التكيف مع أى عمل لأن الخبرة لم تتكيف لديه بعد .

والثانى سيجد العمل لان المجتمع يحتاج الى خبرته ..

أما لو كان المهاجر شخصا آخر غير هذين الاثنين ، فيجب ان يتوقع مرور وقت طويل قبل ان يستطيع العمل .. ثم يستطيع العمل فى الميدان الذى يرغبه ..

ولاول مرة يدخل مضيفنا — الدكتور مصطفى الهلالى — طرفا فى المناقشة تعليقا على كلمات الدكتور منير .. ان الهلالى يقول « اننى اتفق معك فعلا فى ان المهاجر لابد ان يكون محترفا خبيرا .. فى فرع تخصصه .. هذا اذا لم يكن شابا .. ولكنه فى جميع الاحوال يستحسن ان يكون صغير السن .. يجيد الفرنسية والانجليزية .. وكفئا ..

ان الكفاءة هنا هى شرط ضرورى .. لانه لو تساوت كفاءته وخبرته مع مواطن كندى فمن الطبيعى جدا انهم سيفضلون المواطن الكندى فى الوظيفة .. وبالاضافة الى ذلك فان الاستعداد لمواجهة المشاكل — خصوصا فى الفترة الاولى — هو أمر هام جدا — ان الفترة الاولى لاى مهاجر جديد هنا هى التى يعتمد عليها مستقبله بعد ذلك .. اذا مرت هذه الفترة بنجاح فان المهاجر سوف يصل غالبا الى مايصبو اليه .. اننى اقصد بالنجاح هنا قدرة المهاجر على تحمل اية مسئولية وقبوله لاى عمل موجود .. اما اذا تكبر على العمل .. او اعطى الاحساس بانه غير مسئول او غير كفء .. فان هذا سوف يظل يطارده بعد ذلك فى جميع أعماله التالية .. ان العمل هنا لايعتمد على المؤهلات والخبرة والتدريب والكفاءة فقط .. ولكنه يعتمد أيضا على آراء الجهات السابقة .. التى عمل بها — فى كفاءته وقدرته وحرصه على العمل . ثم قبل هذا كله . يعتمد على شخصيته .. ان التمتع بشخصية ناضجة هو دائما شرط من شروط العمل هنا .. مثلما هى شرط من شروط النجاح فى اى مكان آخر » .

والواقع ان الدكتور الهلالى معه الحق خصوصا بالنسبة للنقطة الاخيرة التى اثارها هى نضج الشخصية .. ان المهاجر هنا ليس مجرد شخص يبيع كفاءته .. ولكنه ايضا يبيع شخصيته لصاحب العمل .. ان هذا يبدو واضحا فى كل مرة .. يختارون فيها شخصا جديدا لشغل وظيفة ما .. ان أهمية الشخصية تتزايد كلما كانت الوظيفة التى يريدها المهاجر هامة بالنسبة للمؤسسة أو الشركة ..

اننى اتذكر الآن مثلا لذلك . صاحبه هو هذا الشخص عادل فهمى المنياوى . ان عادل هو مجرد شاب فى الثانية والثلاثين من عمره .. مجرد شاب كان يعمل فى القاهرة موظفا بشركة الكرنك للنقل والسياحة .. ثم بمكتب شركة « ايرفرانس » بالقاهرة ..

عندما هاجر عادل الى كندا منذ ست سنوات فقط عمل اولا فى مكتب شركة « سابينا » للطيران بمدينة مونتريال بكندا . ولكن

عادل يريد العمل في شركة « ايرفرانس » بالذات ايرفرانس · لهذا ظل ينتظر الى أن تخلو عندهم وظيفة تتناسب مع مؤهلاته (ثانوية عامة فرنسى) وخبرته تسع سنوات كمندوب مبيعات .

وعندما خلت هذه الوظيفة بمكتب ايرفرانس ف مونتريال تقدم هو – مع اخرين لشغلها . لقد سألوه ف الاختبار الشفوى عن موضوعات كثيرة لمدة ساعتين ونصف . لقد كان يتوقع طبعا ان تدور الاسئلة حول عمل مندوب المبيعات .. ولكنه لم يتوقع الجزء الاخر من الاسئلة التىواجهوه بها . اسئلة مثل : تصور انك سوف تجلس فى هذا المكتب .. كيف تصمم الديكور ف داخله ؟ .. اين تضع مكتبك داخل الحجرة .. ولماذا ؟ . هل لديك فكرة عن احدث الاتجاهات فى الهندسة المعمارية ؟ .. لماذا ترتدى كرافتة حمراء اللون ·· أليس اللون الأزرق أفضل ؟

انها اسئلة عديدة – من هذا الطراز – ليس الهدف منها ان تعرف لجنة الاختبار رايه ف اللون الاحمر والازرق حقا .. ولكنها تريد ان تعرف أولا : هل له رأى اصلا .. ام لا ؟ هل لديه معلومات عامة عن الدنيا التى يعيش فيها ؟ هل له ذوق خاص يصمم به حياته ؟

انها اسئلة قد لاتبدو لها ايةعلاقة بالعمل الذى سيقوم به عادل – مندوب مبيعات فى شركة طيران .. لكنها احد المقاييس الكثيرة اللازمة لقياس شخصيته ومدى انفعاله فى المناقشه ، بعد قياس خبرته الاساسية وتعليمه ·

لهذا حصل عادل على الوظيفة بمرتب ٨٠٠ دولار ف الشهر .. لهذا ايضا ترقى بسرعة فيها . الان هو احد الممثلين الرئيسيين لمكتب تنشيط مبيعات شركة « ايرفرانس» بمدينة مونتريال . لقد ترقى لانه يحاول أن يعطى العمل حقه – اكثر من حقه – هذا شرط ضرورى سمعته من كل مهاجر مصرى ناجح فى كندا ·

ان اهمية هذا الشرط تزداد عندما نعلم أن مغريات الاستهتار ف كندا كثيرة ، مثلما مغريات العمل كثيرة أيضا · وعلى رأى طبيب مصرى بارز قابلته فى مدينة اوتاوا العاصمة: « أن من يعطى للعمل حقه هنا لابد ان ينجح .. ان لم يكن اليوم فغدا .. اما من يريد مثلا ان يتعرف على اكبر عدد من الفتيات ليقضى وقته معهن .. من يريد أن يأخذ الحياة بغير جدية ·· فانه سيفشل قطعا · ان العمل هنا .. عمل . واللهو .. لهو . ولايمكن الخلط بين الاثنين .

ثم ان هناك نقطة اخرى : ان الاخلاص فى العمل لايتم مـرة .. والى الابد • مستحيل الحديث فى العمـل هو شىء مطلوب منك فى كل دقيقة . كل يوم . لايكفى أن تكون متفوقا فى عملك أمس .. لابد أن تكون متفوقا اليوم وغدا وبعد غد » •

ان صاحب هذه الكلمات هو فى الواقع نموذج على تطبيقها .. انه **الدكتور امير حماية** . طبيب مصرى مهاجر فى مدينـة اوتاوا عاصمة كندا .. ان عمره لايزيد على ٣٦ سنة ــ اعزب ــ وهجرته الى كندا عمرها اربع سنوات . وعلى ذلك فانه الان يملك عيادته الخاصة لامراض النسـاء فى أوتاوا . عيادة تدر عليه مكسبا شهريا يصل الى ثلاثة آلاف دولار .. الصافى الف دولار. وبالاضافة الى ذلك فانهم اعتمدوا فى جامعة اوتاوا مبلغ عشرين الف دولار بصفة مبدئية لتمويل أبحاثه العلمية فى أمراض النساء •• ان اعتماد مثل هذا المبلغ لطبيب مازال اجنبيا بالنسبة لهم فى كندا ليس مسألة سهلة ولا حتى هى مسألة متكررة . ولكن الكفاءة عندهم لا جنسية لها .. هـذه مصلحتهم أولا .. قبـل أن تكون مصلحة الشخص الكفء نفسـه .. مصلحتهم فى جلبه ، وجلب غيره من بعده .

×××

انى ربما لم اسمع فى كـندا عن طبيب آخـر أعطوه نفس التسهيلات ــ واكثر ــ سوى الدكتور مصطفى الهلالى ــ مضيفنا الذى أعود اليه الآن ــ فى جلستنا عنده بمدينة شيربوروج .

ان الدكتور مصطفى مايزال فى الرابعة والثلاثين من عمره . متخرج من طب القـاهرة سنة ١٩٥٩ بتقدير جيـد جدا مع الامتياز فى الجراحة • وبعد أن حصل على الماجستير بدرجة الامتياز فى جراحة المسالك البولية سافر الى كندا منذ خمس سنوات . هناك حصل على الدكتوراه من جامعة ماكجيل .. ليس هذا هو المهم . ولكن المهم هو أن ابحاثه اصبحت تتمتع هناك بوزن دولى كبير • لقد منحته جمعية جراحى المسالك البولية الامريكية جائزتها الاولى منذ سنوات عندما قدم لها أحد ابحاثه . بل ان احد مساعديه فاز منذ سنتين بجائزة مماثلة بسبب مساعدة الدكتور مصطفى له .

وقبل ان يحصل مصطفى على الدكتوراه من جامعة ماكجيل .. كانت الجامعة قد قررت ان تعفيه من دفع رسوم التسجيل تقديرا

لجهوده الطبية فى المستشفى الذى كان يعمل به ثم قررت الجامعة بعد حصوله على الدكتوراه ان تقوم هى بطبع الرسالة وتوزيعها على الدوائر الطبية على نفقتها الخاصة تقديرا لامتياز الرسالة وتفوقها ..

والدكتور مصطفى يذهب الى عمله الان فى الثامنة صباحا ويعود فى الثامنة مساء .. احيانا تفاجئه عمليات جراحية فيعود بعد منتصف الليل .

وفى مرة سألته : الا تستطيع أن تعمل اقل ؟

ـ استطيع ..

ـ اذن لماذا تجهد نفسك بهذا الشكل ؟

ـ لان الطب عندى هواية وليس وظيفة . ولان امامى نتائج لابد ان احققها . ولاننى اكون سعيدا عندما اعطى صورة عملية لدقة الطبيب المصرى ومهارته .

ـ هل افادك التعليم الطبى الذى تلقيته فى كلية طب القاهرة .. هل افادك فى كندا ؟

ـ افادنى جدا .. فى الواقع اننى مازلت اشعر بالفضل فى تقدمى الى الاساتذة الذين تعلمت على ايديهم فى مصر : **محمد بدر .. محمد صفوت .. رياض فوزى** .. أن تعليمنا الطبى فى مصر مازال من الطراز الاول .

ـ اذن .. ماهى : المشكلة ؟

ـ المشكلة هى أن هذا التقدم يتم بفضل أفراد ، وليس بفضل اسلوب فى التعليم . فما زال الطب يدرس عندنا كما كان يدرس منذ ثلاثين سنة ..

× × ×

ان الدكتور مصطفى هو الان استاذ مساعد بجامعة شيربروج ، فضلا عن عمله طبيبا بالمستشفى الحديث التابع للجامعة فى مدينة شيربروج . مستشفى افتتح منذ سنة واحدة .. بعد ان تكلف

سبعين مليون دولار ، انه الآن أحدث مستشفى في أمريكا الشمالية كلهـــا . .

ان الدكتور مصطفى يقدم الآن ابحاثه فى هذا المستشفى نفسه. ان لديه منحا من ثلاث جهات مختلفة لتمويل هذه الابحاث . ثلاث منح تصل فى مجموعها الى اربعين الف دولار . انه لم يحصل على هذه المنح الا بعـد أن اكتشف طريقة جديدة لتشخيص سرطان البروستاتا فى أول مراحله . هذا هو الشيء الذى حصل بسببه على الدكتوراه في جامعة ماكجيل في مونتريال • فالدراسة في جامعة ماكجيل بالذات اصعب من غيرها . . لهذا أصبحت واحـــدة من احسن الجامعات فى أمريكا الشمالية .

ولكن الدكتور منير مسعود ــ الموجود معنا الان فى السهرة ــ يتدخل فى المناقشة قائلا : ان الدراسة هنا ليست صعبة . انهـا فقط . . مجرد دراسة ؛ انهم هنا يهتمون بالمستوى أكثــر من اهتمامهم بالعدد . لهذا يتكلف الطـالب مصروفات ضخمة خلال سنوات دراسته الجامعية . ان متوسط تكاليف الطالب الواحد فى الجامعة هي ثلاثون ألف دولار • الطالب يدفع مايعـادل الثلث . . والباقى تتحمله الجامعة . . ان هذا المبلغ الضخم يذهب أولا الى تجهيز الكلية بأحدث الاجهزة العلمية ، ويذهب ثانيا الى تمويل النشاط العلمى للاساتذة •. ان نسبة عدد الاساتذة الى عدد الطلبة هنــا تصل الى ثلاثة لواحد . نعم ثلاثة اساتذة لكل طالب واحد . ان دفعة البكالوريوس التى ستتخرج هذا العام من كلية الطب التى يعمل بها الدكتور الهلالى هي مثلا لاتزيد على ٢٤ طالبا فقط ٢٤ طالبا يخدمهم ، يعلمهم ، مائة وعشرون أستاذا ! . . وبالاضافة الى ذلك فان الجامعة هنا تحرص على الا تتخلف عن عصرها ، بل تحرص على أن تسبق عصرها . ان كل طالب جامعى هنا مثلا لا بد أن يدرس طريقة عمل واستخدام العقل الالكترونى مثلا فى فــرع تخصصه ، ابتداء من السنة الثانية . »

× × ×

والواقع ان استخدام العقل الالكترونى فى الجامعة ــ كما أشار منير مسعود حالا ــ لم يبــــدأ الا مع استخدامه فى النشـــاط الاقتصادى بالمجتمع كله فى كنـدا ، وهذه احدى النقــاط التى ينتبه اليها المهاجر المصرى عند وصوله الى هناك • ان برنامجا واحدا

يحضره المصرى فى القاهرة لدراسة العقل الالكترونى قد يؤدى الى زيادة مرتبه عند هجرته الى كندا بنسبة الربع على الاقل . ان هذا الفارق الضخم يترتب على التنبه مقدما لمثل هذه المسالة الصغيرة .

وهى ليست هذه المسالة فقط ، فى الواقع ان هناك مسائل اخرى كثيرة ، وصغيرة ايضا ، تستطيع ان تحقق نتائج كبيرة للمصرى المهاجر الى كندا · نتائج تضاعف من قدرته على التكيف مع الحياة الجديدة والمجتمع الجديد هناك .

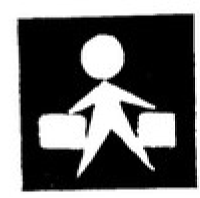
ما هذه المسائل الصغيرة .. ؟ ما هى العقبات التى تحد من قدرة بعض المهاجرين المصريين على التكيف مع حياتهم الجديدة بعد الهجرة ؟

اننا سنتناول هذه العقبات بالتفصيل فى الفصل التالى . ولكن قبل ان نتناولها .. دعنا نبدأها من النقطة التى لا يتنبه اليها احد .

دعنا نبدأها من : العلاقة الزوجية !

الفصل السادس :

عروس .. لكل عشرة رجال !



واقعة صغيرة حدثت فى كندا منذ شهر ولم ينتبه اليها احد : ان الجالية المصرية سجلت اول حالة طلاق بين زوجين مهاجرين من مصر ! طلاق تم فى مونتريال ـ بعد ان فشلت كل محاولة ممكنة لاعادة التفاهم بين الزوجين الغاضبين المصممين على الطلاق .

ان الزوج يعمل مدرسا . اما الزوجة فتعمل سكرتيرة فى احدى الشركات الكندية بمونتريال . وقبل ان تتهدد العلاقة بين الزوجين المصريين بالطلاق .. كانت المشاكل قد بدأت تتراكم ، مشاكل ناشئة كلها من محاولة التكيف مع الاوضاع الجديدة .. والاخلاقيات الجديدة التى انتقلا اليها فى كندا ..

ان الزوج يصل الى منزله كل مساء ليجد ان زوجته قد جاءت فى سيارة رجل غريب ؟.

ـ .. من هذا الرجل ؟
وترد الزوجة : هذا زميل لى فى الشركة .
ـ لماذا اوصلك بسيارته حتى هنا ؟
ـ لماذا ؟ .. انه يسكن فى شارع مجاور .. وانت تعلم صعوبة المواصلات العامة فى هذه الساعة المزدحمة .. وتعلم اننى لا استطيع ان استعمل تاكسيا كل يوم من الشركة حتى المنزل .. حتى هنا .

ـ انا لا اسمح لك بركوب السيارة مع رجل غريب .. هذه آخر مرة تركبين فيها هذا الخطأ ..
وترد الزوجة باستغراب شديد : « ان ما افعله ليس خطأ .. وبالاضافه الى ذلك فان هذا الرجل ليس غريبا .. انه زميل لى فى العمل . وانا لا اجد مطلقا اى معنى سيىء فى ان يوصلنى زميلى الى هنا .. مادام هذا طريقه الاصلى . وما دام هو الآخر متزوج » .

ويرد الزوج المصرى الغاضب .. متزوج أو غير متزوج .. لا يهم .. المهم . لن اسمح لك بالركوب معه مرة اخرى مفهوم ؟
ـ حاضر ؟ ...
ولكن الواقعة تكررت فى اليوم الثانى ، والثالث ، والرابع و . فى كل مرة تتجدد نفس المناقشة .. وفى كل مرة تنتهى بنفس الاحتجاج من الزوج المصرى على زوجته :

.. « الم اقل لك امس الا تاتى فى سيارة هذا الرجل مرة اخرى ؟!
وترد الزوجة : نعم . ولكن شعرت بالحرج الشديد وهو يعرض على اليوم توصيلى الى المنزل . لقد بدا عرضه عاديا جدا ، والمسألة كلها عادية جدا وتحدث كثيرا بين الزملاء عندنا .. وتصور انت ماذا يمكن أن يحدث لو قلت له : آسفة .. لن اذهب فى سيارتك .. وسأفضل عليها ركوب المترو المزدحم ..! ولو قلت له السبب الحقيقى .. وهو انك باعتبارك زوجى ـ لا تريد منى الا اركب فى سيارته .. فان الامر سوف يبدو غريبا جدا .. انه امر غريب لانه ينظر الى كزميلة ، وليس كامرأة ! نحن هنا فى كندا .. ولسنا فى مصر » !.

ولكن الزوج لا يقتنع بحكاية كندا ومصر هذه ; ان هذا العذر من زوجته غير مقبول . لقد تربى فى مصر على ان المرأة هى اولا امرأة ، وليست زميلة . لقد اعتاد على ان الرجل عندما يعرض

توصيل زميلته فى العمل الى مكان ما .. فلا بد ان يهدف الى شىء اكثر من مجرد التوصيل .. لقد اعتاد على ان همسات الناس تبدأ فى التردد منطلقة دائما من مثل هذه الوقائع الصغيرة .. ان الناس هنا لا يهمسون بشىء .. ولكن هذا لا يهم . ان المهم فقط هو ان زوجته تخالف اوامره ؛ المهم فقط هو ان زوجته لا تطيعه . معنى ذلك ان الامر لابد أن يكون فيه .. « شىء ما » . نعم هناك شىء ما بين زوجته وبين هذا الرجل الغريب .. من المؤكد ان حكاية التوصيل هذه ، والزمالة هذه هى مجرد عذر لشىء ما تخفيه زوجته !

و .. عندما يشك الزوج دائما فى وجود **شىء ما** .. فان كل شىء فى الحياة الزوجية يتحول دائما الى ظل لهذا **الـ « شىء ما »** .. من الان سوف تصبح الدقائق الخمس التى تتاخرها زوجته فى الخارج هى ساعة كاملة .. من الان سوف يصبح الطعام الذى تعده باردا سيئا .. من الان سوف يصبح كل شىء خطأ فى المنزل هو بسبب خطأ ما .. ارتكبته زوجته .. اذا تعطل التليفزيون ... فلان زوجته اهملت فى تشغيله .. اذا تعطل التليفون .. فلان زوجته تتحدث فيه كثيرا .. اذا ضاع زرار واحد من احد القمصان .. فلان زوجته لا تقوم بواجبها فى المنزل . اذا نزلت زوجته لشراء شىء ما .. فانها قطعا ــ قطعا ــ ذاهبة لارتكاب خطأ ما .. !

لقد تسممت العلاقة بين الزوجين عندما دخل فيها **«الشىء ما»**. من الان سوف يتحول كل خلاف بسيط بينهما الى .. خناقة .. كل ذرة تراب فى المنزل سوف تصبح .. مشكلة .. كل صباح جديد سوف يصبح بداية جديدة ليوم من المتاعب .. ان الزوج يعتقد ان زوجته لم تعد ــ منذ الان تقول الحق . والزوجة تعتقد أن شك زوجها فى تصرفاتها هو اهانة لها ولسلوكها .. اذن .. اذن .. اذن .. لا حل سوى الانفصال .. لا حل سوى الطلاق !.

× × ×

هكذا تم الطلاق الاول فى مدينة مونتريال . أول طلاق يقع بين زوجين من الجالية المصرية هناك . طلاق تم اولا بين هذين الزوجين ، ثم تبعه طلاق ثان بين زوجين مصريين . هذه المرة كان الزوج والزوجة مدرسين .

و .. حتى الآن لم يقع الطلاق داخل الجالية المصرية سوى فى هاتين الحالتين فقط : فى حالتين سمعتهما من الأب روفائيل .. ممثل الكنيسة المصرية فى كندا والولايات المتحدة ·

ولكن الواقع ان هناك مشاكل اخرى خلقها التكيف مع الاخلاقيات الجديدة والحياة الجديدة ·· بكندا ، انها مشاكل لم تصل الى درجة الطلاق · ولكنها مشاكل على أية حال ·

ان الموظف الذى كان يذهب الى مكتبه فى مصر من الثامنة صباحا حتى الثانية ظهرا ، يذهب هنا من الثامنة والنصف صباحا الى الرابعة والنصف عصرا ، او من التاسعة صباحا الى الخامسة مساء .. والموظف الذى كان يجلس فى مكتبه بمصر ست ساعات ويعمل ساعة واحدة .. يأتى هنا ليجد نفسه مرغما على البقاء فى المكتب ثمانى ساعات ·· والعمل ثمانى ساعات ·· لا تزويغ لا رغى فى التليفون .. لا زيارات من الاصدقاء . لا اعذار .. لهذا يعود الى منزله فى المساء متعبا ، منهكا ، متوتر الاعصاب .. خصوصا فى الشهور الاولى لعمله .. قبل ان يتكيف مع هذه العادات الجديدة .

وعندما يكون هذا المصرى المهاجر زوجا .. فانه لا يستطيع ان ينسى انه اعتاد فى مصر على زوجة تنتظره فى المنزل حتى عودته من العمل . تفتح له الباب ، تخلع له الجاكتة ، تقدم له الطعام الساخن انه لم يتكيف بعد ، خصوصا فى اسابيعه الاولى — على زوجة تعود من العمل متعبة مثقلة . لم يتعود على أن يمد يده الى الثلاجة ليتناول طعاما باردا .

ان عليه — على هذا الزوج المصرى المهاجر — ان يعتاد هنا على حقائق جديدة . يعتاد أولا على ان زوجته لا بد أن تعمل واذا لم تعمل فانها سوف تجد نفسها وحيدة .. غريبة .. وسط مجتمع كل من فيه يعمل ..

واذا عملت الزوجة .. فمعنى ذلك انها قد بدات تتقاسم مع زوجها مصروفات البيت . وحينما يحدث ذلك فلا بد أن تترتب عليه — اتوماتيكيا — نتائج اخرى كثيرة . فمن الان اصبحت الزوجة تتوقع من زوجها أن يعاملها كشخصية مستقلة محترمة يؤخذ رايها فى معظم المسائل الاساسية — من الان أصبحت الزوجة تريد ان تشترك فى اختيار ادوات المطبخ ولون السجادة وحجم

الثلاجة ، وشكل السرير ومكان الراديو وطراز البوتاجاز وماركة السيارة وموقع الشقة .

ثم .. عندما يكون هذا الزوج المصرى المهاجر ابا .. عندما يكون لديه أولاد وبنات .. فان حجم الوقائع الجديدة التى لا بد أن يتكيف معها .. يكبر ويتضاعف . انه لن يصبح هنا المصدر الوحيد لتربية أولاده وبناته . انه سيكتشف ان الأطفال والاولاد هنا يتعلمون من التليفزيون وافلام السينما اكثر ما يتعلمون من آبائهم .. انه سيكتشف كثيرا من الموضوعات المحرمة فى مصر قد اصبحت هنا شيئا مباحا .. تجرى المناقشة فيه علنا .. خذ الجنس مثلا ٠٠ ان الاطفال يقرأون عنه ، يشاهدونه يتعلمونه ، يناقشونه . بشكل لم يكن هو شخصيا يجرؤ عليه فى أيام شبابه .. او بيت أسرته .. ان ما كان عيبا خطيرا فى مجتمعه أصبح هنا شيئا ممكنا أن يقع من أولاده ٠٠ شيئا ممكنا ومتوقعا وجائزا ايضا

ان هذا المجتمع الجديد على الرجل المصرى المهاجر .. وهذه الاخلاقيات الجديدة التى يجب ان يتكيف عليها .. تمتد أيضا لكى تؤثر على المرأة المصرية المهاجرة سواء كانت فتاة أو زوجة أو اما .

ان المرأة المصرية سوف تأتى الى هنا ــ الى كندا ــ لتجد انها وحدها فى مجتمع غريب انها لن تجد هنا جارات يتكلمن معها ساعة على باب الشقة ، ولا صديقة تستعير منها مصفاة أو حتى ابرة خياطة . ولا زميلة ترغى معها ساعة فى التليفون . لن تجد زائرة تتبادل معها آخرالاشاعات عن فلانة وعلانة ٠ انها لن تجد شارع سليمان باشا هنا تتمخطر فيها ، ولا نادى جزيرة تستعرض فيه ، ولا رجلا يبحلق فيها ولا غريبا يعاكسها ، ولا خياطة تقضى عندها يوما باكمله لتفصيل فستان . فى الواقع ان تفصيل الفستان هنا يتكلف خمسة وعشرين دولارا على الاقل ٠٠ الجاهز أرخص !

اقول : ان المرأة المصرية التى شاهدتها هنا هى التى تتعرض فى اسابيعها الاولى ــ اكثر من الرجل ــ لحالة عميقة من الحنين الى الوطن ،والاسرة والصديقات ، والزميلات .. انها ــ حتى ــ لاتستطيع فى اسابيعها الاولى الاعتياد على انواع الطعام وطريقة اعداده هنا . لقد اعتادت فى مصر على ان اعداد الطعام يستغرق ثلاث ساعات ، وطبخه يستغرق ساعتين ، وتسخينه يستغرق ساعة . ولكنها هنا فى كندا ــ يجب أن تعتاد على الخضراوات

الملوقة ، وتعتاد على الزبد بدلا من السمن ، وتعتاد على المعلبات الجاهزة بدلا من تقشير البطاطس ، وتخريط البامية ، وتنظيف الدجاجة .. ان كل شيء هنا جاهز . كل شيء معد مقدما .. ان الوجبة التي كانت المرأة تعدها في مصر في ست ساعات سوف تعدها هنا في ست دقائق وانتهى الامر !٠

× × ×

ولاينتهي الامر عند هذا الحد بالنسبة للمصريين المهاجرين عندما يتعرضون لتجربة التكيف على هذا المجتمع الجديد الذى هاجر اليه .. في الواقع انهناك مشاكل اهم تتعرض لها الجاليات المصرية هنا ــ في كندا ٠

فلو فحصنا انواع المشاكل التي يتعرض لها المهاجر المصرى في هذه التجربة الجديدة عليه ــ تجربة الهجرة ــ فسوف تكتشف ان هذه المشاكل يمكن وضعها تحت ثلاثة تقسيمات عريضة ٠

فهناك اولا . مشاكل يواجهها المصريون المهاجرون في مواجهة هذا المجتمع الجديد الذى هاجروا اليه .

وهناك ثانيا : مشاكل يواجهها المصريون المهاجرون في مواجهة مستقبلهم .

وثالثــا : مشاكل يواجهها المصريون المهاجرون بالنسبة لانفسهم .

× × ×

ولو اخذنا النوع الاول من المشاكل فسنعرف انه مشكلة تكيفهم الاخلاقي مع هذا المجتمع الجديد . فالرجل هنا يجب ان ينظر الى المرأة بمنطق الزميل ، الصديق ، وليس بمنطق الصائد الذى يطارد فريسة امامه .

والرجل هنا يجب ان ينظر الى رئيسه في العمل على انه صاحب العمل ، وليس مجرد رئيس للعمل . انه ــ في حالة وقوع خطأ كبير منك ــ لايعاقبك ــ انه يبساطة يفصلك !

والصديق هنا يجب ان ينظر الى صديقة على انه مجرد شخص له : صباح الخير وانتهى الامر : لا عواطف لا علاقات شخصية .. لا شلل . ان المصرى اعتاد في بلده على ان وجود شلة من الاصدقاء هو شكل من اشكال الاحساس بالامن الاجتماعي لا شلل هنا .

والمصري اعتاد على أن الصديق هو الشخص الذى يلجأ اليه وقت الشدة . يقترض منه مثلا . لا قروض شخصية هنا .

والمصري اعتاد على أن الزميل والصديق والقريب هم أشخاص يجاملونه فى كل مناسبة . لا مجاملات هنا . فى الواقع ان اى انسان يذهب الى المستشفى مثلا لاجراء عملية جراحية لا يتلقى سوى بطاقة تمنيات بالشفاء تصله من أصدقائه بالبريد .. بالكثير .. باقة ورد .. لا زيارات ، لاسلامات ، لاتليفونات .. وحتى الشخص الكندى عندما يدخل مستشفى فان زوجته لاتجلس حتى تجرى العملية . انها تدق من عملها تليفونا للطبيب لتطمئن منه : هل نجحت العملية ؟! بعدها فقط ــ بعد ان تخرج من عملها ــ ربما تذهب الى زوجها لتزوره فى المستشفى .

والمصري الذى اعتاد فى مصر على ان « الاولاد زينة الحياة » .. سوف يكتشف هنا ان الاولاد هم « عبء الحياة » .. انه لن يجد هنا ابا له سبعة أولاد ، او ستة او حتى اربعة .. بالكثير اثنين، او ثلاثة . بل أن المصرى الذى عاش فى بلده يسمع شعارات تحديد النسل باعتبارها مجرد شعارات ، سوف نكتشف ان تحديد النسل هنا ليس شعارا وانما ضرورة .. ان انجاب طفل جديد هنا معناه ان الزوجة يجب أن تتوقف من العمل . وتوقف الزوجة عن العمل معناه اهتزاز ضخم يصيب دخل الزوجين .. وحتى اذا تحمل الزوجان هذا الاهتزاز فان مصروفات هذا الطفل الجديد لابد من حسابها مقدما .. وعلى راى احد المصريين المهاجرين بمونتريال واسمه عادل فهمى :

« انا فى الحقيقة متزوج منذ ست سنوات .. زوجتى كمصرية طبعا .. انها تعمل موظفه فى رويال بنك بمونتريال .. موظفة تحصل على مرتب ٥٥٠ دولارا فى الشهر ومع ذلك فاننا بعد ست سنوات من الزواج لم تنجب طفلا واحدا .. اننا نحن الذين نريد ذلك . فاننا لو انجبنا فيجب أن تخسر زوجتى الـ ٥٥٠ دولارا التى تحصل عليها كل شهر .. اننا سوف ننجب طبعا اطفالا فى المستقبل ، ولكن .. ليس قبل ان نبنى الاساس اللازم لتربية طفل جديد فى مستوى معقول من المعيشة » .

وحتى اذا لم يكن المصرى المهاجر راغبا فى انجاب اطفال جدد ، وحتى اذا لم يكن متزوجا اصلا ، فان مشكلة اخرى سوف تواجهه : **مشكلة البحث عن زوجة ..**

ان بعضهم يتزوج طبعا بفتاة كندية ، او امريكية ، او اية فتاة اخرى .. ولكن معظمهم يفضل — فى الواقع الفتاة المصرية . هنا نجد اكبر مشكلة اجتماعية تواجهها الجاليات المصرية .. فى كندا .. وفى امريكا ايضا .. فالمصريون الشبان — غير المتزوجين — الموجودين هنا فى كندا — تزيد نسبتهم عن المصريات الشابات غير المتزوجات بحيث تصل الى عشرة شبان مقابل كل فتاة واحدة !

نعم .. عروس واحدة مقابل كل عشرة رجال . هذه حقيقة . هذه فى الواقع مشكلة .

فلان الذين يهاجرون هم غالبا شبان ! ولان هؤلاء الشبان يفضلون البقاء سنة او سنتين او خمسا قبل الاستعداد للزواج .. فانهم حينما يستديرون حولهم للبحث عن عروس مصرية يجدون ان عدد الفتيات اللاتى فى سن الزواج هم قليلات نادرات. ان العائلات المصرية موجودة طبعا ، والفتيات فى هذه العائلات موجودات طبعا ، ولكنهن غالبا صغيرات السن .. صغيرات جدا على الزواج .

ولقد قال لى **الاب روفائيل** ممثل الكنيسة المصرية فى كندا وامريكا . **« اننى فى كل مكان اذهب اليه .. فى كل مدينة اذهب اليها بحكم عملى .. فى مونتريال او تورنتو او اوتاوا .. وحتى فى نيويورك او بوسطن .. اجد دائما نفس السؤال : الا تعرف لنا عروسا مصرية مناسبة ؟.. انها فى الواقع مشكلة كبيرة يواجهها الشباب المصرى المهاجر هنا فى كندا وامريكا على السواء » ..**

ان هذه المشكلة — مشكلة البحث عن عروس — يواجهها الاب روفائيل منذ بدأ عمله فى كندا ، اى منذ اكثر من ثلاث سنوات .

ولقد واجهت انا نفس هذه المشكلة مرة منذ شهور قليلة . . كانت المشكلة هى مشكلة صديق مصرى يعمل معيدا فى احدى الجامعات بامريكا . انه معيد .. ويعد رسالة الدكتوراه لكى يقدمها الى الجامعة الامريكية التى يعمل بها .

وفوجئت ذات يوم بهذا الصديق فى مصر وهو يقول لى : لقد جئت فى اجازة لمدة اسبوعين .. انها اجازة مفاجئة اننى اريد الزواج ! نعم انا الان فى سن مناسبة (٣٥) ودخلى مناسب (٨٠٠ دولار شهريا) .. وارجو ان اتمكن فى اختيار عروس لى خلال هذين الاسبوعين اللذين ساقضيهما فى مصر. اسبوعين لا عمل لى خلالهما سوى : البحث عن عروس !

وابديت للصديق شكي الشديد فى امكانية عثوره على عروس مناسبة خلال اسبوعين ان المسالة هي بحث عن زوجة .. وليست بحثا عن زوج من الاحذية !! وقلت له من الافضل ان تلجا الى اسرتك لعلها تجد حلا لهذه المشكلة .

ولكن الصديق المصرى لم يكن يثق فى راى اسرته . انهم ــ بالكثير ــ سوف يختارون له عروسا من البيت المجاور فى قريته بينما هو يريد عروســا متعلمة ، مثقفة ، تستطيع الحيــاة معــه فى امريــكا ..

وبالطبع ظل صديقى هذا يؤجل عودته الى امريكا اسبوعا ثالثا ورابعا ، وخامسـا ، وعاشرا .. الى أن عاد من جديد الى امريكا بعــد شهرين ونصف شهر دون العثور على العروس المطلوبة .

انها بالحق مشكلة .. وهى مشكلة يواجهها كثير من الشــبان المصريين المهاجرين فى امريكا وكندا .

× × ×

ومع صعوبة هذه المشكلة ، فانها فى الواقع ليست اهم مشكلة يواجهها المصريون المهاجرون فى كندا . انها ــ حتى ــ ليست اخطر مشكلة ، ولا هى أكثر المشاكل الحاحا ..

ان اخطر مشكلة هى ــ فى الحقيقة ــ قدرة المصرى المهاجر على مواجهة مستقبله فى هذا البلد الجديد الذى يهاجر اليه .. كندا . فى حالته هذه .

ان المصرى عندما يهاجر يجب ان يفرق بين شيئين مختلفين :

اولا : البحث عن العمل ..

ثانيا : البحث عن العمل .. المناسب .

هناك فارق كبير بين الاثنين . فالعثور على عمل ــ اى عمل ــ ليس هو المشكلة . ولكن المشكلة هى العثور على العمل المناسب . ان الخطوة الاولى قد تستغرق اسبوعا او شهرا . ولكن الخطوة الثانية قد تستغرق سنة .. او حتى خمس سنوات ..

ان عدم الاستعداد النفسى السابق لمواجهة هذه المشكلة .. قد كان سببا ــ مع اسباب اخرى طبعا ــ فى حالات الفشل القليلة التى واجهها مصريون هاجروا الى كندا ، وسمعت بقصصهم هنا ، فى مونتريال .

مثلا .. مهندس معمارى ، كان يعمل ، مدير ادارة احــدى المؤســسات العامة الكبرى فى القاهرة .. عندما هاجر هذا الرجل الى كندا حاول ان يعمل مهندسا معماريا . ففشل . لقد فوجىء

بانهم لايعترفون بشهادته .. وان كل ماهو ممكن بالنسبة له ان يعمل كرسام معماري .. وليس كمهندس معماري .

ولانه اعتاد في مصر على ان يكون مديرا ، وليس حتى مجرد مهندس .. فلقد كانت هذه الحقيقة جديدة بالنسبة له .. حقيقة مؤلمة . انه الان لن يجد ساعيا يقف له بسبب وبغير سبب، لن يجد مرءوسا ينحني له باعتباره « سعادة البيه » انه هو نفسه يجب ان يبدأ حياته كمرءوس جديد .

لقد ظل هذا المصري المهاجر في اضطراب نفسي شديد لمدة اربعة اشهر . اضطراب لم يستطيع بعده ان يقنع نفسه بان العمل المناسب لخبرته سوف يتأخر قليلا .. وان عليه اولا ان يحصل على عمل .. اي عمل .. كخطوة اولى .. وحينما لم يستطع التغلب على هذه المشكلة النفسية .. جمع حقائبة وعاد الى مصر من جديد .. عاد الى فنجال القهوة والساعي وسعادة البيه دخل .. وسعادة البيه خرج !

واذا كان هذا النموذج المصري لم يستطع التفرقة بين العمل .. والعمل المناسب ، فان مصريين آخرين كثيرين قد ارغموا انفسهم على الاقتناع بهذه التفرقة .

خذ مثلا هذا النموذج : المهندس سعد فهمي حنا . انه مهندس مصري ، متخرج من هندسة القاهرة منذ ١٨ سنة . مهندس معماري . مهندس كان آخر عمل له في مصر هو المتابعة والتخطيط بالمؤسسة المصرية العامة للاسكان والتعمير .

وعندما هاجر سعد الى كندا منذ ثلاث سنوات اكتشف حقائق كثيرة لم يكن يعلمها من قبل .. اكتشف مثلا انه لكي يعمل مهندسا فلابد أن يحصل على عضوية نقابة المهندسين المعماريين . ونقابة المهندسين .. مثل اي نقابة اخرى في كندا ـ تضع شروطا قاسية لمنح العضوية .. لان من مصلحة اعضاء النقابة ان يقللوا على قدر الامكان من دخول اعضاء جدد في المهنة ، ليس امامه الآن سوى واحد من حلين .

الحل الاول تنفيذ شروط النقابة : ثلاث سنوات خبرة في الاعمال المعمارية . بكندا ، بالاضافة الى النجاح في اختبار ـ خاص يعقدونه في المحاسبة وادارة الاعمال لتثمين الاراضي. وهذا كله يأتي بالطبع بعد الحصول على بكالوريوس في الهندسة المعمارية ، من احدى الجامعات التي تعترف بها النقابة ، وليس فيها بالطبع جامعة مصرية ..

والحل الثاني : هو العمل مؤقتا كرسام معماري .. وليس كمهندس معماري حل مؤقت الى ان يستطيع سعد ان يحل مشكلته الرئيسية فى العمل كمهندس معماري .

و .. بالطبع قبل سعد الحل الثاني . حل عملى . لهذا عمل كرسام معمارى (ب ٦٠٠ دولار مرتبا فى الشهر) . لمدة ستة اشهر ولان المكاتب المعمارية هنا ــ فى كندا ... تقوم وتنتهى على اساس مهمة محددة ، فان المكتب صفى بعد ستة اشهر حينما انتهى العمل المسند اليه . بعدها عمل سعد بمكتب آخر لمدة سنة هذه المرة .. بعدها عمل فى مكتب ثالث ، ب ٨٠٠ دولار كمرتب شهرى هذه المرة . وهو العمل الذى يقوم به حاليا .

اما لو كان سعد قد حصل على عضوية نقابة المهندسين المعماريين فان الوضع كان سيختلف معه جدا . فمرتب المهندس المبتدىء هنا ــ فى كندا ــ يبدأ بثمانمائة دولار فى الشهر .. بالاضافة الى انه يعتبر شريكا فى المكتب الذى يعمل به . شريكا بغير مساهمة فى راس المال .. وهذا معناه أن دخل المهندس المبتدىء لا يقل عن ١٠٠٠ دولار فى الشهر .

ولكن .. لان سعد وجد مشكلة لم يتنبأ بها عند طلب عضوية نقابة المهندسين .. فانه لم يقف عاجزا .. ولم يشعر بالفشل . او يحس بالهزيمة .. لقد استطاع أن يفرق بين ضرورة البحث عن اى عمل فى البداية .. الى ان يتمكن من العثور على العمل المناسب فى النهاية ..

واذا كان سعد قد اختار العمل كرسام معمارى بدلا من مهندس معمارى ، فان مهندسا آخر ــ مهندس كهرباء هذه المرة ــ قد اتجه الى التدريس .. انه الان يعمل مدرسا للطبيعة باحدى المدارس الثانوية فى مدينة اوتاوا عاصمة كندا .. بمرتب سنوى يبلغ ١١ الف دولار .

والواقع انك ستجد فى كندا ان حوالى نصف المصريين المهاجرين يعملون بالبداية اعمالا غير التى تخصصوا فيها فى مصر أو غير التى توقعوها فى كندا .. سوف تجد مثلا خريج حقوق أو تجارة يعمل بائعا فى محل بقالة أو طبيبا يعمل تحت التمرين أو مهندسا يعمل مدرسا ..

× × ×

ان احد الاسباب الرئيسية فى ذلك هو ــ كما اشرت من قبل ــ

تحكم النقابات المهنية هنا فى كل مهنة فكل الناس هنا لهم نقابات، حتى موظفو الحكومة لهم نقابات فرعية ثم نقابة عامة . ولان النقابة هي بطبيعتها تنظيم لحماية مصالح الاعضاء الموجودين فعلا — فانها غالبا تضع شروطا قاسية أمام الاعضاء الجدد . شروطا هدفها اولا المحافظة على المهنة نفسها ، ثم بعد ذلك تخفيض فرص انضمام اعضاء جدد الى أقل قدر ممكن .

والسبب الثاني لمعظم حالات الفشل هنا هو عدم اهتمام المهاجر بكتابته الملخص المطلوب منه عن خبرته .. عندما يقدمه الى الشركة أو المؤسسة التي يطلب العمل بها . مهندس معمارى مثلا كتب فى ملخص خبرته انه كان فى مصر يشرف على بناء العمارات والمبانى السكنية . انه لم يكن يعلم أن المهندس فى كندا مهمته ان . . يهندس . ان الوقوف على ايدى عمال البناء للاشراف على اقامة عمارة هو عمل يسندونه فى كندا الى رجل غير مؤهل مطلقا .

اما المهندس المعمارى فان مهنته اولا ان يضع الرسوم المطلوبة منه .. ثم يمر على المبنى مرة واحدة — مجرد مرور . لهذا عندما كتب المهندس المصرى أن خبرته التطبيقية بعد البكالوريوس هى الاشراف شخصيا على بناء كذا مبنى فى القاهرة .. رفضوه .

والواقع أن قصص الفشل — أو عدم التكيف — بين المصريين المهاجرين فى كندا تمثل اقلية ضمن أغلبية عامة من الناجحين ومع ان الفاشلين اقلية الا انه يظل من المفيد أن نعرف بالضبط اسباب فشلهم .

فبعض الذين يهاجرون يعتبرون انالهجرة بديلا عنالسياحة . . « .. حنخسر ايه يعنى .. اهو الواحد يتفرج الدنيا عايشة ازاى » .. ان من يخرج من مطار القاهرة أو ميناء الاسكندرية بهذا الاحساس سيفشل قطعا . انهسائح اكثر منه مهاجرا . أنتصرفاته التالية كلها لن تكون ابدا تصرفات مهاجر .

وبعض الذين يهاجرون يعتبرون ان عدم الحصول على وظيفة حكومية مماثلة لوظيفته فى مصر .. هو الفشل . ولست أدرى ما هو السحر الذى يوجد فى الوظيفة الحكومية بحيثيظل المصرى مشدودا اليها هكذا حتى فى آخر الدنيا . ان الوظيفة الحكومية هى وظيفة المرتب المضمون ، ولكنها ايضا وظيفة الدخل الثابت . انها وظيفة آمنة .. ولكنها ليست عملا مثيرا للطموح .

ان عدد أفراد الجالية المصرية فى مدينة تورنتو بكندا مثلا يتراوح تقديره بين ٦ و ٨ آلاف . ومع ذلك فان شخصا طيبا

واحدا فقط ــ الدكتور سعيد طلعت ــ هو الذى فتح عيادة خاصة ، وشخصا واحدا فقط هو الذى اقام ورشة لتصليح السيارات ، وشخصا واحدا فقط هو الذى اقام مصنعا للكريستال وشخصا واحدا فقط هو الذى فتح محطة بنزين. الباقون اغلبيتهم الكبرى موظفون . وحتى عندما تسمع عن فنان مصرى اسمه منير حسنى .. استطاع ان يفوز بتصميم جميع الديكورات لمبنى برلمان اونتاريو الجديد ــ فانك تسمع ايضا انه حقق هذا العمل من خلال وظيفته كرئيس لقسم الديكور فى حكومة مقاطعة اونتاريو

ان الاصرار دائما على الوظيفة الحكومية ــ وبغير بديل عنها حتى مؤقتا ــ يمثل واحدا من الاسباب التى تجعل بعض المهاجرين يحس مبكرا بالفشل ، بينما هو فى الحقيقة لم يفشل .. ولكنه لم يخاطر ، لم يغامر .

وهناك عامل جديد يضاف الى مجموعة العوامل النفسية السابقة وهو التوقعات المرتفعة التى تسافر فى عقل المصرى مع هجرته . انه يسافر متوقعا ان يجد كل التسهيلات من ادارة الهجرة اليوم، ويحصل على العمل المناسب غدا ، ويصبح مليونيرا بعد غد . من الجائز ان يحدث هذا كله . ممكن . ولكنه اذا حدث فهو استثناء وليس قاعدة عامة . القاعدة العامة ان المهاجر يجب ان يسافر بروح المحارب ، وليس بروح الباحث عن الثروة السهلة السريعة . انه يستطيع ان يكون ثريا ، ربما يستطيع ان يكون مليونيرا ، ولكن ليس قبل ان يفشل مرة ، ويضيع مرة ، ويفصل مرة ، ويتعب كل يوم ! انه يجب ان يكون محاربا .. قادرا على التمييز الدقيق بين الهزيمة فى معركة .. والهزيمة فى حرب وبين الفشل المؤقت والعجز الدائم .

ان العوامل السابقة تتعلق بالحالة النفسية للمهاجر يوم هجرته . ولكن هناك عوامل اخرى تتعلق بكفاءته الشخصية ، أو بقدرته على التنبه مقدما لعدد من المشاكل .. مشاكل قد تبدو له بسيطة قبل هجرته ، ولكنها لن تصبح كذلك بعد هجرته .

مثلا .. لو افترضنا ان المهاجر يحمل بكالوريوس الطب أو العلوم أو ليسانس الحقوق مثلا .. فانه يجب ان يتنبه الى ضرورة معادلة شهادته قبل سفره. هذا والا .. فلن يعترف احد بشهادته بعد هجرته .. نظرا للقوة التى تتمتع بها النقابات ، والتى أخذنا فكرة عنها من قبل . وفى حالة عدم الاعتراف بشهادته بعد هجرته فانه سيضطر اما للاشتغال بعمل آخر غير تخصصه ، أو

الدراسة من جديد .. دراسة الطب مثلا مع انه طبيب !. واما ان يعمل ويدرس في وقت واحد .

والمشكلة التالية في الاهمية هي اللغة . ان الاكتفاء بتعلم اللغات الاجنبية علي مستوى الجامعة في مصر ليس معناه مطلقا انك تجيد الانجليزية او الفرنسية . في الواقع أن مستوى تعليم اللغات الاجنبية عندنا قد هبط الى درجة لا تصدق . ونتيجة لذلك فان البرامج التعليمية التى كان المهاجر يستطيع أن ياخذها قبل سفره من مصر .. سوف يضطر الى دخولها في كندا - أو اى بلد آخر يهاجر اليه - والا فانه سوف يظل يتخبط عدة اشهر عاجزا عن التفاهم بدقة مع المجتمع المحيط به .

× × ×

واذا كنا قد تناولنا حتى الآن مشاكل المصريين المهاجرين مع مستقبلهم في كندا ، ومشاكلهم مع القيم الاخلاقية المختلفة في كندا ، فسوف يظل امامنا الآن نوع آخر من المشاكل . انها - هذه المرة مشاكل المصريين مع انفسهم !

فاولا - ابتداء من مطار القاهرة - نحن نعامل المصرى المهاجر كما لو كان فارا من الخدمة العسكرية (مع انه ادى الخدمة العسكرية !) نعامله كما لو كان قراره بالهجرة هو جريمة يجب أن يعاقب عليها حتى آخر لحظة . ان بقايا هذه النظرية تمتد لتلاحق المصرى المهاجر .. حتى خارج حدود بلده .

انني اتصفح الآن - وانا اكتب هذه الكلمات - منشورا بالاجراءات والرسوم المطلوبة من المصرى المهاجر . منشورا طبعته ووزعته سفارتنا في كندا . في هذا المنشور تستطيع ان تقرأ ان الرسوم التى يجب أن يدفعها المصرى لاعادة قيده في سجلات القنصلية هي خمسة دولارات . رسوم استخراج شهادة ميلاد هي ثمانية دولارات ونصف ، ١٨ دولارا ، اصدار جواز سفر ٢٣ دولارا ، بدل فاقد لجواز سفر ٢٣ دولارا و .. و .. و .. معنى ذلك ان الاسرة الواحدة المكونة من خمسة أفراد يجب أن تدفع ٢٢٥ دولارا لو تصادف ان احتاج كل فرد فيها الى القيد في القنصلية واستخراج شهادة ميلاد والتصديق على شهادة وتجديد جواز سفره تصور ؟ ٢٥٥ دولارا تطلبها من مهاجر لا يملك في شهوره الاولى اى رصيد يواجه به مستقبلا ما زال مجهولا .

ونتيجة ذلك هي اننا السفارة العربية الوحيدة في الخارج التى تحمل مواطنيها هذه الاعباء .. بينما السفارات العربية الاخرى

تطلب رسوما ايضا ، ولكنها تعفى مواطنيها من الدفع اذا كتب اقرارا بانه لا يستطيع .

ونتيجة ذلك ايضا ان نسبة ضئيلة جدا من المصريين المهاجرين في كندا هي التي تقيد نفسها في سجلات قنصليتنا بالعاصمة الكندية.

اولا بسبب ارتفاع الرسوم ، **وثانيا** بسبب وجود القنصلية الوحيدة بكندا في اوتاوا العاصمة . ونظرا لان العاصمة هي مجرد قرية كبيرة ، فان المهاجرين غالبا ما يتركزون في المدن الكبرى بين مونتريال شرقا وفانكوفر غربا . هذا معناه انه اذا اراد اى منهم التصديق على شهادته او تجديد جواز سفره فلابد ان يضيع يوما كاملا في السفر الى العاصمة والعودة منها . وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك في يومي اجازته ـ السبت والاحد ـ لان القنصلية تكون هي الاخرى في اجازة . يجب عليه اذن ان يخسر اجر يوم من ايام عمله بالاضافة الى تكاليف السفر ذهابا وايابا . . مع افتراض ان اجراءاته ستنتهي في نفس اليوم ، وهو افتراض غير صحيح غالبا ، نظرا للزحام المستمر على الموظفين المحدودين بالقنصلية .

والواقع ان السفير المصرى الحالي في كندا ـ السيد/ **محمد شكرى** ـ قد حاول منذ وصوله اتخاذ الاجراءات الممكنة لتذليل بعض هذه الصعوبات امام المهاجرين المصريين . ففي يوم محدد في بداية كل شهر مثلا . . كنت ارى القنصل المصرى في اوتاوا ـ عبد الفتاح زكى ـ يسافر الى مدينة مونتريال لقضاء يوم باكمله في فندق محدد مقيما بمدينة مونتريال ، لكي يمارس من هناك الاجراءات القنصلية المطلوبة . هذا حل معقول ، ولكنه مازال حلا مؤقتا او غير شامل .

والمسألة في النهاية ليست مجرد اجراءات ، وانما هي اساسا اسلوب معاملة . اسلوب نعامل به مواطنينا المهاجرين في الخارج . ان المصرى المهاجر قد يتقبل كل هذا التعنت في معاملته . . لو تمت هذه المعاملة باسلوب مقبول . لقد سمعت مثلا مئات من المصريين يمتدحون كفاءة قنصل مصرى سابق يعمل حاليا دبلوماسيا بالسفارة المصرية بكندا . انه شاب اسمه : عادل الخضرى . ماذا يستحق المدح في عادل ؟ لا شيء اكثر من انه كان يعطيهم الاحساس بأن القنصلية في خدمتهم وتتمنى مساعدتهم .

ان المسألة في النهاية هي « لاقيني . . ولا تغديني » ! وهذا بالضبط ما تنبه اليه سفيرنا النشط الحالي في كندا : لقد تنبه

الى ان حالة القطيعة القائمة بين بعثتنا الدبلوماسية والقنصلية.. وبين المصريين المهاجرين .. يجب أن تنتهى .

× × ×

ومع ذلك .. فهذه (القطيعة) لم تنته بعد .. لماذا ؟ انها لم تنته لان المصريين المهاجرين فى كندا لم يقوموا هم ايضا بواجبهم . وعلى راى الدكتور مصطفى الهلالى فى شيربروج : **« اننا حتى الآن مازلنا اضعف الجاليات المهاجرة هنا .. رغم اننا من احسنهم تعليما واكثرهم كفاءة . ليس هذا بسبب تفككنا فقط ولكن لانه حتى الان لا توجد لنا رابطة ، ولا حتى ناد ، فى اى مدينة او قرية فى كندا » .**

وفعلا تستطيع ان تجد صحفا ونوادى وروابط وجمعيات للجاليات الايطالية ، اليونانية ، اللبنانية ، السورية .. لكل جالية .. ماعدا الجالية المصرية فى كندا !

ان المنظمات الدينية هى فقط التى تنظم بعضا من النشاط الاجتماعى للمصريين المهاجرين فى كندا . وحتى فى هذا المجال .. لو تركنا جانبا المساجد الاسلامية الموجودة فى ادمنتون ، ولندن او نتاريو ، وتورنتو ، فاننا سوف نجد امامنا فقط الجمعية الاسلامية فى مدينة تورنتو .

ان هذه الجمعية تتكون اساسا من اعضاء باكستانيين وهنود والبانيين ، مسلمين نعم ولكن الاقلية منهم فقط مصريون . ليس هذا فقط ، ولكن الجمعية هى ايضا ـ بحكم اعتمادها الاساسى على تبرعات الاعضاء ـ محدودة الامكانيات . لقد بداوا نشاطهم مثلا منذ عدة سنوات بتاجير صالة فى مبنى صغير غرب مدينة تورنتو ، لكى يمارسوا فيه شعائر الصلاة ويعقدوا الاجتماعات .

وحينما راودهم حلم بناء مسجد ، لم يجدوا امكانيات تسمح بذلك البداية ، فاشتروا كنيسة بسبعين الف دولار لكى يحولوها الى مسجد . ولا انهم اتفقوا على دفع الثمن بالتقسيط فقد بداوا يجمعون التبرعات لدفع اقساط مسجدهم الذى كان فى الاصل كنيسة . وفى احدى المرات قام مليونير مسلم البانى مهاجر بدفع خمسة آلاف دولار . فى مرة اخرى قامت مليونيرة مسلمة باكستانية الاصل بدفع سبعة الاف دولار . المصريون الموجودون ايضا ساهموا بتبرعات تتراوح بين خمسين ومائة دولار لكل شخص .

وبهذه الامكانيات المحدودة تمارس الجمعية الان نشاطها فى مدينة

تورنتو . ان رئيسها الحالى اسمه الدكتور على .. مسلم من اصل باكستانى يعمل استاذا للعلوم الاسلامية فى جامعة تورنتو ويؤم الصلاة كل يوم أحد . طبعا الصلاة هى كل احد لان الجمعة ليست يوم اجازة فى كندا .

فى يوم الاحد يجتمع المسلمون فى ذلك المسجد بتورنتو ــ رجالا وسيدات ــ لاقامة الصلاة اولا ، ثم النزول الى الدور الارضى بعد ذلك لعقد ندوات لتفسير القـــرآن ، أو شراء ماكولات صنعتها العضوات المسلمات فى منازلهن ويتبرعن بحصيلة بيعها لصالح المسجد .

واذا ابتعدنا عن تورنتو لكى نتجه الى مدينة مونتريال فسوف نجد ان المنظمة الدينية الاخرى التى تمارس نشاطا اجتماعيا هى الكنيسة الارثوذكسية المصرية . ان ممثل هذه الكنيسة فى كندا والولايات المتحدة هو القس روفائيل . انه فى الواقع شخصية ممتازة تحدثت عنها فى فصل سابق . ولكن المهم هنـــا ان الاب روفائيل استطاع فى خلال فترة وجوده القصيرة بكندا ان يجتذب عددا كبيرا من المصريين المقيمين فى نيويورك ، شيربروج ، أوتاوا، بنويورك ، بوسطن ، ومدن أخرى كثيرة فى امريكا وكندا .

وبالنسبة لكندا ، فان الكنيسة الارثوذكـــسية المصرية تمارس شعائرها هناك عن طريق كنيسة تستأجرها فى مدينة مونتريال بمائة دولار شهريا ، كحل مؤقت الى ان تقيم الكنيسة الخاصة بها. وفى تلك الكنيسة المستاجرة يقوم المسيحيون من المهاجرين المصريين بعقد الاجتماعات وممارسة شعائرهم أيام الجمعـــة والسبت والاحد كل اسبوع . وفى تلك الكنيسة يقيم الاب روفائيل القداس ويلقى المحاضرات المتتابعة . محاضرات تعالج المشاكل النفسية المعاصرة التى يعيشها الشبان المصريون المهاجرون . مشاكل مثلا ظاهرة الخنافس ، العلاقة بالجنس الآخر ، العلاقة بالاب والام داخل البيت .. الخ .

ومع انه نشاط واسع ، ذلك الذى يمارسه الاب روفائيل فى كندا كممثل للكنيسة المصرية ، الا ان ضعف الامكانيات المادية مازال فى الواقع حاجزا يمنع مضاعفة هذا النشاط. صحيح ان الاب روفائيل اخبرنى انهم يرسلون سيارة تنتظر كل مهاجر مصرى جديد فى المطار أو الميناء ثم يوفرون له بعد ذلك مسكنا رخيصا .. اذا اخطرهم بوصوله مقدما .. وصحيح ان الاب روفائيل يقوم بعقد

القران للمصريين واحيانا تقديم الهدايا لهم مجانا .. ولكن الاب روفائيل نفسه له عدة شكاوى ،. هذه بعضها :

« انجريدة وطنى تاتى لنا من القاهرة مجانا . ولكننا فى الواقع نحتاج الى نسخ من كل الصحف المصرية ارجوك ان تعبر عن حاجتنا الشديدة الى نسخ ــ ولو محدودة ــ من هذه الصحف ،. حتى ولو ارسلت لنا الاعداد الاسبوعية فقط .. فنحن لا نعرف هنا اخبار الوطن سوى من الصحف الاجنبية .. » « لا توجد لدينا كتب او اية مطبوعات سياحية عن مصر . نحن نريد مطبوعات سياحية بالانجليزية والفرنسية . مطبوعات مختصرة ولكن ملونة . ان لدينا عددا كبيرا من المصريين الذين يعملون مدرسين هنا .. وكثيرا ما يسالهم الطلبة عن اية معلومات مطبوعة عن مصر .

« .. نحن نريد من اذاعة القاهرة ان تساعدنا هنا ــ على الاقل بالمواد الاذاعية . ان كل جالية هنا لها برنامج اذاعى تعده لكى يتابع اعضاؤها نشاطهم واخبار وطنهم . اننا لم نتدبر بعد الـ١٥٠ دولارا اللازمة لاستئجار ساعة اذاعية من اى اذاعة محلية هنا .. ولكن وصول المواد الاذاعية الينا من القاهرة سوف يسهل المهمة الى حد كبير » .

« .. اننا نريد برامج عديدة ولكن اهمها فى رايى برامج لتعليم اللغة العربية للصغار . اننا اذا لم تنتبه الى هذه المشكلة فان الجيل الثانى من المصريين هنا سوف ينشأ وهو حتى لا يتكلم لغة وطنه الاصلى .. »

× × ×

ان نفس المشكلة عبرت لى عنها فتاة مصرية هاجرت مع اسرتها الى مونتريال . اسمها **سونيا هنرى حشيمة**. طالبة بكلية الاداب فى جامعة ماكجيل بمونتريال . عمرها ٢٠ سنة . تخصصت فى الأدب الفرنسى . تحلم بالعمل بعد التخرج فى قسم الترجمة بهيئة الأمم المتحدة .

تقول سونيا : اما عن نفسى فاننى اتكلم العربية بطلاقة كما ترى . كذلك اخى اكرام . ولكننا بدانا نواجه هذه المشكلة بالنسبة لاختى الصغرى ماجده ــ ١٢ سنة . ان ماجده تفهم اللغة العربية ولكنها لا تستطيع التحدث بها . وما يضاعف المشكلة ان الصحف المصرية لا تصلنا هنا ، ولا الاذاعة المصرية مسموعة هنا . وهذه مجرد صورة متكررة من مشكلة واحدة تواجهها العائلات المصرية فى مونتريال .. بل فى كندا كلها .

و . . . ما هى نتيجة هذا كله ؟

ان تكيف المصرى المهاجر مع المجتمع الجديد عليه فى كندا هو غالبا مشكلة فردية . ونجاح المصرى المهاجر فى صنع مستقبله فى المجتمع الجديد هو غالبا مشكلة اكثر من فردية واقل من ان تكون عامة . اما نجاح المصرى المهاجر فى الارتباط بوطنه فانه فى الواقع عمل يجب ان يبدأ فى القاهرة .. وليس فى كندا .

ان اقلية محدودة فقط هى التى تعانى من النوعين الاولين من المشاكل . ولكن الاغلبية المطلقة تعانى من النوع الثالث . تعانى من حالة الانفصال والقطيعة القائمة حاليا بين المصريين داخل الحدود .. وهؤلاء المصريين خارج الحدود .

ان المصريين المهاجرين فى كندا يمثلون اول تجربة واسعة لنا فى الهجرة . اول جالية مصرية ضخمة خارج الحدود . ان ارتباطهم بنا يجب الا يتعارض مع اندماجهم فى المجتمع الكندى . اننا نمثل ماضيهم .. ولكن كندا تمثل مستقبلهم . و .. الى ان يتم اندماجهم فى المجتمع الكندى ، فلا بد ان تظل نظرتنا اليهم على انهم مصريون . انهم كانوا كذلك ، وسوف يظلون كذلك .. الى وقت طويل قادم .

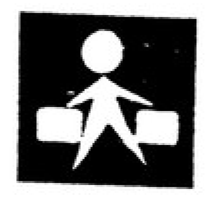
× × ×

هذا هو آخر سطر اسجله قبل الانتقال الى جالية مصرية ضخمة اخرى . انها الجالية المصرية التى هاجرت الى الولايات المتحدة الأمريكية .

ومع ان المجتمع الكندى هو صورة مخففة من المجتمع الأمريكى ، الا انه تبقى فى النهاية عدة فروق اساسية تميز الحياة فى امريكا ـ والهجرة الى امريكا ـ عن الحياة فى ـ والهجرة الى ـ كندا . لماذا اذن نبدأ من البداية . لماذا لا نبدأ مع مهاجر مصرى الى امريكا ، منذ تهبط طائرته لاول مرة فى مطار نيويورك ؟ انها فى الواقع تجربة ممتعة .. دعنا نجربها اذن .

الفصل السابع :

صبح الخير .. في أمريكا !



نيويورك .

مطار كينيدى .

انت الآن فى اول مدينة امريكية على المحيط الاطلنطى. فى الواقع هى اكبر مدينة امريكية . انت الآن تهبط فى واحد من مطاراتها الثلاثة . تهبط وفى راسك اريال يلتقط الانطباعات الطازجة فى هذا البلد الجديد والمجتمع الجديد . عيناك فى حالة تقسيم وظائف : عين ترى .. وعين تتساءل . اذن تسمع .. واذن تتلهف .. يداك فى حالة حمل . من المؤكد انك الآن تحمل فى يدك شيئا ما — ربما عنوانا او عناوين . ربما نصيحة من صديق . ربما حقيبة يد .

ربما بضع علب من السجاير أو المشروبات اشتريتها من الطائرة . حسنا فعلت . فبعد قليل سوف ترى ان علبة السجاير فى امريكا ثمنها نصف دولار ، احيانا ستون سنتا ـ الدولار مائة سنت ، وبحسبة بسيطة سوف نستنتج ان ثمن علبة السجاير يعادل خمسين قرشا مصريا ، احيانا ستين ، هذا اذا كنت قد حصلت على دولاراتك بغير السعر الرسمي . انك لن تتخلص من هذه العادة قبل وقت طويل قادم . عادة تقييم كل شىء على اساس نسبته الى السعر فى مصر . عادة سوف تضايقك نتيجتها كثيرا ، الى ان تبدأ فى العمل فى امريكا . وقتها سوف تكتشف ان هذه الاسعار معقولة بالنسبة لمستويات الدخل فى امريكا نفسها ، وغير معقولة بالمرة بالنسبة لمستويات الدخل خارج امريكا . اصبر ...

انك لم تعمل بعد . فى الواقع انت تفكر الآن فى وسيلة مواصلات تنقلك من مطار نيويورك الى نيويورك نفسها . هذا تفكير عملى . ليس امامك سوى وسيلتين : تاكسى الى المدينة ، او اوتوبيس الى محطة شركات الطيران بالجانب الشرقى او الغربى من المدينة ايضا . لا تركب التاكسى ، ليس بعد انت محتاج الى الدولارات السبعة او الثمانية التى سيحسبها عليك العداد . انك الآن لست فى القاهرة . لقد ودعت اسعار القاهرة .. ولن تجد بلدا فى رخص اسعارها قبل وقت طويل .. طويل !

ان الأوتوبيس اذن هو الوسيلة العملية . وسيلة يستعملها من هو اغنى منك عشرين مرة . ليست هذه هى المشكلة . ولكن المشكلة هى : اى اوتوبيس تركبه ؟ . انك فى مطار نيويورك . مطار كينيدى فى نيويورك . ان كل شركة طيران لها قسمها الخاص من هذا المطار ، أو مطارها الخاص داخل هذا المطار . وانت الآن فى الجناح الخاص بالشركة التى حملتك طائرتها . لقد خرجت بحقائبك ـ اعانك الله ـ تريد الاوتوبيس . امامك اوتوبيسات كثيرة . كل اتوبيس يقف فى جزء خاص به من الرصيف . اتوبيسات تنقلك الى اجنحة شركات الطيران الاخرى فى نفس المطار . اوتوبيسات تنقلك الى المطارين الاخرين فى نيويورك . اوتوبيسات تنقلك الى محطة شركات الطيران بالجانب الشرقى من نيويورك . و .. اتوبيسات تنقلك الى الجانب الغربى من نيويورك . الحكاية كبيرة ؟ معلهش ! حاول ان تسأل واحدا من العاملين فى المطار : لو سمحت .. اين يقف الأوتوبيس الذاهب الى محطة الجانب الشرقى ؟ لو سمحت .. لو سمحت ...

انه لا يسمعك . حاول من جديد . مازال لا يسمعك . حاول للمرة الثالثة . . ربما .

انه لن يرد عليك . واذا اعطاك ردا فهو رد مقتضب . رد يقذفه فى اذنك وينصرف قبل ان تتأكد تماما : ماذا قال لك بالضبط ! لا تندهش . لا وقت عنده لك ولا لغيرك قلت لك لابد ان تنسى ما تعودت عليه فى مصر . الناس هنا يبدون لك متعبين مشغولين باشياء كثيرة فى ايديهم وعقولهم . وما لم يكن الشخص الذى تسأله مخصصا للاجابة على السؤال الذى تريده ، فانك سوف تجده مشغولا . هذا الشخص المناسب لاستفساراتك ربما يكون مضيفة فى مكتب شركة الطيران التى اتت بك الى نيويورك . ربما يكون موظفة اخرى فى مكتب الاستعلامات بالمطار . وربما يكون امريكيا آخر جاء معك فى الطائرة .

المهم . . انك فى النهاية سوف تدبر امرك بشكل ما . وها انت امام الأوتوبيس الصحيح . ناول الحقائب للسائق . اعطه دولارين ونصف دولار . هذا سعر التذكرة . ثم . . اصبحت الآن فى مقعدك ، والأوتوبيس فى طريقه ، الجو بارد ممطر اذا كنا شتاء ، حار مشمس اذا كنا صيفا .

انك الآن فى الاوتوبيس . من المؤكد أنك اخترت مقعدا بجوار النافذة . هذا شىء طبيعى من غريب فى بلد غريب . انك تحاول ان ترى من النافذة اكثر ما تستطيع على جانبى الطريق . مقدما لن ترى سوى منازل . . واعلانات . سيارات . . واعلانات . ناطحات سحاب . . واعلانات . آه . . قبل ان ترى ناطحات السحاب سوف تلاحظ ان الاوتوبيس قد توقف مرة أو مرتين عند بدايات على الطريق . بدايات على الجانبين . كل سيارة تمر من هنا تدفع رسوما للعبور . احيانا ربع دولار ، احيانا نصف دولار . . يقذفه سائق السيارة فى السلة الميكانيكية فيضىء له النور الاخضر امامه اوتوماتيكيا . . الا اذا كان معه دفتر اشتراك . ان كل ولاية تقيم اضخم الطرق واوسعها . . ثم تجمع التكاليف — تكاليف الانشاء والصيانة — من الرسوم التى تدفعها السيارات عند بداية كل طريق ونهايته . هكذا تمول بلدية كل ولاية عملية انشاء الطرق الخاصة بها . لهذا نجد الطرق نظيفة ، مجهزة ، واسعة ، مريضة ، سريعة . الطرق . . والاشارات . . والانفاق .

انك الآن سوف تجد الأوتوبيس قد دخل فى نفق طويل تحت الارض . هذا نفق لنكولن فى نيويورك . بعد هذا النفق تستطيع

ان تقول انك فى نيويورك ، او ــ على الاصح ــ فى جزيرة مانهاتن فى نيويورك . ان هذه الجزيرة ــ بكل هــذه المساحة ، كل ناطحات السحاب المرتفعة ، كل الشوارع الضخمة اشتراها الرجل الأبيض الامريكى من الهنود الحمر بخمسة وعشرين دولارا !

وربما تسير فى هذه الجزيرة طولا بعرض ، دون ان ترى من نافذة الاوتوبيس جندى مرور واحدا . انطباعك صحيح . فاشارات المرور كلها اوتوماتيكية . ان اصــول التنظيم والادارة مطبقة هنا ــ كما هى مطبقة فى اشياء اخرى كثيرة ــ بكل دقة . جندى المرور يحتاج الى مرتب ، ويحتاج الى جاويش براسه ، وضابط براس الاثنين ، ومبنى للجميع ، وربمــا يحتاجون فى النهــاية الى وزارة ووزير و . . لن يسمح دافع الضرائب بهذا كله . انه سوف يسمح فقط بالحد الادنى الضرورى لحفظ النظام والمرور .

ان الاشــارات هنا اوتوماتيكية . اذا اضاء النــور الاخضر فى اشارة ، فانه سوف يضىء فى الاشارات الثلاثين او الاربعين التالية . واذا اضاء النور الاحمر مرة ، وهربت منه ، فانك ستجده امامك فى جميع الاشارات التالية ، لا فائدة اذن فى مخالفة النظام . ثم ان من يخالف اشارة المرور هنا يدفع غرامة مرتفعة للغاية . واذا تكررت الغــرامات والمخالفات فانهم يــسحبون منه رخصــة القيــادة فى الولاية كلها .

ولكنك لم تصبح بعد صاحب سيارة . انت مازلت فى الاوتوبيس . والاوتوبيس قد عبر لتوه نفق لنكولن . خمس دقائق او ست ، ثم . . اصبحت فى محطة الجانب الشرقى من نــيويورك . ها انت قد اصبحت من جديد ــ مع حقائبك ــ على الرصيف . كلهم بداوا من هذا الرصيف . انك ربما تزيد عنهم فى اشياء قليلة . ربما تحمل فى جيبك مثلا عنوان صديق او قريب . ربما تحمل اسم فنــدق . و . . ربما لا تحمل شيئا على الاطلاق .

فى هــذه الحالة سوف تضطر الى السؤال فى المحطة عن ارخص فندق ممكن . ان الحجرة فى ارخص فندق هنا لن يقل سعرها عن ١٥ دولارا فى الليلة الواحدة ، اى اغلى من الحجرة فى فندق هيلتون بالقــاهرة . ولكن . . الم نتفق من قبل على ان اســعار القاهرة لا تقارن ؟ اذن لا داعى للمقارنات ، وفكر فى طريقة اخرى .

انا شــخصيا ــ رغم اننى مجرد زائر ــ وجدت هــذه الطريقة الاخرى . انه ليس فندقا بالمعنى التجارى الدقيق . ولكنه فندق على اى حال ، مقبول على اى حال . الحجرة فيه ضيقة ــ نعم ــ

ولكنها نظيفة . وبها جهاز تليفزيون ومكتب وسرير و ـ الأهم من هذا كله ـ انها بخمسة دولارات فقط فى الليلة الواحدة .. واقل من ذلك اذا اعددت بطاقة عضوية فى القاهرة . انني اتكلم الآن عن جمعية الشبان المسيحيين ، التى تجد لها فروعا فى كل مكان بامريكا ، وفروعا اخرى فى معظم بلاد العالم .. ومن بينها مصر . ان المشكلة هنا هى انك لا تستطيع ان تحجز حجرة مقدما . انت وحظك ..

انك الآن فى محطة الجانب الشرقى ، واقرب فرع لهذا الفندق الرخيص المقبول يقع فى شارع ٤٧ . **بالمناسبة** : شوارع نيويورك منظمة بطريقة مستقيمة للغاية . الشارع الطولى يسمى افينيو ، الاول ، الافينيو الثانى ، الثالث ، ليكسنجتون ، بارك .. الخ . الشارع العرضى يسمى شارع : شارع رقم ١ ، رقم ٢ ، ٧ ، ١٢ ، ١١٢ ، وهكذا ..

لهذا لن تجد صعوبة فى الوصول الى اى عنوان فى نيويورك . وما دامت معك حقائب الآن ، فمن الافضل ان تستقل تاكسيا ، خصوصا أنه فى هذه الحالة سيكلفك اقل من دولار واحد من شارع ٣٩ ؛ الى شارع ٤٧

لقد أوصلك التاكسى ـ لاتنس البقشيش ـ ثم دخلت من الباب الزجاجى الى موظف الاستقبال .

وها انت تسأله : اريد حجرة لو سمحت !

انه يرد عليك : ممكن ... لثلا .. ايا .. فق ..

ـ ماذا ؟

ان الموظف قد رد عليك بكلمات غير مفهومة ، او مفهومة ولكنك لم تلتقطها جيدا ، او التقطتها جيدا ، ولكنك لم تفهمها .

دعنى افسر لك ما قاله الموظف .

لقد قال لك : ممكن لثلاثة ايام فقط !

ولكنه نطقها باللهجة الأمريكية ، لهجة لا تعطيك مخارج واضحة للكلمات . ليس دائما ، ولكن احيانا . انها مشكلة لغة الان . وربما تكون هذه أول مشكلة لك فى امريكا . انك لاول وهلة ستتصور انك لا تتكلم بالانجليزى ، ولكن بالصعيدى .. او تتصور ان اللهجة الامريكية ليست انجليزية تماما . اطمئن .. كلا العيبين موجود ، فيك وفيهم . اطمئن ايضا على انك حصلت على الغرفة يوما او يومين الى ان تتصرف ، او تتجه الى مدينة اخرى فى امريكا .

لقد صعدت ـ مع حقائبك ـ الى الحجرة . انك الآن تحاول

ان تستريح ، ان تنام ، ولكن ، مع ان عينيك حمراوين قليلا ، مع ان جسمك مرهق كثيرا ، فانك لا تنام . ان فرق التوقيت هو السبب . لقد غادرت الطائرة لندن او باريس في الثامنة صباحا .. ثم وصلت الى نيويورك لتجد ان الساعة ماتزال الثامنة صباحا . انها ليست ساعتك فساعتك تشير الى ان الوقت هو الثالثة عصرا ، ولكنه التوقيت المحلي . عندما تصل الى نيويورك اخر ساعتك سبع ساعات ـ في الصيف ستا . انك ربما تظل اول ليلة او ليلتين غير قادر على تكييف جسمك مع هذا التوقيت الجديد ، ولكنك ستفعل في النهاية على اى حال .

وما دمت انك الآن لاتستطيع ان تنام ، فان امامك عدة مشاكل لابد ان تفكر فيها ، النقود مثلا ، كم تكفيك . الطعام .. وكم يكلفك . لاشك انك جائع وتعد نفسك للنزول الى اقرب مطعم في الشارع .

وقبل ان تفعل ذلك فان مشكلة النقود سوف تفرض نفسها عليك مرة اخرى . انك ربما ـ تملك حلا احتياطيا معك في حقائبك . ربما تحمل ذهبا مثلا . نعم .. ذهب . الكثيرون من المهاجرين يفعلون ذلك عندما يهاجرون ، ياخذون بعض الذهب او المجوهرات معهم الى مكان هجرتهم . ماذا في ذلك ؟ اليس الذهب عملة دولية ؟ اليست اسعاره ثابتة ومضمونة في اى مكان في العالم ؟ اليس .. ؟

لا . ليس الذهب كذلك . ان سعر الذهب في مصر من اعلى الاسعار في العالم . الذهب هنا ـ في امريكا ـ سعره ارخص جدا جدا ، ان الذهب الذى يساوى مائتى جنيه في مصر ، يساوى هنا في امريكا سبعين جنيها فقط . هذا ما حدث فعلا مع مصرى اعرفه في نيويورك . لقد اكتشف ـ بعد فوات الأوان ـ انه خسر ٦٥ جنيها في كل مائة جنيه ذهبا حملها من مصر . ثم انه لم ياخذ الـ ٣٥ جنيها الباقية فورا . لابد ان ينتظر الى ان يرسل الجواهرجي عينة من الذهب لتحليلها في المعمل . فعيارات الذهب الموجود في مصر غير معروفة في بلاد كثيرة في العالم . انت لا تصدق ؟ تريد التاكد بنفسك ؟ تفضل ...

انت الآن في الشارع . وقبل ان تنزل لا تنس ان تأخذ مفتاح حجرتك معك . كان مفروضا ان تسلمه للفندق ، ولكن ليس هذا الفندق . انك سوف تلاحظ ان كل فندق في نيويورك قد وضع لك داخل الحجرة عدة اقفال داخل الباب ، وعدة تنبيهات مكتوبة على باب حجرتك من الداخل : « تأكد من انك اغلقت حجرتك

جيدا ، نحن غير مسئولين عن الحجرة اذا لم تفعل ذلك ، وحتى اذا فعلت ذلك فنحن غير مسئولين عن اي نقود أو اشياء ثمينة تتركها فى الحجرة ، ما لم تسلمها الى الفندق » .

ان هذا صحيح فى امريكا ، وصحيح جدا فى نيويورك . ربما تسكن فى نيويورك سنة دون ان تتعرض للسرقة . ولكنك عندما تتعرض لها .. فسوف يسرق منك كل شيء .

انا شخصيا سرقت مني حقيبة كتب مرة .. كتب استغرقت اسبوعا كاملا فى اختيارها وشرائها ، وكلفتني مائة وخمسين دولارا ، كانت غلطة غلطتى .. لقد صعدت الى شقة صديقى فى الدور التاسع من احدى عمارات شارع ٤٤ . كنت احمل له حقائبى لاتركها وديعة عنده قبل سفرى الى كندا . ان الحقائب تتضمن شحنة الكتب الضخمة ، التى كنت على وشك شحنها بالبريد الى القاهرة . كتب معبأة فى حقيبة ورقية كبيرة و .. مفتوحة .

كنت اعلم ان احتمالات السرقة فى نيويورك موجودة فى اى وقت . الوقت كان التاسعة صباحا . ولكني لم اتصور ان لصا سوف يفكر فى سرقة كتب . لهذا تركت الحقيبة بجوار المصعد فى الدور الارضى ، بدلا من اخذها معى الى الدور التاسع والعودة بها مرة اخرى . و . . . يا دوب ــ ثلاث او اربع ثوان قبل ان اعود الى الدور الارضي لاجد ان الحقيبة المفتوحة ــ حقيبة الكتب ــ قد طارت ، اختفت ، سرقت !! حتى تلك اللحظة لم اكن اعلم ان هناك لصوصا متقفين فى امريكا !! الآن علمت .. ! لو كان اللص قد سرق نقودي ، او ملابسي ، او اى شيء آخر ، اى شيء الا الكتب ، لما كنت شعرت بمثل ذلك الحزن . ولكنها كانت غلطتى على اى حال ..

واذا كانت تلك غلطتى ، فماذا تقول فى هذه الحالة : كارول فتاة امريكية مهذبة اعرفها . انها تعمل رسامة . انها تسكن بمفردها فى شقة بالدور العلوي من احد مبانى نيويورك . وفى مرة عادت الى المنزل فى الواحدة صباحا لتجد أن كل محتويات الشقة قد سرقت . كل المحتويات .. ما عدا الكراسى والسرير طبعا . وعندما ذهبت الى كارول بعد اسبوع ظلت حتى دقائق تفتح لى باب الشقة .. خمسة اقفال معها ركبتها فى الباب بعد السرقة . اقفال من كل نوع . اقفال لم تصبح هذه بعدها شقة . لقد اصبحت قلعة عسكرية !

انا لا اقول ان هذا سيحدث قطعا معك . ولكني اقول فقط : ممكن ان يحدث . اقول : احترس ، خصوصا اذا كنت تسكن

او تقيم فى الدور العلوى . احترس .. واعلم انك الآن فى واحدة من اسوا مدينتين فى امريكا : هوليود : ونيويورك .

ان نيويورك هى غابة . اكثر منها مدينة . منذ سبعة آلاف سنة بالضبط ــ هكذا قدر العلماء ــ كان عدد سكان العالم كله اقل من عدد سكان مدينة نيويورك الآن. انها الآن من اضخم مدن العالم واكثرها ازدحاما بالسكان ــ ٨ ملايين . وفى نيويورك ــ حتى ولو لم تكن تدخن سجاير ــ فانك تدخن عشرين سيجارة يوميا ، بسبب دخان السجاير فى الجو .

ان نيويورك مزدحمة ككوبرى ابو العلا بالقاهرة فى عز الظهر . انها واسعة كالمحيط الاطلنطى الذى تطل عليه . واسعة ، مزدحمة ، شرهة ، بغير حدود .. انها تغذيك وتخرب جيبك . ان نيويورك هى الضباب ، الثلج ، المطر ، الحرارة ، القهوة البيضاء . الخبز الاسود ، الجنس ، هى هارلم ، اللحم الاناناس ان اى شىء تتصوره ، أو لا تتصوره ، سوف تجده هنا فى نيويورك .

القرض .. !

انت الآن فى الشارع ، بمفتاح فى جيبك ، وعينين فى راسك ، وكاميرا فى عينيك ، ودولارات قليلة فى جيبك ــ من المؤكد انك الآن مبهور بكل هذه النظافة فى المحلات .. مبهور بكل هذه الاناقة فى الملابس ، بكل هذه السيارات فى الشوارع . ان ٥٠٪ من ضوء الشمس فى نيويورك يحجبه الكربون الناتج من احتراق بنزين هذه السيارات . هل لديك فكرة الآن عن ضخامة عدد السيارات ؟ حسنا ولكن .. ليس هذا هو الشىء الذى يستحق انبهارك فى امريكا او فى نيويورك ان اسهل شىء فى امريكا هو ان تشترى اى شىء ، اقصد تشترى بالتقسيط .

انك تستطيع ان تقترض من بنكك ، تسافر فى رحلة ، تشترى اثاثا لشقة ، تبنى بيتا ، دون ان تدفع مليما واحدا ! اشتر الآن وادفع مؤخرا . سافر الآن .. وسدد فيما بعد . استلم الآن .. وسدد فيما بعد . استلم الآن .. والحساب من الشهر القادم . انه اذن نظام التقسيط .

ان كمية الديون التى يتحملها المواطنون فى امريكا بسبب نظام التقسيط وصلت الى اكثر من مائة الف مليون دولار . اكرر : مائة الف مليون دولار . ان متوسط نصيب الفرد الواحد من مجموع هذه الديون هو اربعون الف دولار . هذا نتيجة للمشتريات المؤجلة الدفع ، من المنازل والسيارات والملابس .. زائد ديون الشركات

وقروض المؤسسات الكبرى . لولا نظام التقسيط هـذا . لاضطر المستهلك الى التخلى عن فكرة شراء منـزل او سـيارة او موقد كهربائى .. الى ان يدخر نقودا كافية ، الامر الذى لا يحدث ابدا .

انك ربما تتصور الان ان نتيجة هذا النظام هو ان الافراد الذين تراهم امامك فى الشارع يعيشون فوق مستوى دخلهم . غير صحيح طبعا . كل المسالة ان نظام التقسيط زائد الاعلانات ، يقنعانك فى امريكا بضرورة اشياء كثيرة .. هى اصلا من دلائل الرفاهية . ان اوربا لديها اشياء آخرى تجعل هذه الدلائل غـير هامة . ولكن فى امريكا .. فى امريكا .. حسنا .. ليست امريكا فقط ، انه العالم كله ـ فى العالم كله يوجد اناس لا يدخرون الا وهم تحت ضغط المسئولية التى يتحملونها بسبب وجود دين عليهم . انت تعرف طبعا

انت تعرف الان لماذا ترى امامك كل هذه السيارات الضخمة ، كل هذه المحلات الكبيرة ، كل هؤلاء الفتيات الأنيقات اللاتى تراهن امامك مسرعات فى الشارع .

هذه الفتاة مثلا .. انت تراها تسـير امامك . تسير انيقـة ، مسرعة . انها تلفت نظرك . ايه رايك ؟ تحب تعاكسها ؟ جرب .

انها لن تصفعك بالقلم . لن ترد عليك . لن تقول : يا سم ! لن تجعلك فرجة فى الشارع . لن تستدعى جندى البوليس . فقط ، كل ما سترد عليك به هو: التجاهل.. الاستغراب فى البـداية ، ثم التجاهل لابوقت عندها حتى لتقول لك : ياسم .

انها قادمة من عمل ، او ذاهبة الى عمل . انها تحترم نفسها . وعليك انت ايضا أن تحترمها ، وتعجب بهـا ، ثم .. ثم .. ان الاعجاب من أول نظرة ، أو الحب من اول نظرة ، لا يوجـد مطلقا فى المجتمع المفتوح . انه يوجد فقط حيث يكون المجتمع مغلقا ، حيث الحواجز بين الفتى والفتاة مرتفعة ، حيث كل من فى المجتمع : الاب الام ، الاخ ، الجيران ، الاصدقاء ، يقيمون من انفسهم حراسا على سلوك الفتاة .

ان الفتاة التى تراها فى الشارع امامك الان هى فتاة مختلفة . فى الواقع انه لم يحدث فى التاريخ من قبل ان تمتعت فتاة بحرية كاملة كما تتمتع هذه الفتاة امامك . انها تـتحرك ، وانت مندهش لها . ان الثوب القصير الذى تراه على جسمها امامك هو رمز لتحررها الكامل . انها تكسب من النقود ما يكفى ليجعلها تعيش مستقلة عن اسرتها لو ارادت .. دون ان يقال أن هذا عمل فيـه شجاعة ، أو فجور . واذا فضلت أن تعمل على ان تتـزوج ، فان المجتمع

يسميها فتاة عاملة ، ولا يسميها عانسا أو مستهترة . ان والديها ينصحانها ، ولكنهما لا يمليان أرادتهما عليها . ان الحياة والزواج لم يصبحا بالنسبة لها مسألة يقرر الوالدان تدبيرها لها بين اربعة جدران بعيدا عنها . هذه حياتها هي ، هذه مسئوليتها هي ، هذه حريتها هي . .

× × ×

و . . انت وحدك ، فى شوارع نيويورك .

انت وحدك ، فى يومك الاول هذا . انك فجأة تحس بهذه الوحدة هذا الضياع ، هذا الانعزال . تحس انه لا أحد يلتفت اليك ، مع انك تلتفت الى كل الناس فى الطريق . انك الان تحس بانك طفل يتعلم الشئ لاول مرة . كل شيء حـولك جديد كل حقيقة امامك صعبة الفهم . انك لم تحس فى اى وقت ـ كما تحس الان ـ بانك فى حاجة الى صديق ـ الى أذن تسمعك وكتف تتقاسم معك الهموم والله زمان يا مصر !

مصر . .؟ ان بينك وبينها الآن اراضي وبحارا ومحيطات ولكنك الان ـ فى هذه الدقيقة ، هذه اللحظـة بالذات ـ تحس أن مصر ليست فى الحقيقة بعيدة عنك بهذه الدرجة . ليست كذلك . . لانها فى داخلك . اذا كانت المانيا جنسا ، وايطاليا لغة ، واليونان تاريخا ، وفرنسا تقاليد ، وبريطانيا جزيرة ، فان مصر هى . . نهر انت واحد من ابناء هذا النهر . هذا النيل .

ان ابناء الانهار لهم جذور لهم حضارة ، لهم تاريخ .

ان كل هذا التاريخ محشـو فى داخلك . انه فى داخلك ، حتى بغير وعى . لهذا سوف تسير مصر معك اينما ذهبت . انها الان فى داخلك ، فى أعماقك . انها تنبض داخل شرايينك . تدق داخل قلبك . انها شيء تحت الجلد . شيء يجرى فى الدم . انها لن تخرج من عقلك الا اذا خرجت الدماء من شرايينك . من قلبك .

ان اشياء كثيرة فى مصر لم يكن لها معنى فى حياتك من قبل . . بدأت الآن تصبح ذات معنى . الشمس ، الدفء ، الحرارة العواطف الاهرام ، ميدان التحرير ، العجوزة وركوب الاتوبيس ، اقراص الطعمية ، الفول المدمس . انك ـ حتى ـ ربما تحس الآن بأن الحياة سوف تموت فى داخلك بغير طبق فول مدمس !

انك عندما ركبت الطائرة من القـاهرة تصورت انك تركت فى المطار كل حمولاتك الزائدة : المنزل ، الاسرة الاصدقاء ، الاقرباء ، الوظيفة ، قسط التليفزيون !

ولكن هذا كله في الواقع مازال معك في نيويورك . ان مصر التي تتابع صورها المختلطة في رأسك الان كشريط سينمائي هي صوت أم كلثوم ، عيني على العاشقين ، الموسكي ، القلعة الحسين الفيشاوي ، رمضان ، الفوازير ، وتفكير في حل الفوازير !

مصر هي أهل الهوى ، قصر النيل ، النيل، شط اسكندرية . خايف أقول اللي في قلبي ، وبقايا المرتب في آخر الشهر ·

مصر هي التراب ، الارض ، أنا وهو وهي ، شارع سليمان ، الطاولة ، المقهى ، مايطلبه المستمعون ، ان شاء الله ، السيدة زينب الفاتحة لام هاشم !

مصر هي ألف ليلة وليلة · الكلمات المتقاطعة ، الناس مقامات ، بات مغلوب ولا تبات غالب ، سلام عليكم ، الادب فضلوه عن العلم ، الشهادات ، أمين ··

مصر هي هذا كله · حيث أيام الاسبوع كلها نسخة كربونية متماثلة ، السبت مثل الاحد مثل الجمعة. لا. ليس مثل الجمعة. يوم الجمعة كان هو اليوم الذى تنام فيه حتى الظهر ، وتترك ذقنك ، وتلبس البيجاما ، وتسرح على الناصية وتشاهد فيلما في التليفزيون · حيث الحياة تسير على مهل شديد ، حيث المجاملة ، والتسامح ، ومعلهش ، وربنا يسامح ، وان شاء الله ، وان فاتك الميرى اتمرغ في ترابه ·

مصر هي هذا كله · مصر هي بائع اللبن في الصباح (لن ترى في نيويورك بائع لبن) · حيث البائع يدق بابك في الفجر ، صباح الخير يا أحمد أفندى ! يا على أفندى ! يا ماهر بك ! » · ان اللبن مغشوش ، مغشوش ، ولكن لا يهم ، المسامح كريم · بكلمة صباح الخير أزال لك البائع كل أفكارك عن الغش · اعتمادنا عليك يا رب !

مصر هي هذا كله · أكثر من هذا كله · انها لم تعد الآن مجرد ماض تتركه خلفك وتنصرف · مصر الان هي ذكرى · حنين · شوق · رغبة. أمل. انها لم تكن ابدا مجرد فصل انتهى من حياتك، مجرد جملة اعتراضية من حياتك . انها .. حياتك حيث يكون لديك الاحساس بأن العبقرية هي التوسط ، هي الاعتدال ، هي الصمت ، هي عدم الخطأ ، هي التسامح ، هي منتصف الطريق ، هي راحة البال. لن تجد في نيويورك راحة البال !

انت هنا قطعة فوق سطح من الصفيح الساخن · النار في جيبك في رأسك ، في معدتك ·

ان معدتك تطلب طعاما . وانت الآن تريد طعاما .
تذهب الى مطعم ؟

هذا مطعم قريب أنت تدخل ، تجلس ، تمسك بالقائمة ، ثم تجد الجرسونة على راسك .

ان القائمة في يدك ، ولكنك قد تسألها : فيه آكل ايه النهاردة ؟! ممكن آخذ فراخ ؟ أو · قطعة لحم مع طبق ارز ، أو · اقول لك ·· بلاش الارز . آخذ عيش .. آخذ .. آخذ ..

انك الان تكلم نفسك · لقد انصرفت الجرسونة · لا وقت عندها لهذه الاسئلة · ان القائمة أمامك اختر ما تريد على مهلك ، وعندما تنتهي الى قرار · نادها ·

المهم ··· انت طلبت ما تريد في النهاية · لست واثقا بالضبط مما طلبته . ولكن · لا بأس عليك من التجربة · والان ، لعلك لاحظت ان الجرسونة بعد أن سجلت طلبك سالتك : تشرب ايه ؟ شاى ؟ قهوة ؟ بيرة ؟

دعك من حكاية البيرة هذه ، وفكر في الشاى أو القهوة · اذا طلبت شايا احسنت . فقط تذكر هنا شاى كشرى . شاى فريسكا · شاى وصلحه ! ان الشاى هو شاى فقط ، القهوة · قهوة ! كل ما هنالك ان الجرسونة تتاكد من أنك تريد قهوة عادية ، أم لا · ان القهوة العادية هى بن مذاب مع لبن ، القهوة السوداء مجرد بن مذاب · طبعا لا توجد قهوة تركى كالتى تشربها فى مصر ، وداعا للقهوة التركى !

ومن الان فصاعدا ، من الان الى أن ينتهى طعامك ، سوف تلاحظ أشياء كثيرة ·

فسواء كنت تتناول طعامك فى مطعم ، أو محل قهوة أو محل بقالة ، فانك لا تجد طاولة ، دومينو ، كوتشينة ، راديو عالى الصوت . خسارة · لا شيء من هذا أمامك · ولا حتى كوب المياه ـ أو جردل المياه الذى تعودنا أن نشربه مع الاكل فى القاهرة · ان الامريكيين والاوربيين لا يشربون ربع المياه التى نشربهـا نحن · حرارة الجو عندنا هى السبب ·

وستلاحظ ان معظمهم لا يأكل الخبز · لقد كتبت الصحف فى « جرسى سيتى » مرة ان استهلاك الخبز ارتفع فجاة بسبب قدوم عدد كبير من المصريين الى المدينة !

وسوف تلاحظ أيضا ان الجرسونة قد أحضرت لك القهوة أو الشاى مع الاكل ، وليس بعد الاكل • هكذا يشربها الامريكى •

وسوف تلاحظ في البداية أيضا ان الذوق الامريكى فى الاكل ربما لا يتفق معك • ليس ربما ، بل من المؤكد • فالامريكى — اذا لم يقدم لك سجق او هامبيرجن — فانه يقدم لك مثلا سمكا وعليه كمثرى ، أو قطعة لحم وعليها أناناس !

وسوف تلاحظ ان بعض الجالسين أمامك أو بجانبك يرتدون أحيانا ملابس غريبة • أو ألوانها غير متناسقة •

مثلا : قميص أزرق وكرافتة خضراء وبدلة صفراء ! ومع ذلك فلا أحـــد يتطـــلع لاحـــد • من كل حسب دولاراته ، والى كل حسب ذوقه يحيا الذوق !

وسوف تلاحظ أيضـا ان كل واحد فى حاله . وربما يدخل رجل ، فيكتشف صديقا له جالسا أمامك • لحظتها يحييه بكلمة واحـدة . هاى ! هى كلمـــة هاى من الاول ، وهاى من الثانى •• وخلاص ! لا قيام ، ولا أحضان ، ولا — حتى — سلامات ! هاى ••

ومن الممكن أن يكون حظك طيبا ويجلس بجوارك واحد من هؤلاء الامريكيين الظرفاء • واحد يبدو عليه مقدما الاستعداد لتبادل كلمة او كلمتين معك . اذا كلمك كلمتين احمد ربنا . ان الانجليزى مؤدب جدا ولكنه بارد • الفرنسى يرفض التحدث معك الا اذا كلمته بلغة فرنسية صحيحة • الالمانى ايدك والارض • أما الامريكى — الشخص الامريكى العادى — فانه يكون ظريفا جدا معك مادام الوقت ليس وقت عمل . انه يستطيع ان يكون صديقك بعد دقيقة واحدة ، وان كان سينسى هذه الصداقة بعد انصرافك بخمس دقائق • المهم •• انه شخص ودود ، ظريف ، بسـيط ، يناقشك بعد خمس ثوان فى موضوعات لا تناقشها انت مع أصدقائك بعد خمس سنين .

واحد من هؤلاء دخل معى مرة فى مناقشة • لم تكن المناقشة فى مطعم — ولكنها كانت فى طائرة •

كانت الطائرة تحملنا من لنـدن الى نيـويورك . لقد قطعت الطائرة نصف المسافة تقريبا • الشمس فوقنا والسحب البيضاء تحتنا . وبدأ الرجل الامريكى المجاور لى فى مقعد الطائرة يتململ ثم بدأ يسألنى :

— هل انت مصرى ؟ غـــريب ! •• قل لى لو ســـمحت ، كيف تركبون الجمال فى تنقلاتكم بمصر ؟

وقلت : نحن يا سيدى لا نركب الجمال • فعندنا قطارات غالبا واوتوبيسات قليلا وسيارات احيانا وطائرات نادرا •

قال الرجل : مدهش : ولكن ، طبعا عنـــدكم طائرات للرجال وطائرات للنساء .. هيه ؟

قلت : لا يا سيدى • عندنا نساء كالرجال : عاملات • وطائرات كالرجال : لا تتنبأ بتصرفاتها !

قال الامريكى ضاحكا : وهل انت متزوج من اربع ؟

قلت : ياسيدى ، ولا حتى واحدة ! ولن استطيع الزواج باربع . لانني لا أريد ، ولان زوجتي ساعتها لن توافق •

قال : وهل تستطيع المراة عندكم الا توافق ؟

قلت : نعم تستطيع ، على الاقل اذا كانت متعلمة •

سال الرجل : وهل عندكم امراة متعلمة ؟

اجبت : عندنا ستون الف طالبة بالمعاهد والجامعات .

قال الامريكى : غريب •• وهل عندكم جامعات ؟

قلت : عندنا جامعات ومستشفيات ومصانع. عندنا سد عال . عندنا أرض وبحر وسماء • عندنا ناس • ناس أساتذة فى الجامعات عندكم • ناس يقدروا يقولوا ان حضرتك تعرف القليل جدا عن الدنيا التى تعيش فيها !

ولم يكن هذا ذنب الامريكى الجالس بجوارى فى الطـــائرة • فى الواقع ان الامريكيين كانوا — الى وقت قريب — من أقل الشعوب اهتماما ودراية بما يحدث خارج حدودهم • والى وقت قريب فقط كان من التقاليد الامريكية ان السياسة تنتهى عند حافة المياه • تنتهى عند حافة الاطلنطى • ان العالم بعد هذا الشاطىء ، كان عالما غير موجود بالنسبة لهم • انه غير موجود •• أو غير مهم •

طبعا الان تغيرت الحالة جوهريا بعد التـــوازن الذرى والطائرات الاسرع من الصوت والاقمار الصناعية • ولكن •• مع هذا •• ما زال ممكنا جدا ان تجد اناسا كثيرين — بل حتى اغلبية — فى امريكا • ما زالوا يتصـــورون ان مصر هى الاهرام والصـــحراء والجمال التى تركبها فى الصحراء • لا تبتئس ربما تواجه بعد قليل ما هو أسوأ من هذا •

نهايته ••• ! انت الان تناولت طعامك • دفعت الحساب • لا تنس البقشيش • ان البقشيش شىء هام فى أمريكا • شىء أساسى ، مرة لم أدفعه فى تاكسى فطلبه منى السائق بغيظ شديد • مرة أخرى لم

أدفعه في مطعم .. فرمقتني الجرسونة بنظرة كادت تصيبني بمرض الحصبة ! وأنا لا أتمنى لك أي مرض في أمريكا . فالادوية اسعارها نار . والاطباء أجورهم نارين . ان أجـــر الطبيب عن تركيب طاقم أسنان مثلا قد يساوي مرتب رئيس مجلس ادارة شركة في القاهرة عن شهر كامل ! انك محتاج لكل مليم — أقصد كل سنت — في جيبك الان . ولعلك لم تنس بعد الدولارات الثلاثة أو الاربعة التي دفعتها حالا في وجبة الغداء .

ان هذه الاسعار الجنونية كانت تدفعني في كل مرة أسافر فيها الى امريكا الى تفادي ارتياد المطاعم نهائيا . حينما يجيء وقت الغداء ، ومهما كنت في أي مكان في نيويورك ، فانني أستقل الاوتوبيس الى مبنى هيئة الامم المتحدة .

على فكرة : لاتدخين في الاوتوبيس ، رغم انك تدفع ثلاثين سنتا كسعر موحد لاى مسافة تركبها . ان الاوتوبيس قد يستغرق ربع ساعة ، نصف ساعة ، وأحيانا أكثر من هذا .. لكي أذهب في النهاية الى الامم المتحدة . ولماذا لا؟! ، فيها كافتيريا ظريفة جدا، نظيفة جدا، رخيصة جدا ، وهذا هو المهم . ان أحسن وجبة تناولتها هناك في أي مرة كلفتني أقل من دولارين ، مع مراعاة أنه لا يوجد بقشيش تدفعه في هذه الكافيتريا لانها تعمل بنظام اخدم نفسك بنفسك .

ولكنك للاسف ، لن تستطيع تناول طعامك في هذه الكافيتريا . فدخول الامم المتحدة يحتاج الى تصريح أو بطاقة خاصة . ومع أنني في كل مرة كنت أحمل تصريحا دائما . الا أن الامم المتحدة تعمل خمسة أيام في الاسبوع فقط . أمريكا كلها تعمل خمسة أيام فقط . ماذا أفعل في يومي الاجازة : السبت والاحد ؟

لقد حسبتها مرة فوجدت أنني سأدفع عشرين دولارا على الاقل في وجبات الطعام الست فقط خلال هذين اليومين .

وبعد تفكير .. اهتديت الى حل . لماذا لا أشترى معلبات وأشياء جاهزة ، وأتناولها بحجرتي في مواعيـــد الطعام ؟ هل يكون هذا أرخص ؟ هل يكون أغلى ؟ لست متأكدا بعد .

وفعلا . . دخلت محل بقالة واشتريت : فرخة محمرة ، علبتي لبن كبيرتين ، ثلاثة باكوات فستق ، اربع تفاحات ، أربع أصابع موز ، برتقالتين ، طماطم ، ربع كيلو جبن سويسري ، صابونة وجه ، علبة أناناس ، زجاجتي بيرة ، باكو عيش ..

ان هذه « الحمولة » كلفتني تسعة دولارات ، من بينها ثلاثة دولارات ثمن الدجاجة وحدها . دجاجة كبيرة .

و .. بهذه الدولارات التسعة لم أقض يومين فقط ، ولكن أربعة ، بغير الذهاب الى مطعم ، أو حتى الى كافيتريا الامم المتحدة .

ان جوهر المسالة هنا هو أن الحياة المنزلية ، الحياة بعيدا عن المطاعم ، بعيدا عن المحلات العامة ، تستطيع أن توفر لك نصف التكاليف على الاقل في أي مكان في العالم ، فما بالك بأمريكا ؟

ان أي سلعة تصنعها الآلات في أمريكا هي سلعة رخيصة . وأي سلعة يدخل فيها مجهود بشري يدوي سوف تصبح فورا سلعة غالية . قاعدة عامة .

ان مسح الحذاء مثلا يكلفك ـ بالبقشيش ـ حوالى نصف دولار . بينما لو اشتريت علبة ورنيش وفرشاة وفوطة (كلها في علبة خاصة) فانها ستكلفك دولارين وتكفي حذاءك لمدة شهرين على الاقل .

لقد حدث مرة ان تآكل كعب حذائي . لقد استهلك من كثرة السير على الاقدام طبعا . وعندما دخلت محلا لتركيب كعب جديد للحذاء لم تستغرق العملية كلها أكثر من دقيقة واحدة . ولكني عندما دفعت الحساب اكتشفت أن هذه العملية البسيطة قد دفعت فيها ثلاثة دولارات ، اي اكثر من ثمن الحذاء نفسه الذي اشتريته من القاهرة. ولمدة دقيقة او دقيقتين. فكرت في ان اتوقف من الآن فصاعدا عن استعمال الحذاء حتى لا يحتاج لكعب جديد لماذا لا ؟ لماذا لا أسير حافي القدمين ؟ ان أحدا لن يستغرب هذا في نيويورك . انهم ـ حتى ـ قد يتصورونها موضة جديدة !!

ولكني بسرعة طردت هذه الفكرة الجنونية من رأسي !

ان أفكارا جنونية ـ كهذه وغيرها ـ تستطيع أن تراها في أكثر من مكان في نيويورك شارع برودواى مثلا !

ان شارع برودواى هو شارع الليل في نيويورك . في الواقع انه شارع الليل والصباح والظهر والعصر .. وأي وقت ! في هذا الشارع تستطيع أن تقابل عربا ، يهودا ، صهيونيين ، فرنسيين ، انجليزا ، ألمانا ، كنديين ، وأمريكان طبعا . ان كل نوع من الناس موجود هنا : اللصوص قطاع الطرق ، النصابون ، المومسات ، والمحترمون جدا !

كل شيء هنا موجود : المسرح ، السينما ، الكباريهات ،

الليل ، محلات القمـار ، مكتبات ، وخنافس . فى هذا الشارع تجد الجنس بمقابل ، والجنس بلا مقابل • الجنس فى الكتب والمجلات ، والجنس فى الشارع ، والجنس على الشاشة ، ان كل شىء هنا مقبول • كل شىء جائز • كل شىء ممكن •

ان الوقت الآن هو الثانية صباحا ••

كنت عائدا الى الفندق بعد سهرة عند صديق • لم تكن لى رغبة فى النوم بعد ، فظللت أتجول فى هذا الشـارع ، مجرد تجول • ربما للمرة المائة .. ثم قررت أن ادخل سينما . ان السينما هنا تعمل ٢٤ ساعة فى اليوم • معظمها عرض مستمر • قيمة التذكرة تتراوح بين دولارين ونصف دولار الى ثلاثة دولارات •

ان أقرب سينما امامى تعرض فيلما اسمه « مونيكا » • لست اتذكر الآن أسماء أبطاله • ولكننى أتذكر أن اعلانات الفيلم تحمل صورة نصف عارية لامرأتين ورجل ، مع هذه الكلمات : « **اخيرا •• وجدت مونيكا شيئا مشتركا تحبه مع زوجها** » ! انه اذن فيلم يدور حول الجنس • لماذا لا أجرب ؟ أهى مرة ••!

ودخلت السينما ••

لم يكن فى الصالة سوى عشرين أو ثلاثين شخصا متناثرين فى أماكن متفرقة . كل اثنين منهم يشكلان فيلما فى حد ذاته ! لقد اخترت آخر صف ، وجلست على أحد كراسيه ، وبدأت أتابع الفيلم •

ان « مونيكا » زوجة شابة تعيش مع زوجها الشاب وطفلين لهما فى سن الخامسة أو السادسة • انهما متزوجان منذ فترة قريبة اذن ، ومع ذلك •• فان الملل بدأ يحكم حياتهما بشكل ما • طبعا لابد من الملل بعد ست أو سبع سنوات أشغال شاقة !

ان هذا الملل يبدو واضحا كل ليلة عندما ينام الزوجان معا • عواطف آلية ميكانيكية ، تفضل الزوجة عندها قراءة صحيفة أو مجلة •• كلما بدأ زوجها يعبر لها عن حبه •

ثم •• حدث أن هذه الاسرة الصغيرة استضافت فتاة فرنسية جاءت لتقضى بعض الوقت مقابل خدمتها للاسرة • ومن اللحظة التى دخلت فيها الفتاة الى المنزل •• لم يعد أى شىء أبدا الى ما كان عليه • لا الزوج ، ولا الزوجة ، ولا الفتاة نفسها •• أصبحوا شيئا عاديا منذ هذه اللحظة •

ان الزوج يغازل الفتاة بعيدا عن مرأى زوجته •• بعد قليل

يمارس معها الحب فعلا · ولكن الفتاة نفسها تبدأ فى مغازلة الزوجة ·· التى تحس فى هذه اللحظة أن أشياء كثيرة فيها قد استيقظت فجأة ، بعد أن نامت منذ وقت طويل ·

ثم يحدث فى يوم أن يعود الزوج الى منزله فجأة ، ليكتشف أن زوجته تمارس الحب مع الفتاة ·· مع عشيقته · ان المنظر يفاجئه ويربكه ، فيخرج سريعا من المنزل لا يدرى اين يذهب · وتظل حيرته ودهشته مسيطرة عليه ·· الى أن يبحث عن النسيان فى أحضان بائعة هوى · ولكنه لا يستطيع أن يفعل اى شىء مع بائعة الهوى هذه · انه يقص عليها ما حدث ويتساءل مندهشا : « هذا غريب ·· غريب ·· انني لم أقصر فى شىء ·· لماذا أجد مونيكا فى هذا الوضع الشاذ ؟·· لماذا لم أجدها مع رجل مثلا ؟ ولكن لا ·· لو كان الامر مع رجل لأصبحت خيانة · ان مونيكا قطعا ما زالت تحبنى ، ربما كان هذا الوضع أفضل ·· أفضل كثيرا ·· » !

ويعود الزوج الى منزله · ما زالت الدهشة تغطى وجهه ، والارتباك يسيطر على عقله · ان الثلاثة يجلسون على مائدة العشاء صامتين : الزوج ، الزوجة ، وعشيقة الاثنين . ان احدا فى الثلاثة لا يكلم الآخر .. فالزوجان مرتبكان ، لا يدرى كل منهما كيف يفسر الامر للآخر · ثم ·· تتدخل الفتاة ، العشيقة المشتركة · انها تقبل الزوج أمام زوجته · قبلة غرامية · ثم تقبل الزوجة أيضا قبلة مماثلة ، قبل أن تصحبها ــ على مشهد من زوجها المرتبك ــ الى حجرة النوم ، الآن واجه الزوجان بعضهما · الآن أصبح كلاهما يفهم تماما علاقة الآخر بالفتاة ·

بعد قليل يلحق الزوج بالاثنين ويتساءل : هل الحق بكما ··؟ وتكون الاجابة المشتركة من كلتيهما : طبعا .. هذا افضل كثيرا و ·· هذا ما يقصده الفيلم من ان « مونيكا » وزوجها قد وجدا اخيرا شيئا مشتركا يحبانه معا !

ما هى دلالات هذه القصة ··؟

انها تعبير واضح عن الملل الذى يحكم الانسان الحديث بشكل عام · ان هذا الانسان ، فى بحثه عن مخرج من الملل والسأم الذى أصابه فى العصر الحديث ، قد أصبح مستعدا لقبول الحلول الشاذة التى رفضها المجتمع الانسانى طويلا لاعتبارات أخلاقية جوهرية · وحينما تتسرب هذه الحلول الشاذة الى الخلية الاساسية

فيالمجتمع ، الى الاسرة ، فلا ضمان بعد هذا لأىشيء ٠٠ أىشيء !
لقد خرجت من السينما فى الرابعة صباحا لأجد أن بعضا مما رأيته حالا على الشاشة يجرى ـ بشكل مخفف ـ فى الواقع ٠ نماذج غريبة وعديدة من الناس موجودة فيهذا الشارع ـ شارع برودواى ـ فى هذا الوقت ٠

ان كل مدينة كبيرة فيالعالم لها شارع برودواى الخاص بها : فى هامبورج تجد سان باولو ٠ فى باريس تجد بيجال ٠ فى لندن تجد حى سوهو ٠ فى طوكيو تجد حى الجينزا ٠ فىنيويورك تجد شارع برودواى ٠٠

ان كل شارع من هذه الشوارع هو شارع الليل ٠ كل هنا ـ فى هذه الشوارع والاحياء ـ يغمض المجتمع احدى عينيه ٠ هنا يوارب المجتمع بابه الاخلاقى قليلا ٠ هنا تجد الباب نصف مفتوح ٠٠ نصف مغلق ٠ هنا تستطيع أحيانا أن ترى كيف يتصرف المجتمع بعد منتصف الليل . ان الرتوش تختفى من شارع الليل ، من هنا ٠ لا أحد هنا يدعى الفضيلة ، يدعى الاحترام ، يدعى الاخلاق ٠ لا أحد هنا منافق ، أو مزدوج الشخصية ٠ كل واحد على طبيعته : النصاب ٠٠ نصاب ٠ المحترم ٠٠ محترم ٠ العاهرة ٠٠ عاهرة ٠

حسنا ٠٠

لقد وقع صديق لى مرة فىأيدى عاهرة ٠ فتاة منفتيات الليل هؤلاء اللاتى أراهن فى شارع برودواى ٠

اننا نستطيع من الآن أن نفترض أن صديقى اسمه فخرى ٠ انه ليس الاسم الحقيقى طبعا ٠

ان فخرى خفيف الدم ٠ فخرى فىأواخر الثلاثينات منعمره ، نحيل القوام ، خفيف الشعر ، بنظارة طبية على عينيه ، ونظرة استهتار دائمة فى عقله ٠ نظرة صحبها معه الى نيويورك عندما هاجر اليها منذ سنوات ٠ طبعا ٠٠ فالناس لا تتغير طبيعتهم من اليمين الى اليسار فى سن الاربعين !

لقد سألنى فخرى قبل سفره الى امريكا : ما رأيك ؟

وقلت له وقتها : تستطيع أن تهاجر ٠٠ ولكن ليس الى أمريكا ٠ هذه نقلة كبيرة عليك فى هذه السن المتأخرة ، وهذه الامكانيات المحدودة ٠

ولكنه لم يقتنع ٠ لقد كان قراره بالهجرة الى أمريكا بالذات

قرارا غير قابل للتغيير • لهذا عاد يسألني من جديد : ما هو أرخص فندق تنصحني بالنزول فيه في نيويورك ؟ وقلت له : جمعية الشبان المسيحيين •

ثم •• سافر صديقي منذ سنة ، ونزل في هذا الفندق •

ولكنه ـ كما هي العادة غالبا ـ لم يتمكن من النوم في أول ليلة بسبب فرق التوقيت ، فترك حقائبه في الحجرة ونزل في أمسيته الاولى يتجول في شوارع نيويورك ، الى أن وصل الى شارع برودواي • ان هذا الشارع ـ كجزء من نيويورك كلها ـ هو غابة • اذا تصرفت في الغابة بحكمة أصبح برودواي بالنسبة لك مجرد شارع • اذا لم تتصرف بحكمة تحول كل ركن في هذا الشارع الى غابة ضخمة ••

و ••• هذا ما حدث مع صديقي في ليلته الاولى في شارع برودواي •

لقد فوجيء اثناء سيره في شارع الليل هذا بفتاة وسيمة واقفة تقول له : هاي ••

ورد عليها فخري بابتسامة عريضة : هاي ••

انها تسأله : ممكن تقول لي الساعة كام لو سمحت ••؟

ورد عليها فخري : الساعة العاشرة مساء •

الى هنا والامر عادي جدا • بعد لحظة لم يعد أمرا عاديا ••

قالت الفتاة بابتسامة تتسع شيئا فشيئا : يظهر انك غريب هنا

ورد فخري بانجليزية خجول ولهجة تأملمتمة : آه .. فعلا .

ـ يا ترى وصلت امتى ؟

ـ لسه واصل النهارده ••

ـ وياترى نازل فين ••؟

ـ أبدا •• نزلت في جمعية الشبان المسيحيين ، بخمسة دولارات في الليلة •

قالت الفتاة الوسيمة بلهجةمستنكرة : ياه ..! خمسةدولار ؟! يعني مائة وخمسين دولارا في الشهر •• فيمكان بهذه القذارة ؟

واحتار فخري بماذا يرد • وأنقذته الفتاة نفسها حينما بدأ الاستنكار في لهجتها يتجه تدريجا نحو الرقة : اسمع •• انت باين عليك ابن حلال •• انا مستعدة أفرجك على شقة أنظف وأرخص بكثير جدا ، وهي هنا •• في وسط نيويورك •

وتساءل فخري : أرخص ؟•• يعني بكام ؟

ردت الفتاة ـ وما زالت الرقة تتزايد في صوتهـا ـ وقالت : بمائة دولار فى الشهر فقط . شقة كاملة تستطيع ان تفعل فيها أى شيء ..

بعد قليل غمزت الفتاة لفخرى بعينيها ، وتحولت الرقة الزائدة فى صوتها الى اغراء .. قالت الفتـاة : فى هذه الشقة تستطيع ان تفعل أى شيء ، تنام .. تطبخ .. تغسل .. و .. تحب !

يا نهار أبيض ..!

كل هذه التسهيلات والاغراءات والخدمات من فتاة ترى فخرى لأول مرة فى نيويورك ؟.. ياسـلام .. ظريفـة هـذه المدينـة نيويورك .. ان الناس فيها ينجذبون لفخرى من أول نظرة ، بينما لم يكونوا يفعلون ذلك فى القاهرة . طبعا .. فرق كبير .. آدى الناس .. آدى البنـات .. والا بلاش ! تاكسى .. تاكسى .. الى .. الى .. الى أين ؟

ومدت الفتاة يدها بالعنوان مكتوبا الى سائق التاكسى .. خمس دقائق ، عشر دقائق .. ثم أصبح الاثنان فى داخل الشقة ..

ما هذه الشقة .. ما هذا الجمال .. ما هذا الصالون الفاخر ؟ ما هذا الذى .. الذى تفعله الفتاة مع فخرى ؟

انها تحتضنه ، تقبله ، تقول له « كم انت لطيف يا حبيبى ! »

يا ساتر ! « حبيبى » مرة واحدة .. لا .. لا .. هذه المدينة نيويورك هى قطعا أحسن مدينة فى العالم ! هذه الليلة هى قطعا ليلة مفترجة ..

كانت البشائر كلها تدل على ان الليلة سوف تكون «مفترجة» حقا ان الفتـاة لا تنتظر . ان سحر فخرى هو قطعـا الذى جعلها تزيل كل الحواجز فى خمس دقائق . انهـا كانت تحتضنه منـذ دقيقة . انهـا الآن تحتضنه بقوة أكثر ، بغرام أكبر ، ولكنهـا تتذكر فجأة أن فخرى غريب ، وانه ربما يكون مسلحا . ممكن .

« هل أنت مسلح يا حبيبى ؟ » ، هكذا تسـاءلت الفتـاة من مقرها فى أحضان فخرى . تساءلت .. وهى تتلمس مسدسا أو سكينا فى جيوبه ..!

وابتسم فخرى سـاخرا من حذر الفتـاة . ان شخصا وسيما مثله لا يحتاج لأية احتياطات .. خصوصا فى مثل هذه المواقف الملتهبة .

ولكن ابتسامة فخرى لم تدم طويلا ..

فبعد ثانية او ثانيتين ، انفتح الباب فجأة ، ودخل رجل · رجل عملاق - ان الرجل مندهش من وجود فخرى .. طبعا من المؤكد إن هذا الرجل يحب الفتاة ، وأنه مندهش الآن لانها تخونه مع رجل آخر ..

ان شيئا من هذا القبيل دار فى راس فخرى قبل أن يصيح الرجل فى وجهه :

- بتعمل ايه هنا يا مجرم ؟!

مجرم ..؟ ان فخرى ليس مجرما بعد .. انه .. انه ماذا ؟ احتار فخرى فى رده على الرجل · أما الفتاة .. فقد بدا عليها هى الاخرى أنها لا تدرى أيضا كيف تتصرف ..

ولكن الرجل العملاق تصرف · لقد أخرج سكينا وضغط عليها فكادت تلامس وجه فخرى .. بهذا السكين قال الرجل لفخرى آمرا : اطلع بره .. بره .. لو شفتك معاها تانى هاقتلك .. فاهم يعنى ايه ؟.. هاقتلك ..!

وفى أقل من ثانية واحدة كان فخرى فى الشارع .. الحمد لله .. الحمد لله .. لقد انقذ حياته من سكين هذا الرجل المجنون . المجنون حبا بفتاته .

وبحركة تلقائية من فخرى - فهو الآن فى الشارع - أخرج منديلا يمسح به كل هذا العرق الذى تصبب من وجهه · مع المنديل أخرج سيجارة يخفى بها توتره · هذه آخر سيجارة فى العلبة .. لا بأس · فليشتر علبة سجائر ، لعلها تكفى لنسيان هذه الدراما الغرامية ..

وعندما مد فخرى يده الى الدولارات فى جيبه ليشترى سجاير اكتشف أنه لا توجد دولارات ، لا فى هذا الجيب ولا فى اى جيب آخر · لقد سرقت الدولارات من فخرى فى ليلته الأولى · سرقتها الفتاة عندما تلمست جيوبه بحثا عن مسدس أو سكين · يا نهار أسود .. الدولارات ؟ كيف ذهبت الدولارات ؟ لقد اختفت · طارت الثلاثمائة دولار التى خرج بها فخرى من مصر · طارت الثروة · طار رأس المال · طار المال · وطار الرأس أيضا مع المال ! ملعونة نيويورك ، والناس فى نيويورك .. والبنات فى نيويورك ..

× × ×

ولكن المسألة فى الواقع لم تكن فى نيويورك ، ولا فى بنات

نيويورك . فهذه الحكاية نفسها يمكن أن تحدث في نيويورك أو في غير نيويورك . وهذا النوع من الناس يمكن أن يوجد في القاهرة مثلما يمكن وجوده ف نيويورك .

هكذا قلت لفخري عندما قص على الحكاية . قلت له : ان الانسان ليس محتاجا للقدوم الى نيويورك لكي يقع له هذا الحادث . تعال معي الى أى مكان في العالم ، وتصرف بنفس الاسلوب ، وسوف يحدث لك أسوأ من هذا ..

ان هذه الحكاية لها عندي دلالات كثيرة .

فرغم أن فخرى استدعى الشرطة بعد ذلك ، ورغم أن الشرطة حاولت مساعدته في الحدود التي تستطيعها ، الا أن الدرس ما يزال قائما عند فخري حتى الآن . انفخري الآن أصبح يتعرف كمهاجر ، وليس كطالب متعة . ان الزوارق الصغيرة يجب الا تبتعد عن الشاطيء .

و .. أنت لم تبتعد عن الشاطيء ! في الواقع انني أكاد أراك « تبحلق » مثلي في فاترينات المحلات يمينا ويسارا . معقول . أنت ما زلت في شارع برودواى . ناطحات السحاب أمامك . دور السينما على يمينك ويسارك . المحلات أمام عينيك .

سوف تلاحظ أن هذه المحلات تعلق لافتات ضخمة تقول « أوكازيون .. هذه هي الايام الاخيرة للأوكازيون » . ان الاوكازيون في أمريكا معناه أن السلعة التي تساوى مائة دولار تباع بثلاثين دولارا فقط . هذا هو الاوكازيون كما يتم في كل المحلات الكبرى في أمريكا . كل المحلات ، ولكن ليس في هذه المحلات الصغيرة بشارع برودواى . هذه المحلات بالذات . ان أى سلعة تشتريها من أى محل كبير في أمريكا تستطيع — اذا لم تعجبك — انتعيدها للمحل خلال أسبوع من شرائها وتستعيد كل نقودك .. مالمتكن ملابس داخلية . الملابسالداخلية ممنوع اعادتها بحكم القانون .

كل هذا ممكن ف اى محل .. ولكن ليس ف هذه المحلات الصغيرة المتجاورة ف شارع برودواى. فلافتة الاوكازيون معلقة علىهذه المحلات ف مكانها هذا دائما . ربمالانهم يعرفون ان القادمين الى برودواى هم كالقادمين من الارياف الى شارع الموسكى بالقاهرة . ربما لانهم يعلمون ان المستهلك الغريب لايعرف بعد ان هذهالبضائع التى يبيعونها ف برودواى قديمة . ربما لان كلمة « اوكازيون »

سوف تجعلك تشترى ما لم تكن تنوى شراءه . او ربما لان اصحاب معظم هذه المحلات فى برودواى هم .. يهود !

× × ×

هذا هو المكان المناسب لمقابلة اليهود فى امريكا ! انهم هنا منتشرون فى شارع برودواى — ثم فى نيويورك كلها — يملكون المحلات ، الكباريهات ، يعملون فى التجارة ، يضاربون فى البورصة ، يساهمون فى الصحف ، يديرون الشركات . انك تحس ان اليهود ليسوا جنسا ، ولا كان لهم دين . تحس فقط انهم مجموعة اقتصادية . تحس ان المساومة هى تخصصهم ، والتجارة عملهم ، والسمسرة صناعتهم ، والنقود آلهتهم .

هنا بالضبط ، فى برودواى ، فى نيويورك ، ثم فى امريكا كلها .. تستطيع ان تتاكد ان اسرائيل هى هذا : عقل صهيونى ، وجيب يهودى ، واسنان امريكية !.. ان العقل الصهيونى يفكر للعدوان ، والاموال اليهودية تسدد فاتورة الحساب ، والاسلحة الامريكية تكفل الحماية .

هنا يوجد ستة ملايين يهودى — اى اكثر من سكان اسرائيل نفسها . انهم اقلية فى امريكا .. ولكنهم يتركزون فى مدن مثل نيويورك ، شيكاغو ، فيلادلفيا ، لوس انجلوس .. وكلها مدن تمثل مفاتيح لولايات كبرى فى امريكا واقتصادها . انهم — منذ سنة ١٩٤٨ — هم البنك الذى يسدد معظم فواتير اسرائيل . لقد اعطوا لاسرائيل فى سنتها الاولى مساعدات نقدية ونوعية زادت قيمتها على مائتى مليون دولار . مبلغ ضخم من راس المال لايساوى الا الحصة التى تسلمتها الحكومة الامريكية الفيدرالية نفسها فى تلك السنة .

وفى السنوات الأثنتى عشرة التالية اعطى يهود امريكا لاسرائيل مليون دولار . واشتروا سندات اسرائيلية باكثر من نصف مليون دولار .

انهم يستقبلون كل سنة مئات من المبعوثين والرسميين القادمين من اسرائيل . لقد جاءوا الى امريكا لكى يجمعوا ، يجمعوا ، يجمعوا التبرعات . تبرعات معفاة تماما من الضرائب .

انهم — خلال اهتمامهم الخاص باسرائيل — وخلال قانون العرض والطلب فى السياسة الامريكية والاعلام الامريكى ، خلقوا مناخا ادى الى ارتفاع ثمن العواطف الامريكية نحو اسرائيل الى الحد الاقصى ، وارتفاع قيمة النتائج العملية لهذا المناخ الى الحد الاقصى ايضا .

فبالقياس النسبي للمساعدات الامريكية التي اعطيت لاسرائيل منذ قيامها . . نجد انه اعلى معدل مساعدات اعطتها امريكا لاى دولة فى العالم ، وان اسرائيل تحصل الآن ، دائما على مركز الدولة الاكثر تفضيلا فى مجلات عديدة . وبدون هذه المساعدات ، لم تكن اسرائيل تستطيع امتصاص اى مهاجرين جدد او خوض ثلاث حروب فى الشرق الاوسط .

وليس من الضرورى ابدا ان يكون كل يهودى امريكى هو - اوتوماتيكيا - شخصا صهيونيا مؤيدا لاسرائيل . انك فى الواقع سوف تجد يهودا امريكيين يعارضون الصهيونية والنشاط الصهيونى فى امريكا نفسها . اشخاصا مثل : الفريد ليلنتال ، ايلمار بيرجر ، موريس كوهين ، موشى مينوهين . . وغيرهم . لهذا يجب ان تكون التفرقة فى كلماتك واضحة بين اليهودى والصهيونى .

ان اليهودى ليس هو الشخص الذى تعاديه هنا فى الشرق الاوسط ، فى الواقع اننا لم نعاده فى اى وقت . وحتى فى الوقت الذى اضطهدته اوربا كنا نحن نسمح لليهود بان يصبحوا وزراء - رينيه قطاوى مثلا وزير المالية فى اوائل العشرينات . وسمحت لهم بان يمتلكوا الشركات والمحلات التجارية : محلات داود عدس وبنزايون مثلا . وسمحنا لهم بتاسيس البنوك : بنك الرهونات وشركة سوارس مثلا « سمحنا لهم بعضوية مجلس الشيوخ - رينيه قطاوى باشا مثلا - وبالعمل فى الاذاعة المصرية - ميشيل برايت داى مثلا ، وبالسيطرة على الصحف قبل حرب فلسطين عن طريق شركة الاعلانات الشرقية مثلا .

ليس لدينا اذن اى شىء ضد اليهودى كيهودى ولكن لدينا كل العداء فى العالم ضد الصهيونى .

ونحن نستطيع ان نفرق بين اليهودى والصهيونى ببساطة شديدة : فاليهودى هو مجرد فرد ينتمى الى دين معين . بينما الصهيونى هو نفس هذا الشخص حينما ينتمى الى حركة سياسية ذات اهداف توسعية استعمارية فى الشرق الاوسط - هى الحركة الصهيونية .

× × ×

هذه الحركة الصهيونية هى التى ستواجه نشاطها فى امريكا كل يوم : فى الصحف ، فى الاذاعة ، فى التليفزيون ، فى الجامعات ، فى دار سينما ، فى بار ، فى كباريه ، فى منزل صديق امريكى ، فى الشارع الخامس بنيويورك يوم ١٥ مايو كل سنة .

انك سوف تسمع عنها من خلال منظمات صهيونية كثيرة -

منظمات مثل « اللجنة اليهودية الامريكية » او « اللجنة الاسرائيلية الامريكية للشئون العامة » او « لجنة الدفاع اليهودى » او « المنظمة الصهيونية الامريكية » او .. او ..

انها منظمات تقيم شبكة عنكبوت ثقـــافية ونفسية حول المواطن الامريكى .

حسنا .. هذا هو ماسوف تواجهه فى امريكا : المواطن الامريكى نفسه . انك سوف تجد مواطنا أمريكيا يسالك ـ بمنتهى حسن النية : لمــاذا ترفضون الســلام .. ؟ لمــاذا تريدون ازالة اسرائيل ؟ لمــاذا تريدون القاء اليهود فى البحر ؟

وسوف تبتسم ـ مثلما فعلت انا مرات عديدة ـ وانت ترد : حسنا ، نحن نريد السلام . ليس هذا هو السؤال .. ولكن السؤال هو : السلام .. ابتداء من متى ؟ ابتداء من سنة ١٩١٧ ؟ من سنة ١٩٤٨ ؟ من ١٩٥٦ ؟ من ١٩٧٦ ؟ من الآن ؟ الســـــلام .. كلمــة ساحرة يرددها الجانى والمجنى عليه ، مع اختلاف كبير فى النتيجة . تخيل لصا طردك من منزلك بالقوة ، واحتله بالقوة ، ثم جاء يقول لك مقسما : تعال ننسى الماضى . لقد احتللت انا المنزل وانتهى الامر .. تعال نتصــافح ونصبح أصدقاء من الآن .. مارايك ؟ هل يلومك النـــاس لانك ترفض مصافحتـــه ومسالمته قبل اعادة المنزل اليك . . . ؟

فى هذه اللحظة ربما يبدو على الامريكى لاول مرة بعض التردد وهو يقول لك : لا .. طبعا ، ولكن .. انتم ترفضـــون أشياء كثيرة . ترفضون حتى «الاعتراف بدولة اسرائيل .. ترفضون حرية الملاحة » ترفضون «المفاوضات المباشرة » ، ترفضون «انهاء حالة الحرب» ..

مرة أخرى ربما يكون ردك شيئا مثل هـــذا : سيدى .. كل ماتقوله الآن هو وجوه مختلــفة لمشكلة واحدة . كلها نتائج فرعية لمشكلة واحدة أساسـية . ان اسرائيل ـ والصهيونية ـ تريد من العالم ان يقرأ الكتاب من صفحته الاخيرة ، ونحن نريد من العالم ـ فقط ـ ان يقرأ الكتاب من صفحته الاولى قبل ان يحكم عليه . هناك مليونان من الفلـــسطينيين مطرودون الآن من منـــازلهم ، مشردون خارج ديارهم . الى أن يـــستعيد هؤلاء حقوقهم ، فلن يحدث اعتراف أو مفاوضـات او انهاء لحالة الحرب .

ـ اذن .. هل ستحاربون من جديد .. ؟

ـ مؤكد . . .

ـ ولكن اسرائيل هزمتكم فى ستة ايام سنة ١٩٦٧ .. فلماذا لاتعترفون بالواقع وتسالمونها ؟ .

ـ سيدى .. فى سنة ١٩٤٠ تراجع الجيش الفرنسى امام القوات النازية وانهار فى ثلاثة أسابيع فقط من بداية العمليات العسكرية.

وفى نفس الحرب العالمية الثانية واجهت القوات الفرنسية والانجليزية أبشع انسحاب عسكرى فى دنكرك . وفى تلك المعركة انسحب ٢٢٤ الف جندى بريطانى ، ١١٤ الف جندى فرنسى ، علاوة على مليون جندى وقعوا فى الأسر . وفى سنة ١٩٤١ تراجع الجيش السوفيتى امام الجيش النازى ٥٠٠ ميلا خلال ثلاثة أسابيع فقط . وخلال شهر وقع فى الاسر اكثر من مليون ونصف مليون جندى روسى . وفى نفس السنة ايضا حطم الاسطول البحرى الامريكى فى بيرل هاربور بضربة واحدة . لقد هاجمته اليابان بـ ٣٦٠ طائرة فى وقت واحد قبل الفجر . وخلال ساعة واحدة ـ وليست ستة ايام ـ تحطمت كل البوارج الامريكية الضخمة الراسية فى بيرل هاربور ... فلماذا لم تسالموا اليابان بعد بيرل هاربور ؟ ولماذا لم يفعل الاتحاد السوفيتى ، ولم تفعل بريطانيا .. مع المانيا النازية ؟ هل كان السلام شيئا منطقيا فى تلك الظروف ؟

وبسرعة يرد الامريكى : لا .. لا . ولكننى اقول .. مافائدة اعمال « الأرهاب » هذه التى يقوم بها « العرب » ضد اسرائيل فى المناطق المحتلة ؟ . .

ـ اولا .. هذا تحرير لارض محتلة ، وليس ارهابا . ثانيا ان الذين تسمع عنهم هم فدائيون فلسطينيون .. كانت هذه الارض ارضهم وارض أجدادهم .. انهم ـ بتعبير موشى مينوهين الكاتب المعادى للصهيونية رغم انه يهودى ، وامريكى مثلك ـ هم .. « شباب غاضب قادر جسمانيا ، نفى من وطنه وبيته فى فلسطين ، وحكم عليه بحياة لاتحتمل ، وغير قادر على ابتلاع تعاسته وبؤسه فى المنفى .. يشاهدون كل يوم منازلهم واماكن عملهم او حدائقهم ، وابقارهم وعنزاتهم وثمار حقولهم وبساتينهم يستمتع بها الغزاة الاسرائيليون . انهم ... يعبرون الحدود ليستردوا شيئا من منازلهم ، فيقتلوا الاسرائيليين او يقتلهم الاسرائيليون » .

ان الامريكى يتساءل فى هذه النقطة ، مندهشا : هل قلت ان هذه المنازل كانت منازلهم ، وانهم كانوا أصحابا لتلك الارض ؟

ـ نعم .. قلت ذلك . ان فلسطين لم تكن ارضا خالية من السكان هل تقبل يامستر ريتشارد ان يبيع لك المسترجون بيتا يملكه المستر

يتر ! هذا ما حدث بالضبط . ان بريطانيا ، وهى لاتملك، باعت للحركة الصهيونية .. وهى لاتستحق .. ارضا يملكها طرف ثالث .. هو الفلسطينيون .

× × ×

ان المناقشة قد تنتهى بصديقك الامريكى وهو يتمتم بكلمات مبهمة . كلمات مثل « لست ادرى .. » او « لست متاكدا .. » او « هذه حقائق جديدة على تماما .. »

وهذا صحيح الى حد كبير .. !

انها حقائق جديدة عليه . فطوال عملية « غسيل المخ » التى تمارسها الدعاية الصهيونية مع المواطن الامريكى العادى .. يترسب لديه ان العرب هم ناس اقطاعيون : متخلفون استبداديون ، بدائيون .. وان اسرائيل جاءت الى فلسطين لكى تعمر صحرائها ، تزرعها ، وتضع فيها مشعلا للحضارة الغربية .

بكلمات اخرى : نحن ـ العرب ـ هنود حمر .. واسرائيل هى الرجل الابيض .. فى الشرق الاوسط . صورة جذابة طبعا للتفكير الامريكى .

لهذا السبب تحارب الصهيونية وجود اى عربى فى امريكا . وهى تحاربه اكثر كلما كان ناجحا اكثر .. فى الدراسة .. فى العمل .. فى الوظيفة .. فى التجارة .. او فى الثقافة . انها تحارب وجوده فى امريكا ، لان مجرد وجوده هو ـ فى حد ذاته ـ دليل حى على انتمائه لشعب متعلم مثقف ، متحضر . ان مجرد وجوده يعنى ان خمسة امريكيين سيعرفون حقيقة الصراع فى الشرق الاوسط . خمسة ، عشرة ، عشرين امريكيا ـ تحتاجهم الحركة الصهيونية واسرائيل ـ سوف يبداون فى التساؤل . لهذا فانك كمهاجر ـ وحتى قبل ان تفتح فمك ـ تمثل خطرا متحركا ، حقيقة متحركة على قدمين ، تمثل وجهة النظر الاخرى المحرم انتشارها .

واكثر من هذا ، ربما تفاجأ بوجود انطباعات اكثر تزييفا عن حقيقة الصراع فى الشرق الاوسط . ومن المؤكد انك سوف تجد معظم الصحف الامريكية تكرر لقرائها كل صباح ان امريكا تحارب الاتحاد السوفيتى فى الشرق الاوسط ، وهذا بالضبط ماتسعى الى تأكيده ـ وتريده ـ العمل الصهيونى الاسرائيلى فى الولايات المتحدة .

لقد عملت اسرائيل منذ مدة طويلة سابقة لخلق هذه الصورة لدى الرجل العادى الامريكى . فمبكرا ـ منذ سنة ١٩٥٧ ـ اصدر ابا ايبان ـ وزير خارجية اسرائيل الحالى ـ كتابا بعنوان : « صوت

اسرائيل » . الكتاب هو مجموعة من المحاضرات والخطب التى القاها ابا ايبان فى مدن الولايات المتحدة عندما كان سفيرا لاسرائيل هناك . بالضبط ٢٢ محاضرة وخطابا .

والفكرة الرئيسية التى لاتغيب مرة فى هذا الكتاب هى اصرار ايبان على ربط مصير اسرائيل بمصير السياسة الامريكية بصفة عامة فى الشرق الاوسط . انه يقول : ان اسرائيل دولة صغيرة ، حديثة ، مسالمة وديمقراطية .. وتريد العيش فى سلام .. بينما يحيط بها جيران كبار واقرباء وعدائيون واقطاعيون . وازاء الرعب (!) الذى تعيش فيه اسرائيل فانها أحيانا تجد نفسها مضطرة (!) لان تهب الى الدفاع عن نفسها مثلما حدث فى سنة ١٩٥٦ (!) . واسرائيل بعملها هذا انما تدافع عن الحضارة الغربية نفسها »

ويستمر ايبان الى ان يصل الى السطر الذى ظل يؤجله ٢٩٩ صفحة : ان الصراع بين الدول العربية المتحررة وبين اسرائيل هو فى جوهره صراع بين الشرق والغرب .. بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة .

يعنى : اذا كان على الغرب ان يدافع عن نفسه فى الشرق الاوسط .. فليبدأ بالدفاع عن اسرائيل . واذا كان الغرب يعيش فى حالة عداء مع العرب ، فليست اسرائيل هى السبب . ان هذا العداء العربى نحو الغرب هو عداء حتمى لادخل لاسرائيل فيه . انه عداء له اسبابه التاريخية الخاصة ، واسرائيل ليست واحدا من هذه الاسباب .

والمسالة التى لاشك فيها فعلا .. هى ان لدينا اسبابنا الخاصة لمعاداة السياسة الغربية . هذا صحيح . ولكن مساندة الغرب لاسرائيل هى رأس هذه الاسباب . لقد اشتركت فرنسا فى التآمر على مصر سنة ١٩٥٦ وعاملها العرب بما تستحقه جزاء على هذا التواطؤ . ولكن فرنسا — فى عهد ديجول مثلا — وقفت موقف الحياد فى صراع الشرق الاوسط ، وبالتالى فان العرب اعلنوا لها عن تقديرهم لهذا الموقف . ولم يقف عربى واحد ليعلن : ان عداءنا نحو فرنسا هو مسالة « حتمية » . مسالة قدرية ، لامفر منها ولا فكاك .

و ...

انت الآن متعب ..! لقد تعبت من السير والفرجة والانبهار والمناقشة والتجربة . ربما تبحث الآن عن تاكسى لتعود به الى الفندق . ربما تكتشف فجأة ان سائق التاكسى لبنانى ، مثلما حدث معى مرة . لقد طار الرجل من الفرحة عندما علم اننى مصرى ..

« .. اهلا اهلا .. يابن عرب . انا اسمى حبيب عازر .. من بيروت .. مهاجر الى امريكا منذ عشرين سنة . لقد زرت بيروت منذ خمس سنوات فقط ؛ ولكننى زرت القاهرة ايضا قبل عودتى .. كانت اسرتى ـ التى صحبتها معى ـ تريد ذلك .. تتمنى ذلك .. انت تعلم طبعا .. ان الشرق يبـــدأ من القاهرة .. ان السحر كله فى القاهرة » ..

ربما يحدث لك هذا . . ربما لايحدث ..

ولكن المؤكد فى هذا كله انك ستعود الى الفندق سيرا على الاقدام فى ١٥ دقيقة ــ لاتاكسى ولا اتوبيس . سوف تعود متعبا مرهقا . وقبل أن تستلقى على السرير سوف تستعيد فى راسك كل الانطباعات التى تكونت لديك اليوم . ان معظمها ما زال بعد انطباعات شخص عابر ، انطباعات زائر ، انطباعات الـ ٢٤ ساعة الاولى ..

مازالت امامك فترة طويلة قادمة لتفهم المجتمع الامريكى من الداخل ــ تفهم المشاكل الاكثر عمقا ، والتيارات الاكثر قسوة .. التى جعلتك تنبهر اليوم كل هذا الانبهار .

حسنا .. هذه مهمة الفصل التالى .

الفصل الثامن :

نظرة على المجتمع الأمريكي :

مستر أمريكا !!



ليس فى امريكا مجتمع . فى امريكا زحام من الناس !

ليس فى امريكا اغلبية . فى امريكا مجموعة من الاقليات ! .

هـذه هى الحقيقة الاولى التى يجب ان تعرفها عن امريكا . ان الولايات المتحـدة هى ولايات .. غير متحدة . ان المجتمع الذى يعيش فى هذه الولايات يشهد فى السنوات الاخيرة انقسامات مريعة تستطيع ان تلمس مظاهرها اينما تذهب . هنـاك الفقير ، وهناك الغنى . هناك الجنوب ، وهناك الشمال . هناك الاسـود ، وهناك الابيض. هناك القديم ، وهناك الجديد . هناك المناصر للحرب غير الشريفة فى فيتنام ، وهناك المعادى لها و .. اهم من هذا كله ، هناك

الجيل الذى يجلس فى كرسى السلطة .. والجيل الذى يخضع للسلطة . جيل حقق القوة لبلاده .. بغير شرف ، وجيل يريد الشرف لبلاده حتى بغير قوة .

اقول انك لن تجد فى امريكا مجتمعا .. ستجد اولا هذه المشاكل : العنصرية ، التضخم ، روسيا ، السخط ، الجريمة والمظاهرات ، فيتنام ، المافيا التجنيد ، الاجهاض المخدرات .

ولن تجد فى امريكا اغلبية . سوف تجد اولا مجموعة من الاقليات: وهى السود ، الكاثوليك ، اليهود ، المكسيكيون ، الصينيون ، الايطاليون ، البولنديون ، البورتريكيون ، الشباب ، المثقفون .

لهذا السبب فان المهاجر لن يجد نفسه فى بلد آخر فقط ، انما فى جو آخر ، اخلاقيات اخرى ، قيم اخرى ، وقواعد اخرى متعبة .

ان هـذا الاختلاف موجود بقدر ماق امريكا اناس مختلفون ، جاءوا من بلاد مختلفه ، وثقافات مختلفة . اختلافا تلمس مظاهره كل خمس دقائق . حينما تتكلم ، تعمل ، تدرس ، تتجح ، تشترى طعاما ، ترتدى ملابس ، تدخر ، تستثمر تخطط ، تركب، تبنى ، تبتكر ، باختصار .. حينما تعيش .. فلابد أن تعد نفسك مقدما لتقبل ظروف مختلفة ونتائج مختلفة ، وحسابات مختلفة .

والسبب فى هـذا كله أن المجتمع الامريكى هو مجتمع من نوع خاص .. مع تحفظات كثيرة على كلمة «مجتمع» هذه . السبب هو ان الشخصية الامريكية المعاصرة هى نتيجة تفاعل بيئة وناس .. كلاهما مختلف ومتنوع ومعقد .

انه من الاصل . مجتمع من المهاجرين . ان الذين هاجروا الى امريكا فى البداية ذهبوا الى هناك بحثا عن حلم فى راسهم . الحلم الامريكى كما يسمونه الآن . حلم بولادة جديدة ، شوق لفرصة ثانية . امريكا كانت هى فرصتهم الثانية .

فى مثل هذا المجتمع لا يستطيع الناس ان يتفقوا على اشياء كثيرة . انهم لا يتفقون سوى على اشياء قليلة فقط . اشياء تمثل الحد الادنى اللازم لجعل الحياة تتحرك ، تسير الى الامام . اشياء قليلة .. عملية .. من السهل أن يفهمها الجميع . ويتفق عليها الجميع . لهذا يختلف المجتمع الامريكى كثيرا على ما هو اخلاقى ، ما هو مثالى . ضرورى ان يختلف . ولكنه يتفق بسرعة على ما هو عملى ، ما هو علمى ما هو تكنولوجى . لان العلم والتكنولوجيا لايمكن ان يكونا سيئة او طيبة فى حد ذاتها . لايمكن ان يكون لهما أخلاقيات خاصة بهما .

من هنا يمكن ان نفهم خصائص كثيرة للمجتمع الامريكي المعاصر .
انه مجتمع يعبد العقل الالكتروني باكثر مما يعبد السيدة العذراء . انه متدين اكثر منه مؤمنا . ان الخطيئة بالنسبة له كلمة لا يتذكرها الا كل يوم احد . ان الخطيئة الوحيدة التي تستطيع ان ترغمك على تذكرها كل دقيقة هي : الفقر . ان تكون فقيرا في امريكا يعني اشياء كثيرة . يعني : الفقر ، الحرمان ، الشقاء ، البؤس ، الانعزال ، الوحدة .

وان تكون غنيا يعني في نفس الوقت اشياء كثيرة اخرى : المتعة، الحياة ، السياسة ، الزعامة ، القوة ، السلطة ، الحرية ، الشهرة ، النفوذ .

ان العائلة المحترمة والاصل الطيب في امريكا امر طيب .. ولكن دفتر الشيكات هو الذي يستطيع ان يزيل من طريقك كل العقبات . كل الحواجز . لهذا لم تنتج امريكا شكسبيرا آخر او بتهوفن ، او اينشتاين . انها لم تفعل ذلك لان ابطال المجتمع الامريكي ليسوا سياسيين ، ولا مصلحين ، ولا اخلاقيين ، ولا فلاسفة ، ولا فنانين . انهم رجال اعمال . رجال مثل كارنيجي ، روكفلر ، فورد ، اديسون .

ان اسوأ مصيبة يمكن ان تحل بحزب سياسي في امريكا هي وقوع كساد اقتصادي خلال حكمه . وحتى الآن لم يغفر الامريكيون للحزب الجمهوري ان كساد سنة ١٩٢٩ وقع خلال حكمه .

واسوأ ما يمكن ان يقال ضد قانون في امريكا هو انه يضر بالتجارة . ان اي شيء يعد بزيادة الثروة يعتبر اتوماتيكيا شيئا طيبا . لهذا تحمل الامريكي المعاصر بصبر أسوأ مظاهر التصنيع . ويتحمل بعد هذا كله مصائب أخرى كثيرة : المضاربة ، الاعلان ، الاستغلال ، تلوث الطبيعة .. الخ .

ان هذا كله ادى الى اعطاء لون كمي وعددي للشخصية الامريكية . ان الامريكي المعاصر لا يستطيع ان يفهم تماما اي شيء الا اذا ترجمته اليه في ارقام . ان مجتمعا يبتهج باحصائيات السكان ، بناطحات السحاب ، بطول السكك الحديدية ، بأرقام الانتاج ، بعدد الطلبة ، بطول الرحلة والمتعة في البحيرات العظمى ، نهر الميسيسبي ، شلالات نياجرا ، تكساس ، انه سعيد جدا حينما يعثر على حل ميكانيكي للمشاكل : محلج القطن ، القارب البخاري ، ماكينة الخياطة ، التلغراف ، التليفون ، الآلة الكاتبة ،

العقل الالكتروني ، وآلاف اخرى من الاختراعات التى ادخلها الامريكى فى حياته اليومية . ان كل شخص متعلم ، ولكن شركات التلغراف وجدت من الاربح لها أن تعد وسائل جاهزة مقدما للتعاطف أو التهنئة أو التعزية كل امراة ماهرة ولكنها لا يمكن أن تضيع وقتها فيما تفعله المرأة فى اى مجتمع آخر : التطريز أو تفصيل الملابس مثلا . ان الشيء الجاهز أرخص . انه ارخص لها وأكسب للمجتمع . لا داعى لان تضيع وقتك مفكرا فى الالفاظ المناسبة التى تهنيء بها صديقك . شركة التلغراف ستتولى هذا العمل . لا داعى لان تضيعى وقتك فى تفصيل فستان بالشكل الذى تريدينه ، الفستان الجاهز ارخص بدولار ، بنصف دولار ، بربع دولار ، المهم انه أرخص ولو بمقدار سنت واحد .

اقول ان الارقام هي اللغة الوحيدة المفهومة فى المجتمع الامريكى ان قيمة الانسان عنده هى كم يملك الان . قيمة كل فرد تقاس بمايكسبه ، بما يوفره . معك نقود .. المجتمع لك . معك الفقر .. المجتمع ضدك . لا قيمة للشخص قبل أن تكون لديه نقود . وحين يملك النقود فقيمته تقاس بمقدار هذه النقود . فى هذه الحدود يتلقى الاحترام والتبجيل والفهم من المجتمع . ان ما يهم فقط هو : كم فى جيبك الان .. وفى هذه الدقيقة بالذات ؟ فمن الممكن أن تكون غنيا فى لحظة ، وفقيرا فى اللحظة التالية . هذا معناه انك محترم فى لحظة ، وغير محترم فى اللحظة التالية .

ان قيمتك اذن هى رقم تقوله . رقم من ارقام كثيرة يتعامل بها المجتمع الامريكى . فالارقام عملة مقبولة فى كل مكان بامريكا . ان الارقام هنا ليست فى النقود فقط؟. ولكنها تمتد لتؤثر على كل شيء .

اذا اردت مثلا ان تفتح نافذة تطل منها على العقل الامريكى فلن تجد سوى ارقام الاستفتاءات واحصائيات الراى العام . معهد جالوب مثلا يقول ، ان نصف الامريكيين لم ياكلوا الاستاكوزا فى حياتهم .. واحد من كل سبعة فى الولايات المتحدة شعره احمر اللون .. معظم النساء الامريكيات يفضلن تخسيس انفسهن .. معظم الرجال لن يعترضوا على زوجاتهم اذا استعملن الالفاظ البذيئة علنا؟.. امريكى واحد من كل خمسة جاع مرة بسبب عدم وجود نقود .. كل جنتلمان فى امريكا يفضل السمراوات على الشقراوات .. اربعة من كل عشرة امريكيين تسلقوا جبلا فى حياتهم . اكثر من نصف الامريكيين شربوا الشمبانيا مرة واحدة

على الاقل .. ست زوجات من كل عشرين يرين ان ازواجهن على شيء من الوسامة .. خمسة ملايين امريكى مستعدون للتطوع فى الرحلة التالية للهبوط على القمر .

واذا اردت ان تتعرف على الكتب التى تخاطب احلام الفرد فى المجتمع الامريكى فسوف تجد قائمة لا تنتهى . كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة؟ .. دع القلق واستمتع بالحياة .. دع التوتر وابدأ الحياة .. كيف تحول الدولار الى مليون دولار .. كيف تحول النحاس الى ذهب .. كيف تحول الفشل الى نجاح .. كيف تتحرك وتقنع الناس .. فن الاقناع .. كيف تكسب الاصدقاء وتؤثر فى الناس ..

ان الكتاب الاخير وحده ومؤلفه ديل كارنيجى اصبح .. أوسع الكتب انتشارا فى التاريخ باستثناء «الكتب السماوية» .. ان ملايين النسخ طبعت منه فى اكثر من ستين طبعة .. انه يقدم لك وصفات جاهزة لتكسب الناس مثلا : لا تجادل . لا تقل لاحد انه مخطىء . سلم بخطئك . دع الغضب والعنف . ابحث عن كلمة نعم . دع الشخص الاخر يتولى دفة الحديث دعه يتصور انها فكرته . ضع افكارك فى قالب تمثيلى .

بهذه الوصفات ــ وغيرها كثير ــ يقنعك المجتمع انك ستنجح ، ستغتنى ، ستكسب مليون دولار ! انه يقنعك بالتصفيق للذين اصبحوا أغنياء هذه السنة ، لانك ربما تصبح مثلهم فى العام القادم . لا تحسد المليونير اليوم ، لانك تستطيع ان تكون مليونيرا غدا ، لابد ان ترى فى القدمين العاريتين لكل طفل قدمين لرئيس جمهورية قادم ، او مليونير فى الطريق ، ان المستقبل مفتوح لك ، مفتوح لاطفالك . عش خلالهم . اعمل من اجلهم ، اطعمهم ولا تيأس ، اذا كنت تفلح يجب أن تستيقظ فى الخامسة .. اذا زرعت فنم حتى السابعة . اذا عملت فابتداء من التاسعة حتى الخامسة . كل صباح سيبدأ واجب كل مساء سينتهى الواجب . كل اسبوع تحصل على المرتب . عندما تحصل على المرتب اشتر . قلت لك اشتر . اشتر .. اشتر ..

هكذا يعيش الامريكى وسط مجتمع استهلاكى . كل شركة تقدم لك نفسها . كل سلعة تعلن عن نفسها . ان الاعلان يقنعك بضرورة اشياء كثيرة . اشياء لم تكن ضرورة قبل الاعلان المتكرر عنها . لهذا تجد أن معظم الامريكيين يحصلون على اشياء ما زالت تعتبر ترفا بالنسبة لاغنياء الدول الاخرى . ان منازلهم مكيفة

الحرارة ، انهم يستهلكون كميات لا تصدق من المشروبات ، الايس كريم ، سكر النبات ، السجاير ، وينفقون على المشروبات الكحولية وزيوت الزينة ، مايكفى لاطعام شعوب اخرى كاملة. انهم يوفرون من دخلهم ـ ليس لشراء مزرعة كما كان يفعل اجدادهم ـ ولكن لتحقيق مطالب اكثر استعجالا : السيارة ، الاجازة ، التعليم ، او التقاعد . ان الراديو والسيارة والتليفزيون اشياء هامة جدا بالنسبة للامريكى المعاصر .

وانا استطيع ان اسألك فى القاهرة : هل شاهدت برنامج التليفزيون امس ؟ استطيع ان اسألك عن برنامج التليفزيون ، مادام ليس هناك مجال اختيار واسع بين برامج تليفزيونية تتسابق على اجابتك بالملل والقرف والسأم .

ولكن فى امريكا هناك فرصة ضئيلة جدا فى ان تكتشف أن شخصا آخر قد رأى معك امس نفس البرنامج . ففى بعض المدن الكبرى ـ نيويورك مثلا . هناك يصل الى عشر محطات تليفزيونية تختار من بينها ، بعضها يعمل ٢٤ ساعة يوميا ان الاختلاف والتنوع هما الكلمتان الصحيحتان اللتان تنطبقان على التليفزيون الامريكى .

وان تكون قادرا على الاختيار بين برامج عديدة ـ بعضها جاد وبعضها تافه ـ ليس معناه أن تصبح عبدا للشاشة الصغيرة . ان معناه ببساطة أن التليفزيون بالنسبة للامريكيين هو كالمكتبة بالنسبة للفرنسيين ، والصحف بالنسبة للانجليز ، والمقاهى بالنسبة للمصريين .. مع فارق أساسى ضخم جدا هو : اسلوب ونوع الاعلانات التى تتخلل برامج التليفزيون الامريكى .

فمهما كان الفيلم ، مهما كان البرنامج ، مهما كان الخبر المذاع ، فلابد ان تتخلله الاعلانات ، الخبر عن القمر ، والاعلان عن مسحوق غسيل ، الخبر عن القتلى فى فيتنام ، والاعلان عن اعداد الشوربة . الخبر عن غزو كمبوديا ، والاعلان عن استخدام زيت الشعر لغزو قلوب النساء !

ان مشاهدة التليفزيون الامريكى توحى لك ـ للوهلة الاولى بانهم شعب يعانى من تسوس الاسنان ، اضطراب التنفس ، تساقط الشعر ، الصداع المزمن ، المغص الدائم ، نساؤهم تحتاج الى سوتيانات محشوة ، ورجالهم يعتمدون فى جاذبيتهم على زيوت الشعر .

ان المجتمع الامريكى ـ كما تصوره الاعلانات ـ هو كابوس من

الخوف ، الغيرة ، الثرثرة ، الاغتياب ، الحسد ، الطموح الجشع ، الطمع ، الشهوة ، حيث الغاية تبرر الوسـيلة ، حيث العاطفة يجب ان تكافأ ، والمثل العليا يجب ان تداس ، والقيم تلوث . ان الامريكي المثالي كما ينطبع في ذهنك من الاعلانات .. هو شخص يعيش في عذاب القلق والشهوة ، شخص لا قيمة لاى شيء عنده الا اذا ارتبط بنتائج عملية سريعة . انه يقرأ الكتب لكي يتحدث جيدا ، يستمع الى الموسيقى لكي يؤكد مركزه الاجتماعي ، يختار ملابسه لكي تؤثر على تجمعات رجال الاعمال ، يسلي اصدقاءه لكي يتقدم في وظيفته ، يقدم الهدايا المستمرة لزوجته لكي تحبه ، ولاولاده لكي يحترموه . فحتى الحب والاحترام ـ بالنسبة للاعلانات الامريكية ـ لا يتمان الا بالرشوة . انها اعلانات لا ترى شيئا مقدسا ولا شيئا شخصيا انها للحقيقة تخاطب مشاعر الامومة ، الزواج ، الدين ، امومة ، الصحة ، النظافة . ولكنها تصور الحب مثلا كشيء تنافسي ، يذهب لهؤلاء القادرين على شراء اغلى الهدايا . تصور الصداقة على انها سلعة في المزاد .. لا يحصل عليها من يقدم لاصدقائه مشروبا رخيصا او يجلسهم على اثاث متواضع . ان الترقي والتقدم في الحياة لا ياتي عن طريق العمل ، او الذكاء ، او الشخصية ، او اى قيمة متعارف عليها . انه ياتي بمزيج ذكي من الخداع والرشوة والابتزاز .

ان كل هذا يوقع دارس الشخصية الامريكية في مشكلة مربكة . ان من مهمة المعلنين ان يدرسوا اولا عناصر هذه الشخصية قبل ان يخاطبوها . مواردهم تمكنهم من الحصول في دراساتهم هذه على احدث ابحاث علماء النفس والاجتماع .. وعلى ذلك ، فاذا كانت هذه الاعلانات تتم بنـاء على تحليل صحيح للشخصيـة الامريكية .. فان هذا يعني ان الشعب الامريكي هو شعب فاسد متـدهور .. بينما الحقيقة هي عكس ذلك تماما . ان المعلنين يخاطبون في الشعب الامريكي مشاعر الخوف والاستعلاء والانانية .. ومع ذلك فليس في الشخصية الامريكية ما يؤكد وجود هذه الدوافع مطلقا . تناقض ..

وهذا التناقض يتضح في مهمة التليفزيون نفســه ، بل حتى الوظيفة التي تؤديهـا الاعلانات في المجتمع الامريكي . فالواقع ان الاعلانات تؤدي مهمة كبيرة بتحقيق اللقاء بين المنتج والمسـتهلك معا . والتليفزيون الامريكي نفسه لم يعد نتيجة لذلك مجرد جهاز يعطيك فقط آخر الاخبار والمعلومات . انه يعطيك اخبار العالم .

اخبار المدينة ، كيف تعد وجبة العشاء لضيوفك غدا ، من اين تشترى هدية لزوجتك ، كيف تقضى اجازة نهاية الاسبوع . انك — عن طريق الاعلانات فى التليفزيون — تستطيع ان تعرف اشياء كثيرة : ماذا تشترى ، من اين تشترى ، كم تدفع ، اين تدفع اقل ، كيف تتسلى .. ومتى تتسلى ..

ان تسليتى الرئيسية فى اوقات الفراغ كانت مشاهدة التليفزيون . اذا جلست امامه ربع ساعة فلن اتركه قبل صباح اليوم التالى . انه يعطيك صورة كاملة عن كل تعقيدات المجتمع الامريكى المعاصر .. وبساطة الرجل الامريكى العادى ايضا !

فى احد البرامج مثلا أحضروا اربعة ازواج وزوجاتهم . الازواج فى جانب ، والزوجات فى جانب .. وحائط بينهما . انني كمشاهد — ارى المجموعتين . ولكن كل زوج لا يرى زوجته . ان المذيع ظل يسأل الفريقين ساعة كاملة — تتخللها الاعلانات طبعا . انه **يسأل الزوجة مثلا : كيف ينام زوجك على السرير ليلا .. على جانبه الايمن ؟ الايسر ؟ ام على ظهره ؟. سؤال آخر : عندما يستيقظ زوجك من النوم صباحا . ما هو اول شىء يفعله .. يخلع شيئا .. ام يلبس شيئا ؟.. وهكذا ..!**

وبعد ان يحصل المذيع على الاجابات مكتوبة من الزوجات ، يستدير الى فريق الازواج ليسألهم نفس الاسئلة . هنا تبدأ المفارقات المضحكة . ان زوجة توم تقول انه ينام على جانبه الايسر ، بينما توم نفسه قرر الآن انه ينام على ظهره ! ثم .. زوجة توم تقول ان اول شىء فعله هذا الصباح هو انه خلع شيئا .. بينما توم قرر انه لبس شيئا .. آه .. قطعا لم يكن توم هو الرجل الذى نام مع الزوجة امس !!

ومع ضحكات الشاهدين والازواج ، تعطى الجائزة للزوجين اللذين اتفقت اجابتهما على كل الاسئلة !

ان هذه البساطة التى تجدها فى الاسرة الامريكية جاءت بعد انطباع سابق عن تعقد المجتمع الامريكى . هذا تناقض .

ومع ذلك فليس هذا هو التناقض الوحيد الذى تلمسه فى المجتمع الامريكى .

انه مجتمع يؤمن بعلم النفس .. ومع ذلك فالانهيارات العصبية فيه اصبحت شيئا مألوفا كالاصابة بالانفلونزا . مجتمع وصل حجم التعليم فيه الى درجة غير معقولة ، وعدد الطلبة فى جامعاته وكلياته اكبر من عددهم فى كل الدول الغربية مجتمعة ، ومع ذلك

فانهم اكثر طلبة العالم تظاهرا ضد الامر الواقع . مظاهرة كل يوم . مجتمع عرف اكثر من غيره كيف يسيطر على الطبيعة ويستغل مواردها ، ومع ذلك لم يحدث من قبل ان اسرف فى القتل مجتمع مثله .. جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة . ان تحرير المراة ، تحديد النسل ، توفير الوقت ، الرخاء ، والتعليم . كان يجب ان تجعل الاسرة فيه اكثر سعادة وصحة ، ومع ذلك فان الاسرة الامريكية هى الآن اكثر قلقا من اى وقت مضى . زواج واحد من كل اربعة ينتهى بالطلاق .

لقد شاهدت مرة فى التليفزون الامريكى برنامجا يعرض حالة واحدة من حالات الطلاق هذه .

انها سيدة جذابة ، سوداء الشعر ، عمرها ٢٨ . انها فى قاعة المحكمة منذ التاسعة صباحا . السيدة اسمها مسز كلينمان . محاميها اسمه ميلتون هنتر . ان المحامى يراها كما يرى دائما معظم زبائنه فى مثل هذه اللحظات ـ عصبية .. متوترة .. مرتبكة . لقد جاءت الى المحكمة تطلب الطلاق . انها تطمئن من محاميها قبل الجلسة هل سيسالنى القاضى فى شىء ؟ . ولكن المحامى يبتسم وهو يردد لها « مجرد اسئلة روتينية » ثم يطلعها المحامى على قائمة اسئلة مطبوعة على ورقة صغيرة .. هى التى يسالها القاضى عادة فى مثل هذه الاحوال . انها تريد ان ينتهى موضوع الطلاق اليوم ، حتى لا تضطر الى اخذ يوم آخر اجازة من عملها كسكرتيرة فى مانهاتن ـ بنيويورك .

بعد دقائق يدخل القاضى ، فى رداء اسود ، متخذا مقعده بجوار العلم الامريكى ثم تبدا الاجراءات . ان مسز كلينمان تتقدم الى الامام وتجلس فى مقعد الشهادة بعد ان تؤدى ماعليها . حينئذ يبدا القاضى فى سؤالها تقريبا نفس الاسئلة التى اطلعها عليها المحامى .

ـ هل انت المدعى فى هذه القضية ؟

ـ نعم . هكذا ترد مسز كلينمان بصوت خفيض .

ـ هل كنت متزوجة من هارولد كلينمان المدعى عليه فى هذه القضية ؟

ـ نعم .

ـ متى تم زواجكما ؟

ـ ٢١ يناير ١٩٦٧ .

ــ هل انجبتما من هذا الزواج ؟
ــ لا .
ــ فى اى تاريخ هجرك المدعى عليه ؟
ــ فى يونيو ١٩٦٩ .
ــ ماذا قال حينما تركك باختياره ؟
ــ قال .. كفانى من الزواج . قال انه منصرف . هذا كل شىء .
ــ بماذا اجبت انت ؟
ــ طلبت منه ان يبقى . ولكنه رفض .
ــ هل كنت زوجة مخلصة وتقومين بواجبك ؟
ــ نعم .
ــ هل حدث فى اى وقت منذ الهجر ان عاد المدعى عليه الى البيت او عاشرك ؟
ــ لا .

هنا وقف محامى الزوجة لكى يعطى للقاضى حزمة اوراق ، تدل على أن زوج مسز كلينمان ــ مهندس يعيش الآن فى مكان ما باوروبا ــ لم يمكن العثور عليه لاخطاره واستدعائه . وان القضية أعلن عنها فى جريدة نيويورك القضائية .

ثم يسأل المحامى موكلته ــ الزوجة : هل لدى المدعى عليه اى مبرر لهجرك ؟
ــ لا .
ــ هل صفحت عنه ؟
ــ لا .

هكذا ترد مسز كلينمان فى صوت انخفض فجأة الى درجة الهمس . وبعد سؤالين آخرين طلب المحامى اصدار الحكم . هكذا نطق القاضى بحكم الطلاق بعدها بدقائق . حكم سوف يستغرق اصداره رسميا ثلاثة اسابيع اخرى تقريبا .

ان الجلسة لم تستغرق سوى دقائق . والحكم بالطلاق صدر على اساس الهجر اساس جديد لم يكن يسمح بالطلاق منذ سنتين ونصف فقط . فقبل اول سبتمبر ١٩٦٧ كان فى ولاية نيويورك سبب واحد يبرر الطلاق : الخيانة الزوجية . اما قانون الطلاق الجديد فى الولاية ــ فلكل ولاية امريكية قوانينها الخاصة ــ فقد صدر ضد معارضة الكنيسة الكاثوليكية ، وقرر اضافة خمسة اسباب اخرى للطلاق : السجن ثلاث سنوات ، الانفصال الشرعى

سنتان بحكم القضاء ، الانفصال بالاتفاق ، القسوة الجسمانية او العقلية ، الهجر لمدة سنتين .

وبمجرد صدور هذا القانون ارتفع عدد حالات الطلاق السنوية ف ولاية نيويورك من اربعة آلاف الى ١٨ الف حالة !

ولكن امريكا قبل ان تكون بلد الطلاق ف العالم .. فهى اولا بلد المراة !

ان امريكا القرن العشرين اصبحت بلد المراة اكثر من اى بلد آخر ف العالم . ان تفوق المراة يمكن التدليل عليه من مجرد قراءة احصائيات الثروة والملكية والتامين ، التعليم ، الادب ، أو اعلانات اى مجلة . ان المراة تدير المدارس والكنائس ، تقرر ماذا يظهر ف مجلة او فيلم وماذا يسمع ف الراديو وستشاهد ف التليفزيون . ان مئات المجلات تصدر خصيصا لتسلية المراة وارشادها ، بعضها من اكبر المجلات توزيعا . ومعظم الصحف الاخرى تخصص صفحة للمراة . وكل محطة اذاعة وتليفزيون تقدم سلسلة من البرامج المخصصة لمخاطبة المراة .

وما دامت المراة هى التى تنفق معظم النقود ، فان معظم الاعلانات توجه نفسها للمراة وحتى حينما تخاطب الاعلانات الرجل ، فانها غالبا تخاطبه عن طريق امراة ، او حبه لامراة ، ان المراة ف اى مجتمع آخر ـ تحكم المنزل . ولكن ف امريكا فقط المراة هى التى تصممه ، تبنيه ، وتؤثثه وتوجه نشاطه ، وتحدد مقاييسه . ان معظم الاطفال الامريكيين يعرفون اسر امهاتهم اكثر مما يعرفون اسر آبائهم .

ومع ذلك .. ففى امريكا الآن حركة لتحرير المراة !!

ـ ولكن .. الا تشعرين انك حرة بعد ؟ !

هكذا سالت فتاة ف نيويورك .. اسمها جودى .

« نعم ، نعم ، ولكن .. » ثم بدأت جودى ف الحديث .

انها تحدد بنفسها مواعيد اللقاء مع صديقها ، والا تصبح المسالة « .. كما لو كان صديقى الرجل يستاجرنى لمدة مساء كامل !

انها تقول ان الجنس والحب يجب الغاؤهما . فكلاهما ف رايها ـ وسيلتان اساسيتان يستخدمها الرجل لاستعباد المراة . وتقول ان المراة الامريكية التى تؤمن بحركة التحرير الحديثة هى الآن من النساء الامريكيات . نساء لهن عشاق ، ازواج ، اطفال ، او ف طريقهن الى ذلك . انهن يطلبن تغيرا ف العادات والميول

الاجتماعية بحيث يسمح لكل امراة بأن تكون شخصا منفصلا عن ــ ومتساويا مع الرجل .

ان جودى تقول باعتبارها عضوا فى الحركة الحديثة : اننا لا نرى انفسنا كذلك الآن . اننا نرى انفسنا فقط موضوعا جنسيا .. وجدنا لنكون لعبة الرجل ، محصورات ومقيدات بدورنا الجنسى . انني مهما حققت من متعة فى دراستى او عملى فان امى تقول لى « ضعى بعض احمر الشفاة لكى تحصلى على رجل » انني قد اصبح سكرتيرة ، مدرسة ، ممرضة ، طبيبة ، محامية ، او رئيسة لاى شيء . وسواء عملت فى مصنع او فى مكتب فانني اكسب اقل من الرجل . وحينما يصبح لدى اطفال اصبح مقيدة بسلسلة طول عمرى . اننى زوجة شارل ، او ام كارول . ثم بعد ذلك .. لا شيء اننى انظر الى شاشة التليفزيون او الاعلانات فى الصحف فنرى مخلوقا مثيرا جنسيا ، او عاطفيا . مخلوقا يسمى « المراة » .. هذا الشخص ليس انا .. وليس اى واحدة من صديقاتى .. ان الاحصائيات تقول ان القوى العاملة الامريكية تضم ثلاثين مليون امراة اى ثلث قوتنا العاملة . ومع ذلك فان متوسط مرتب المراة ٤٨٪ فقط من متوسط مرتب الرجل . ان مرتب المراة يقل عن مرتب الرجل بنسبة ٤٠٪ فى الاعمال والوظائف المتشابهة .

هكذا انتهى كلام جودى .

وعندما انصرفت جودى اكتشفت اننى اضحك ! طبعا مسالة مضحكة . انها مضحكة لانها متناقضة . فالتناقض هو جوهر الضحك . ان المراة التى قالت كل هذه الحجج حالا .. هى الان فى طريقها للقاء صديق شاب . المراة التى قالت ذلك ــ او ربما ليست هى شخصيا ــ هى التى تتمتع بمركز متفوق فى المجتمع الامريكى . مركز لا تتمتع به بعد اية امراة اخرى فى العالم . انها هى التى تراها ــ بعد سن الستين ــ تطوف حول العالم وحدها بعد ان مات زوجها تاركا لها كل الثروة والاسم والسمعة والراحة .

انها هى نفسها المراة الامريكية التى تراها فيما بعد فى ردهات فنادق هيلتون فى جميع انحاء العالم : سيدات جعلن انفسهن على طراز نجمة السينما الامريكية لانا تيرنر تقاطيع جافة ، شعر اشقر منحوت عند الكوافير شعر اصبح ذهبيا من شدة الحزن على زوجها عملات قديمة تلمع على صدورهن . صدر عابس ، اقدام رشيقة كالمقصات ، اقدام تتحرك باحتشام الى ان تسمع اول موسيقى راقصة . وتحت نشرة الاحتشام الواثقة من نفسها تستطيع ان

تكتشف اشارات لماض مشاكس .. واحيانا ماض قاس، ان كل واحدة من هؤلاء مرت بالكثير. وبعد كاس اللاتيني الرابعة يمكن ان تخبرك بشيء واحد اوشيئين . انها امرأة تعرف كل شيء عن معاش زوجها .. ومع الحديث عن المعاش او ثروة زوجها الراحل ـ دمعة او دمعتين ـ تبدا ملامح الانشراح فى التسلل الى وجهها . انشراح ممسوك بلجام . انشراح لايبعد مطلقا عن نقيضه : الياس. فهذه المراة هى تجسيد لكل الصفات التى يعيش بها الرجل الامريكى جالبية المرأة .. كل الصفات ماعدا واحدة : الشباب !

هذه المراة هى التى يوجه لها الرجل الامريكى كل عواطفه ـ ليس فى سن الستين طبعا ولكن ابتداء من سن الثلاثين . امراة وسط العمر . امراة نعثر على نماذج كثيرة لها فى السينما الامريكية : دوريس داى ولوسيل بول وشيرلى ماكلين مثلا .

ان دوريس داى هى امراة غنية على الطريقة الامريكية . انها « رجل اعمال » ناجح مثلما هى ممثلة مشهورة . لقد كانت ـ فى وقت ما ـ تدير شركة لانتاج « ملابس دوريس داى » وتوزيعها على نطاق واسع فى امريكا ، ولمدة سنوات عديدة كانت صورها منتشرة فى المكاتب وحجرات الاستقبال داخل المنازل الامريكية ، بابتساماتها الكاشفة عن معجون اسنانها ـ ووجهها المعرض لاشعة الشمس . انها فى افلامها دائما فتاة ، عاملة ، بريئة ، ظريفة ، وان كانت غير جذابة جنسيا . ان براءتها وعذريتها تتعرض للتهديد غير الجاد ، ولكنها فى النهاية تصبح آمنة على نفسها .

ان المراة الامريكية التى جعلت من دوريس داى نجمة مشهورة، قد وجدت فيها تعبيرا عن اشياء كثيرة تمتلكها او تفتقدها ، وهذا هو السبب نفسه الذى جعل شيرلى ماكلين هى الاخرى تصبح نجمة فى منتصف الخمسينات كاستمرار لنفس النموذج الذى تعبر عنه وتخاطبه دوريس داى. بأن شيرلى ماكلين بوجهها الذى يشبه السيرك تبدو فتاة فى الاصل انها لاتشرب ، وفتاة تحبها بجوار طبق مكرونة وابريق من الخمر ، فتاة تستطيع ان تلخص فلسفتها فى الحياة فى ثلاث كلمات : التفاؤل ، الامل ، الحب ، انها اول نموذج امريكى كبير لفتاة منتشرة فى اوربا ـ الفتاة البوهيمية. انها فى الحياة الواقعية تناصر الحقوق المدنية وشغوف بالفلسفة الهندوسية « بالمناسبة : مرة لكمت صحفيا فى وجهه . انها دائما تبدو فى متاعب . ان الكارثة لا تحدث لها فى اللحظة الاخيرة بسبب غريزة بريئة حادة : غريزة البقاء « انها هائمة ، تتمتع بحلة

السخرية الفظة ، وتنظر لاعقد الامور واكثرها ريبة في براءة شديدة انها تعبير حي عن المراة الامريكية العادية. المراة التي تقرأ النصائح العاطفية في الصحف ، وتذهب الى طبيب نفسي ، وتستطيع ان تتحدث في التليفزيون امام جمهور واسع من اشياء في حياتها لم تكن امها تستطيع الادلاء بها لابيها ، انها تمثل المراة الامريكية التي قرات في حياتها كتابا او كتابين على الاقل في الجنس، وتهوى قصص المغامرات ، وتشتري لمبة كهربائية خاصة لكي تعطي لوجهها لون الشمس . المراة التي لاتجد صعوبة كبيرة في التعبير عن عواطف ميكانيكية ؛ المراة التي تتحول الى الراديو والافلام لكي تحصل على التسلية والاثارة والمتعة والضحكات ، والدموع . المراة التي تتعلم الحب من المجلات وتنجب طفلها الاخير قبل سن الثلاثين وتحمل اقراص منع الحمل وتكره الاجهاض. نعم . في السنوات الاخيرة كانت المراة الامريكية على راس الذين مايزالون ضد عمليات الاجهاض

ان الاجهاض من وقت قريب في أمريكا كان — طبيا — يعتبر من المحرمات التي يتفادى الاطباء مناقشتها . وكان تحريم الاجهاض — اخلاقيا — يعتبر جزءا من القماش الذي يحقق به المجتمع تماسكه

ولكن الآن، بدات رياح التغيير في امريكا تمزق هذا القماش، كما فعلت في اشياء اخرى كثيرة. ان القاعدة ان معظم الولايات تعتبر جريمة حمل المراة خارج نطاق الزواج وعند رغبتها ، وقبل سن ال ٢١ جريمة ضخمة يعاقب عليها القانون ، والقاعدة أن معظم الولايات تسمح بالاجهاض في حالة واحدة ، هي أن يؤدي الحمل الى تعريض حياة المراة للخطر . وخلال السنوات الثلاث الماضية قامت ١٢ ولاية — بما فيها كاليفورنيا — باجراء تعديلات في قوانينها تبيح الاجهاض في حالات أخرى غير انقاذ حياة الحامل ، وفي ولاية واحدة — هي هاواي — تركت المسالة كلها الى راي المراة وحكمة الطبيب .

ان الاجهاض هو مشكلة نجدها — بدرجات متفاوتة — في كل مجتمع. انه اذن ليس علامة مميزة للمجتمع الامريكي، ولا حتى للفتاة الامريكية .

اذن .. ماذا يميز الفتاة الامريكية .

لقد راينا منذ قليل — دور المراة في المجتمع الامريكي ، امراة يعطيها المجتمع ثروته وحبه وتقديره .. ولم يكن الرئيس الامريكي الاسبق ترومان يقصد مجرد الفكاهة عندما قام — اثناء انتخابات الرئاسة — بتقديم ابنته وزوجته الى الناخبين قائلا :

هاكم بنت الرئيس ، وهاكم رئيسة الرئيس!

نعم ، لم تكن مجرد فكاهة .. ولكنها حقيقة في المجتمع الامريكي المعاصر ، حقيقة المرأة التي عرفناها منذ قليل بعد سن الستين ، وبعد سن الثلاثين . بقي الان دور الفتاة الامريكية قبل سن الثلاثين .. كيف تفكر .. كيف ينظر اليها المجتمع ؟

انني الان سوف اختار نموذجا لهذه الفتاة الامريكية . فتاة اسمها ستيفاني ، ان ستيفاني هي أكثر قليلا من مجرد نموذج للفتاة الامريكية المثقفة التي تعيش بمفردها .. الفتاة تحت سن الثلاثين ، انها كانت بالنسبة لي موجودة اكثر من امريكا نفسها. موجودة في نيويورك .. شارع من شوارع الجانب الشرقي بمدينة نيويورك . شقة انيقة في مبنى من مباني هذا الشارع . شقة لا تزيد على حجرة واحدة ومطبخ . الايجار مائة وثمانون دولارا شهريا ، هذه هي نيويورك . ان ستيفاني تسكن وحدها في شقتها مثل نصف بنات نيويورك .. عندما اتحدث عنها هنا فاني اتحدث عن الفتاة الامريكية ، وعن نيويورك . من خلالها .

ان ستيفاني ليست مجرد شخص واحد . انها تضم — في داخلها — حزمة من اشخاص مختلفة ، احيانا متصارعين ، كل هؤلاء الاشخاص يحتلون جسما واحدا له عمر واحد : ٢٦ سنة بالكثير ٢٧ .

عندما تتحدث ستيفاني فان صوتها يرغمك على الانتباه له . صوت خفيض رقيق ، تحتاج الى اربع آذان لسماعه . ان الصوت يبدأ أولا في لفت نظرك ، في الحصول على انتباهك ، على اذنك . صوت منتش بطيء ، رنان ، لا تختلف درجاته وأنغامه كثيرا في البداية . نادرا ما يتحول الصوت الى صوت جازم متأكد اثناء الحديث . لحظتها تكرر ستيفاني بضع كلمات سوف تألفها من الان فصاعدا ، كلمات مثل « غير معقول . غير ممكن » ، او تقول مثلا — تقول لنفسها . « بكلمات اخرى .. » ، ثم تبدأ في تأكيد آرائها السابقة بكلمات اخرى .

انه صوت ديكتاتوري ، ينزع الى تملكك ، الى السيطرة على مسامعك . انه الشيء الوحيد الذي يتحرك في قوامها النحيل الرقيق وعندما تتكلم ستيفاني ، بوجهها المتجه الى الامام ، وشعرها الطويل الاسود المنسدل على كتفيها ، ونظارتها الطبية على عينيها ، و .. حسنا .. انا لا احب النظارات الطبية . اخلعي هذه النظارة يا ستيفاني . انها تخلعها بحركة تلقائية لاشعورية ، احيانا اخلعها انا قبل ان تستأنف ستيفاني الحديث عن موضوعات عديدة لا التقط غير اطرافها .. اعتدت ان اكون طموحة جدا .. ان امي طبيبة

جدا .. انها اقصر مني ، ولكنها طيبة .. تصور ، عندما طلبتني في التليفون اليوم ورددت عليها اندهشت .. انها تصورت انني لابد أن اكون مريضة حتى اجلس في البيت .. كان يجب ان أكون في المدرسة ، او العمل .. انا لاأتذكر الاسماء جيدا .. تشرب قهوة ؟ .. انا افضلها بغير سكر .. مجانين هؤلاء المتظاهرون في الشوارع .. انهم يريدون حرق البلد كلها .. انا ايضا اجد الكثير مما يستحق السخط .. لكني لااحرق بلدي .. هل لديك فكرة عن الهبوط الذي تم في أسعار البورصة .. فظيع فظيع .. «بكلمات اخرى ... ؟

هكذا تستمر ستيفاني في الحديث . أحيانا يخفض صوتها الى درجة التحدث مع نفسها .. نادرا يرتفع الصوت الى درجة تتسع لسماع شخصين . ان صوتها لايصل الا الى شخص واحد فقط . بادوب . ستيفاني لاتتحدث الا مع شخص واحد . ان الكلمة لاتخرج من فمها الا بعد اختيار ، بعد تفكير . انني استطيع أن اشعر بافكارها تدق في شرايينها . ربما هنا ـ هنا ـ تتميز ستيفاني عن بنات كثيرات في سنها . شكلها . الباقي تشترك فيه ستيفاني مع اي فتاة امريكية تحت سن الثلاثين . انها مجنونة احيانا . انها تكره الفقر ، تعشق الموسيقى ، تحب الراحة ، تريد الفخامة ، تحتفظ بقدميها على الارض دائما ، لديها حماسة رجل الاعمال ، تريد التملك ،انها تعرف اين تتجه . لا المشاكل ، ولا العقد ، ولاالعقبات .. تستطيع ان تؤثر فيها . انها اكثر دقة من ساعة سويسرية ، اكثر سرعة من صاروخ . اكثر قوة من دبابة . اكثر عنادا من ثور .. ان ستيفاني تعمل لتعيش .. وعندماتعيش ستيفاني فيجب أن تكون للحياة عندها معنى .

ان معنى الحياة بالنسبة لستيفاني يتركز في اشياء قليلة : الملابس ، الكتب ، الراحة . النبيذ . الرقص . نعم الرقص انها تريد أن ترقص دائما ، حتى لو كانت مفلسة ، بل ـ خصوصا عندما تكون مفلسة .

« انني اليوم جائعة جدا ، مفلسة جدا » !

انهاتقول ذلك، ثم تبتسم . انها ـ بابتسامتها ، تبدو غير مبالية جائعة ، ولكن ليست جائعة جدا ، مفلسة ، ولكن ليست جدا .

قلت لها: حسنا ـ هذا معناه ان تبقى في المنزل الليلة ، على ساندويتش وفيلم في التليفزيون .

ان كل فتاة ـ خصوصا عندما تكون جائعة « جدا » مفلسة

Add to Basket

« جدا » تفعل ذلك .. ولكن .. ليست ستيفاني . ان ستيفاني — حتى لوكانت مفلسة — تحب ان تسير، انتمشي، ان ترقص ان ترى الناس .. انها لاتستطيع احيانا أن تواجه نفسها، فتفضل ان تواجه الناس . وفي هذه اللحظات يجب على ستيفاني ان تلوب . لكي تنسى ، لكي تضحك، لكي تتحرك ، يجب أن ترقص .

عندما ترقص ستيفاني فانها لاترقص بقدميها فقط ، ولا حتى بقدميها ويديها ، مستحيلة هذه الاثانية على قدميها ويديها . عندما ترقص ستيفاني فان اشياء كثيرة ، فيها ترقص . كل شيء فيها يرقص. عندما اقول كل شيء اقصد كل شيء. عيناها، قدماها، يداها، وجهها، فمها، إسنانها، اصابعها . اظافرها . ان عقلها في هذه الحالة قائد اوركسترا ، وكل عضو في جسمها يرقص باشارة من قائد الاوركسترا ، كل عضو — حتى من غير اشارة — يعرف ان الرقص بالنسبة له هو السعادة ، الذوبان . النسيان .

في هذه اللحظات فقط تحس ان عقل ستيفاني ليس في راسها . انه في قدميها . وبمجرد ان ينتهي الرقص يعود العقل الى مكانه .. يعود الى راسها .

ان ستيفاني هي نموذج للفتاة الامريكية المعاصرة . الفتاة التي تعيش أسرتها في نيويورك ولكنها هي تفضل ان تعيش وحدها . تستاجر شقتها الخاصة في نفس المدينة بعيدا عن اسرتها . انها تعيش حياتها . انها حرة في حياتها . ولكن الحرية عندها المسئولية . لاقيمة للحرية بلا مسئولية . انها تستطيع ان تفعل اي شيء معك . تستطيع ان تعجب بك ، ان تحبك .. أن تقضي عطلة الاسبوع معك، ولكنها لابد أن تقتنع بك اولا كصديق .. قبل ان تفكر فيك كعاشق ، أو حتى كزوج ، انها حاليا تفضل العمل على الزواج ، ولكن المجتمع لم يتهمها بالاستهتار . لا المجتمع ، ولا الناس ، ولا الاسرة .. يتهمونها بالعقوق او يطلقون على سمعتها الاشاعات .

ان ستيفاني تعمل عندما تصبح شخصا آخر .. ربما يكون رئيسها في العمل صديقا لها ، ولكن الصداقة شيء والعمل شيء اخر .. انك في المكتب تجدها كاي رجل يعمل من الاثنين الى الجمعة . من صباح الاثنين الى مساء الجمعة هي شخص يعمل . يقرأ . ينام مبكرا .. حتى لاتتاخر عن عملها خمس دقائق . ان الاسبوع بالنسبة لها هو يومان فقط . من الاثنين الى الجمعة .. هذا يوم واحد اخر لاينفصل .. يوم من الراحة .. من الرقص ، اللهو ،

التسلية، الخروج بعيدا عن نيويورك، الاسترخاء على انغام الموسيقى

ان هذه الفتاة ستيفاني — هذه الفتاة العاملة — تميز المجتمع الامريكي ، ولكنها ليست الشيء الوحيد المميز للمجتمع الامريكى . هناك اشياء اخرى كثيرة مميزة . اشياء كثيرة، منها ثلاثة بالتحديد: **لعبة البيسبول ، سندويتش السجق ، والكوكاكولا .**

ان البيسبول هى لعبة قومية امريكية بقدر ما الكريكيت لعبة قومية انجليزية . والبيسبول لعبة يمكن ان يلعبها اى عدد من اللاعبين غالبا ، باى ادوات غالبا ، فى اى مكان غالبا . ان عدم النظام هنا كان بداية مهمة جدا للعبة . فامريكا نفسها بدأت بلدا بلا نظام على الاطلاق .. وخلال الخمسين سنة الاخيرة فقط اصبح كل شيء فيها يخضع للنظام . الفتيان والفتيات فى المدارس، رجال الاعمال ، الاصدقاء ، والجيران ، والمستوطنون والقادمون الجدد، النباتيون ، والمطالبون بمنع الخمور ، وزراع الزهور ، هواة الحدائق ، جامعو الطوابع ، وقراء الكتب، انه مجهود لاعطاء مظهر الاستقرار لمجتمع بدأ بلا استقرار . مظهر من الثبات لمجتمع بدأ غير ثابت .. مجهود لخلق النظام فى مجتمع آمن طويلا بالفوضى .

ان الكاتب الانجليزى الراحل **برنارد شو** زار امريكا فى سنة ١٩٣٣ وفى الزيارة خاطب الامريكيين فى احدى محاضراته قائلا : انكم اذا فحصتم الدستور الامريكى لوجدتم انه فى حقيقة الامر ليس دستورا ولكنه تعهد الفوضوية ، انه ليس اداة للحكم .. ولكنه بمثابة تعهد للشعب الامريكى بأنه لن يحكم ابدا ، وهذا بالضبط مايريده الامريكيون .. لقد اقمتم فى غمرة فزعكم من الدكتاتوريين وحكم الديكتاتوريين مجتمعا، كل رئيس وردية فيه ديكتاتور، وكل ممول ديكتاتور ، وكل صاحب عمل ديكتاتور ، ان كل هؤلاء الديكتاتوريين يضعون حياة العمال ومعاشهم تحت رحمتهم تماما ، ولايشعرون نحو المجتمع الذى يعيشون فيه باية مسئولية عامة . »

ان الفوضى اذن كانت — فهى الان تتراجع — من مميزات الشعب الامريكى . الفوضى وسندويتش السجق والكوكاكولا .

فالرجل الامريكى عندما يدخل لايطلب سوى الهامبيرجرا او سندويتش سجق . سندوتش يفزع كل مصرى فى البداية من مجرد اسمه ، ان اسمه هو Hot Dog اى سندويتش كلب ساخن ! مع انه لاتدخل فيه اى قطعة من لحم الكلاب !

والرجل الامريكى سوف تجده دائما يكره الفلسفة .. ويأكل سندويتش السجق . يلعب البيسبول .. ويأكل السجق ..

يشاهد التليفزيون .. ويأكل السجق . يأكل السجق .. ويشرب الكوكاكولا .

ان الكوكاكولا فى امريكا ليست مجرد مياه غازية منتشرة . انها اسلوب عمل . اسلوب تفكير ، تنظيم ، ترويج ، دعاية .. وحتى .. اسلوب استعمار جديد ! وعندما اناقشها الان بقليل من التفصيل فاننى اناقشها على هذا الاساس .

ان سكان العالم يشربون الان مائة مليون زجاجة كوكاكولا يوميا — انهم يشربونها فى ١٣٨ دولة ، اى اكثر من عدد الدول الاعضاء فى الامم المتحدة ب ١٥ دولة ! لقد اصبحت اكثر السلع توزيعا فى العالم كله . واذا استخدمت الاسلوب الامريكى فى الكتابة فسوف اقول : اننا اذا وضعنا كل الزجاجات التى تم انتاجها من الكوكاكولا بجوار بعضها فانها سوف تشكل حزاما يلف حول الكرة الارضية ٣٥٠٠ مرة ، او يصل الى القمر ويعود مائتى مرة . واذا وزعت كل الزجاجات التى تم انتاجها من البداية على سكان العالم الان ، فسوف يحصل كل شخص على ٢٢٠ زجاجة !

ان الكوكاكولا ليست اكبر شركة فى الولايات المتحدة . انها الشركة رقم ٨٢ فى ترتيب الشركات الامريكية الكبرى ، رغم ان ممتلكاتها تزيد قيمتها الان عن اربعة الاف مليون دولار . الكوكاكولا ليست اكبر شركة امريكية ، ولكنها نموذج لاسلوب العمل الامريكى وهى — من زاوية اهتمامنا هنا — تصلح كنموذج لمقاييس المجتمع الامريكى .

ان الامريكى العادى قد يقول لك بكل فخر : ان مؤسس شركة الكوكاكولا جاء الى اتلانتا فى البداية وفى جيبه اقل من دولارين . ولكنه حينما مات فى سنة ١٩٢٩ ، كانت ثروته تساوى خمسين مليون دولار ، وارباح شركته السنوية تقترب من الـ ٢٥ مليون دولار ؛ ان اساشاندلر — هذا اسمه — كان رجل اعمال . انموذج اعمال على الطراز الامريكى : يعبد الله ، وامريكا ، والدولار ، والكوكاكولا !

هكذا يخبرك الامريكى بفخر . فالامريكى — فى الحياة العملية — يبحث عن الوصفات الجاهزة التى تقدمها له ، وسائل الاعلان والاعلام النجاح . انه يمجد السامى الذى يصبح رئيسا للجمهورية ، راعى البقر الذى يصبح صاحب بنك ، الكاتب المبتدىء الذى يمتلك صحيفة ؛ الشحاذ الذى يصبح مليونيرا .

حسنا . دعنا نأخذ هذا الكلام على علاته . ودعنا نسلم انه فى سنة ١٩١٩ كانت قيمة السهم فى شركة الكوكاكولا اربعين دولارا ، بينما اصبحت الآن ٨٥٠٠ دولار .. وان قيمة مبيعات الشركة

سنويا هى اكبر رقم فى التاريخ (الف مليون دولار) ، او ان ارباحها السنوية هى اكبر ارباح (مائة مليون دولار) .

بعد ذلك دعنا نبحث خلال شركة الكوكاكولا — عن ملامح التفكير الامريكى ، والاسلوب الامريكى فى العمل عندما بدأ بانتاج الكوكاكولا (فى سنة ١٨٩١) فان اول خمسين دولارا كسبتها الشركة فى سنتها الاولى ، خصصت منها ٤٦ دولارا للاعلانات والدعاية . ان هذا يشرح جزئيا ظاهرة الكوكاكولا . فمادامت انها مشروب لايمكن تحسينه ، فان الدعاية وحدها هى التى تستطيع ان ترفع المبيعات ، ولكن هذا يشرح ايضا دور الدعاية والاعلان فى الاقتصاد الامريكى ، ثم فى الحيــاة الامريكية كلها .

ان اهم قسم فى شركة او مؤسســـة امريكية هو دائما قسم الدعاية والعلاقات العامة . ان الايمان الامريكى بفــائدة الدعاية والعلاقات العامة فى الاقتصاد هو بلا حدود ، وحتى السياسيون ونجوم السينما لهم وكلاؤهم المتخصصون فى تنمية علاقاتهم العامة .. حتى الجامعات لها مكاتب علاقات عامة ، حتى الكنائس ، لها اساليبها هى الاخرى فى الدعاية صحفيا واعلانيا .

والكوكاكولا ليست مجرد شركة تنتج الكوكاكولا . انها شركة تمول عددا ضخما من البرامج الرياضية ، نوادى الشباب ، والافلام التعليمية والثقافية التى تعرض فى الكنائس والمدارس ، كل هذا جميل وبرىء فى حد ذاته ، ولكن هذا لا يتم ابدا لوجه الله او للثقافة . انه تنشيط مبيعات .. الكوكاكولا تنتج لك فيلما سينمائيا عاديا ، او تمول برنامجا تليفزيونيا ، او تطبع كتابا ثقافيا لالشىء الا لكى تعرض لك فى كل موقف — وبشكل يبدو عارضا — تلك الزجاجة المشهورة التى تشربها امراة — نادرا رجل — تبدو عليهــا السعادة ! بهذا الاسلوب تمول الشركات الامريكية برامج التليفزيون والاذاعة والصحف والافلام .

ولكن الدعاية وحدها لاتكفى . فالانتاج معرض للتقليد ، والنجاح معرض للتقليد ، لهذا فان اهم عمل تال هو حماية الانتــاج من التقليد حماية سر المهنة سر الانتاج . لهـــذا فان معظم الشركات الامريكية تضم اقسام مخابرات خاصة بها للتجسس على الشركات الاخرى المنافسة وحماية منتجاتها هى من التقليد ، ان القــانون يحمى كل سر انتاج مسجل من التقليد ، ولكن القانون وحده لايكفى فى امريكا . هناك دائما اسرار انتاج ، وابحاث لتطوير الانتاج ، لابد ان تعمل الشركة نفسها لحمايتها من التسرب .

وفى حالتنا السابقة مثلا ـ شركة الكوكاكولا ـ نجد أن تركيب الكوكاكولا يمثل واحدا من أدق الاسرار الصناعية فى العالم . ان ١٤ من الـ ١٥ مادة التى تدخل فى تركيب الكوكاكولا معروفة فعلا، سكر مكرر ، كرملة، كوكا ، كولا ، قرفة ، جوزة الطيب ، عصير ليمون . فانيليا ... الخ ..

ولكن المادة الخامسة عشرة لايعرفها احد . مادة تسمى ٧ اكس ٧ X مادة لم يعرفها فى الشركة كلها طوال عمرها اكثر من ثلاثة ولااقل من شخصين . انهم لايسافرون معا واحيانا لايعرفون بعضهم !!

ان الاحتفاظ بسر الانتاج هو امر مهم للانتاج فى امريكا اذن ، ولاشيء يأتى بعد ذلك سوى المنافسة . منافسة قاتلة . ان قواعد اللعبة معروفة مقدما ، واللاعبون لايرحمهم احد . من الممكن ان تنجح شركة اليوم ، وتفشل غدا . اذن : تفلس الشركة ، وتخرج من حلبة السباق !

واذا عدنا الى نموذجنا السابق ـ شركة الكوكاكولا ـ فاننا سوف نجد انه بعد كل هذا النجاح ، فان الشركة تعرضت لازمة نفسية ضخمة فى أوائل الخمسينات ، كانت الشركة فى ذلك الوقت تنتج سلعة واحدة هى الكوكاكولا ، فى الحجم التقليدى للزجاجة المشهورة ، ولكن فجأة ، بدأ نصيب الكوكاكولا من مبيعات السوق يتناقص .. لقد أصبح مشروب اخر ـ هو البيبسى كولا ـ منافسا خطيرا ! عند هذه النقطة قررت الشركة أن تلغى سياستها المطبقة طويلا فى التركيز على انتاج سلعة واحدة . قررت أن تعبىء الكوكاكولا فى احجام اكثر تطورا . خطوة قررتها الشركة سنة١٩٥٤ بعد هذه الخطوة فقط ، بعدهذه الابحاث فقط على ذوق المستهلك ـ قفزت الشركة مرة أخرى الى الامام حتى أصبحت تنتج الان ٢٥٠ سلعة اخرى غير الكوكاكولا ، فى خمسمائة عبوة مختلفة . ان البيبسى كولا تبيع الان فى امريكا اقل من نصف مبيعات منافستها، ومع ذلك فان وجودها فىالسوق ـ مجرد وجودها اعطىالكوكاكولا درسا الا تركن للكسل مرة اخرى .

انالمجتمع الامريكى يستطيع انيتحمل منك اشياء كثيرة، الا الكسل ، هذه قواعد اللعبة ، بمجرد ان دخلت ميدان التجارة والاقتصاد ، فقد اصبحت خاضعا للعبة . بمجرد ان تصبح رجل اعمال على الطراز الامريكى ـ فلن تستطيع مطلقا التاكد من غناك اوفقرك الا اذا دققت النظر كل يوم فى أرقام البورصة . من الممكن

ان تكون ضياق لحظة وفقيرا ف اللحظة التالية . قلت هذا من قبل .. ان سماسرة البورصة لايحكمون على الصحة الاقتصادية للمجتمع بكمية المحاصيل في المزارع ، اوارقام الانتاج ف المصانع .. ولكن بما تم الرهان عليه في البورصة، شيء تمت تربيته وزراعته ف الشخصية الامريكية نفسها .

واذا دخلت اي مكتب ف هذه الشركة ، او ف اى شركة اخرى .. فان قواعد اللعبة سوف تتضح لك اكثر واكثر . ان المدير ف داخل اى قسم من اى شركة وظيفته ان .. يدير ، ان سلطته واسعة وقراراته سريعة. ان عليه أن يتصرف كما لو كان سيصبح رئيسا لشركته غدا . الواقع ان كل موظف مطلوب منه أن يتصرف كما لو كان سيصبح رئيسا لشركته غدا . لانه لو آمن بذلك .. فانه سيتعلم دائما ، وينمى مواهبه دائما ، ويحصل على برامج تدريب جديدة دائما . باختصار : انه لن يصبح رئيسا للشركة . لا اليوم ولا غدا ، ولكن عليه دائما ان يكون جاهزا لهذه المهمة .

لهذا السبب فان من الممكن ان يفصل الموظف ـ يفصل المدير نفسه ـ ف لحظة ،لانهم وجدوا مديرا اكفأ منه . لقد سئل احد المقامرين مرة ماذا تفعل اذا ضبطت أمامك لاعبا يغش ف اوراق اللعب؟ فاجاب المقامر : ماذا افعل ؟ اراهن عليه بكل تاكيد !

حسنا . هذا هو نفس الاسلوب الذى يدار به العمل ف اى شركة هنا . ان مكافآتك جاهزة فورا عندما تمتاز ، ولكن عقوبتك جاهزة ايضا عندما تهمل . ثم ان الامتياز ليس هو المطلوب فقط ، ولكن الموظف مسئول عن المحافظة على سمعة الشركة ايضا ، ومسئول عن اعطاء كل دقيقة من وقت العمل للشركة .

عندما تدخل مكتبا ـ اى مكتب ف اى شركة ـ فانك .. لامؤاخذة .. لن تجد شخصا يدخل الى مكتبه بعد موعد العمل بربع ساعة او حتى بخمس دقائق . لن تجد موظفا يشرب شايا او قهوة ، يرغى ف التليفون ساعة ، يقترض جريدة من زميله ليتسلى ، يحكى لزميله مشكلته مع زوجته امس . لن تجد واحدا ينقطع فجأة عن العمل ، او يطلب أجازة مرضية ، او يقترض سلفة من المرتب . لن تجد كرسيا تستقبل عليه ضيفا . لن تجد ساعيا تعطيه بقشيشا لاحضار الغداء .. بعد هذا لن ترى موظفا يقف لرئيسه عندما يدخل المكتب ، او ينحنى له عندما يحدثه ، اويقول له : افندم او « حاضر يا بك » اذا زاد احترامه لرئيسه عما يجب فهذا ضعف في الشخصية ، اذا تلعثم ف شرح افكاره فهذا معناه

ان تفكيره مضطرب ـ ان الكلام الواضح دليل على تفكير واضح ، اذا انهى عملا بعد موعده فهذه عدم كفاءة. اذا عمل سكرتيرا فيجب ان يرد على التليفون ويأخذ الرسائل ويكتب على الآلة الكاتبة . ان الشركة ، المجتمع ، الناس ، يتوقعون منك ان تكون منطقيا .. بسيطا .. كفئا .. مشغولا بالمستقبل ان حافزك هو السلطة والثروة . ان عينيك تزنان كل شيء كادوات تساعدك في المنافسة على السلطة والثروة . انك مسئول عن البحث لنفسك باستمرار عن عمل احسن ومرتب اكبر .

وحينما تحصل على عمل في شركة اخرى ، فان الشركة الجديدة تسألك عن خبرتك ، وتسألك ايضا : لماذا تركت العمل في آخر شركة. انهم سيقبلون كلامك كما هو، خلال يوم واحد سيتأكدون من صحته . فكل شركة مستعدة لاعطاء الشركة الاخرى اي بيانات عن عملك وسلوكك وكفاءتك . وكل شيء ماعدا مرتبك .

ان الصدق يأتي في الترتيب بعد الكفاءة في العمل .. شرطان ضروريان لنجاح الادارة ، اي ادارة . ان امريكا كلها هي تنظيم . هي ادارة. هي علم تنظيم الادارة .. هنا في امريكا . سوف تحصل على الاحساس ان تاريخ الحضارة كلها هو مجرد تاريخ شركة جنرال موتورز ، او بنك تشيز مانهاتن . انه تاريخ اي شركة او بنك . !

ان هولندا هي بقال اوربا .. والمانيا هي مصنع اوربا . وفرنسا هي كوافير اوربا وسويسرا هي مصحة اوربا . واسبانيا هي ملهى اوربا .. واليونان جرسون اوربا . وايطاليا مطعم اوربا .. ولكن هنا .. في امريكا .. سوف نحس ان هذا البلد هو بنك العالم!

عندما يصاب بنك في هذا البلد .. تتلوى امعاء رجل الشارع في امريكا ! فاسلوب العمل كله ، اسلوب الادارة كله ، هو اسلوب بنك .. نظام بنك.. ان اي بنك يعتمد على : سمعة ، سرعة ، ثقة يستطيع ان تأخذ منا قرضا من اي بنك بغير اي ضمان .. ولكنك لو تأخرت مرة في السداد فسوف ترفض كل البنوك بعد ذلك التعامل معك !

ان هذا الاسلوب في العمل له ضرورته ، البعيدة في الشخصية الامريكية نفسها .

ان هذا البلد ـ امريكا ـ قد عمره واستوطنه في البداية ناس لم يكونوا ناجحين في مواجهة الظروف الاجتماعية ببلدهم الاصلي، او كانوا يعتقدون بانهم يستحقون نجاحا اكثر . انهم فروا من تلك

الظروف املا فى حياة احسن . لقد جاءوا يبحثـــون عن تعويض لحرمان سابق تعويض يبحثون عنه فى اقل وقت ، وباى ثمن .

هذه العملية فى حد ذاتها ادت الى بقاء نوع معين من الاشخاص .. نوع هو الذى يستطيع ان ينجح ويستمر حتى الجولة الاخيرة يخضع لعملية انتقاء واختيار يجريها المجتمع يوما بعد يوم . نوع من الاشخاص له مميزات الايجابية .. وعيوبه السلبيـــة ، انه مجتمع من المهاجرين .. من العطشى .. عطشى للنجاح، للنقود للتغيير ، للتقدم ، هذا معناه ان من يستطيع ان يبقى فى السباق هو فقط من لديه كمية هائلة من النشاط ، الطموح ، الحركة، والتفـــاؤل .

ولكن هذا له جوانبه السلبية ايضا . فاذا كان المجتمع الامريكى قد كسب الشخص الجرىء والنشيط ، اذا كان قد كسب نصيب الاسد من شخص ، فانه قد حصل ايضا على شخص بلا حـلو.. شخص طموح ــ نعم .. ولكنه يؤجل عواطفه دائما . تفاؤل ــ نعم ، ولكن النقود عنده اهم من العواطف ، الرحمة عنده اسوامن الفشل ، الفشل اسوا من الموت ، شخص .. العطف عنده ابراف .. الوسط . عنده فشل ، الهدوء مصيبة ، الجمودتاخر ، والفقر جريمة ، جريمة شخص لاجريمة مجتمع .

لقد ادى هذا المناخ مهمته . اصبحت امريكا اقوى دولة اغنى دولة ، اكثر دولة تقدما . لقد اصبح البطل الجديد ــ المعبـــود الجديد للمجتمع الامريكى ، هو الدولار ، رجل الاعمال ، صاحب البنك ، عملاق الصناعة ، لقد خرج راس المال الامريكى خـــارج الحدود ، يستثمر فى اوربا ، يستعمر فى آسيا . ويشترى الزعماء السياسيين فى « جمهوريات الموز » امريكا اللاتينية .

ولكن من ناحية اخرى ــ لم يتوقف تاثير هذا المناخ عند هـــذا الحد . لقد امتد ليخلق فى المجتمع الامريكى شياطين اخرى كثيرة ..التوتر، العنف، العنصرية، العواطف الميكانيكية ،السرعة الجنونية « لقد اصبحت امريكا مجنونة » .. هذه جملة تقليدية نسمعها باستمرار فى اوربا كتعبير عن راى الاوربيين فى حماقة الامريكيين احيانا .. لاشىء يتسم منه الامريكيون قدر هذه الجملة !

ولكن الحماقة لها جمهور فى الولايات المتحدة . اننى لااريد ان اصدر احكاما ضد المجتمع الامريكى لانها فى النهاية سوف تكون احكاما اخلاقية . فى الواقع ان الشخص الامريكى العادى يتمتع بصفات كثيرة تستحق الاعجاب والاحترام والفهم ولكن المســألة

هى انك لا تستطيع ان تأخذ فكرة كاملة عن اى مجتمع من خلال انجازات المجتمع الامريكى يراها كل الناس ابتداء من العقل الالكترونى الى الهبوط على القمر ان الفكرة من اى مجتمع لاتكون كاملة .. الا اذا تضمنت ايضا شرحا لجروح هذا المجتمع .

ان اول هذه الجروح هو العنف .. انتشار العنف . فمنذ سنة ١٩٠٠ .. قتل فى امريكا ثمانمائة الف شخص ــ اى اكثر من قتلاها فى الحرب العالمية الاولى، والحرب العالمية الثانية ، وحرب كوريا، وحرب فيتنام .. معا .. !

لقد اغتيل اربعة من رؤساء امريكا الـ ٣٧ لينكولن، جارفيلد، ماكينلى ، وكنيدى ، وتعرض للاغتيال ثلاثة اخرون : روزفلت ــ ترومان ، نيكسون .

والسبب فى هذا كله نجده فى طبيعة وتكوين المجتمع الامريكى نفسه . ان التاريخ الامريكى يبين لنا ان التغيير فى امريكا يكون دائما بالغ العنف . فالمجتمع الامريكى مجتمع عنيف ، ولد فى عنف ، وتطور اعنف ، وآمن بالعنف ، وعاش ليجنى الثمار المرة للعنف.

وفى القرون الخمسة التى مرت على اكتشاف « كولومبوس » للدنيا الجديدة كان العنف جزءا من الحياة الامريكية كان هناك عنف الغزو والمقاومة ، عنف التفرقة العنصرية ، عنف الحرب الاهلية ، عنف المجرمين والعصابات ، وقطاع الطرق ، عنف شريعة الثأر .. ثم كل هذا معا ضد عنف العصابات .. وعنف المدنية ..

وتستطيع ان تلمس هذا العنف فى الافلام الامريكية نفسها .. ان ابطال الشاشة الذين يصفق لهم الجمهور الامريكى هم هؤلاء الذين تراهم دائما مشغولين بكيل اللكمات للناس فى وجوههم عندما لايكونون مشغولين بتقبيل البطلة . او البطلة التى تصفع البطل .. فيقبلها هو فى اللحظة التالية ..

ان المجتمع الامريكى كان يحتفظ بالعنف دائما كوسيلة اخيرة لتصفية خلافاته وانقساماته .. انه مجتمع يعلم انه من البداية منشق على نفسه .. انه يعلم ان امريكا نفسها قد ولدت فى لحظة الشقاق ، والجمهورية ولدت فى لحظة الشقاق ، وان كل رائد حمل عصاه على كتفه وتوجه الى امريكا بثقة فى المستقبل فعل ذلك فى لحظة انشقاق على ماضيه .

وهذا الانشقاق نتبينه اليوم فى مظاهر كثيرة فى الحياة الامريكية . انشقاق مع خيبة امل .

ان اليمين الامريكى مصاب بخيبة امل : ان هزائم امريكا فى العالم

تتزايد يوما بعد يوم خارجيا ، والسود ينتصرون فى مقاومتهم للتفرقة العنصرية محليا .

واليسار الامريكى مصاب بخيبة امل : امريكا تتحول بسرعةالى مجتمع بوليسى ، والاحزاب الامريكية اثبتت أنها ضد أى تغيير جذرى .

البيض مذعورون من اصرار السود على المساواة الاقتصادية والاجتماعية .

والسود مذعورون من شراسة الرجل الابيض فى التمسك بالتفرقة العنصرية .

الجيل القديم يريد الاستمرار فى الحكم والسلطة ، برغم كل الكوارث التى سببها لامريكا خارجيا ، وبرغم كل جهوده لاسكات الاصوات المعارضة داخليا . انه جيل بلا مبادىء ولا اخلاق ولامثل عليا . ومع ذلك فهوأعلىالاجيال صوتا فى التشدق بالاخلاق والمثل العليا .

والجيل الجديد هو الجيل النظيف الشريف فى امريكا . انه يواجه الجيل القديم بمطالبه : قوة اقل ، وشرف اكبر ، تورط اقل . ومبادىء اكثر . انه لايريد لامريكا ان تكون رجل البوليس فى العالم . يريدهامجموعة من المثل والمبادىءوالتقدم بغير عجرفة، والقوة بغير عنجهية بغير غرور .

وكل فريق من هؤلاء يحتفظ بالعنف كوسيلة اخيرة لتسوية خلافاته وحساباته مع الفريق الاخر وحتى حينما يتحرك المجتمع الامريكى ضد العنف .. فانه ايضا يتحرك بعنف . ان رد الفعل يكون متطرفا .. عنيفا..جامحا . رد فعل تستطيع أن تلمسه فى جميع الانتخابات التى جرت فى امريكا خلال السنوات الاخيرة . ففى كل انتخابات الرئاسة يتحرك اليمين الامريكى بشراسةحاملا شعار « محاربة العنف» أو شعار « محاربة الجريمة » .

لقد كان بارى جولد ووتر مرشح الحزب الجمهورى للرئاسة سنة ١٩٦٤ رمزا لهذه الظاهرة فى انتخابات تلك السنة .

كان الشعار بالنسبة له سنتها هو « الجريمة فى الشوارع » .

وفى انتخابات الرئاسة سنة ١٩٦٨ ــ التى حضرتها وشاهدتها عن قرب ــ رشح اليمين الامريكى مرة اخرى جورج والاس . لقد اعطى والاس للقضية اسماجديدا هو « اقرار النظام والقانون » ان الـ ٢٧ مليون صوت التى حصل عليها جولد ووتر فى سنة ١٩٦٤، كانت هى نفسها نقطة البداية بالنسبة لوالاس سنة ١٩٦٨

والواقع ان جولد وتر وولاس هما شخصيتان تقليديتان في السياسة الامريكية .. تقليدية كشخصية العم سام . انهماعبارة عن مزيج من الايمان بالتفرقة العنصرية والعداء نحو المثقفين . وهذا المزيج ليس جديدا كظاهرة عامة في السياسة الامريكية .. ففي الخمسينات كان هناك مكارثي الذى قاد حربا مروعة ضد المثقفين الامريكيين بحجة محاربة الشيوعية في امريكا . ان مكارثي كان نتيجة للتورط الامريكي في حرب كوريا .. وكان ايضا رمزا لسقوط وتدهور الحزب الديمقراطي .

وفي انتخابات عام ١٩٦٨ كان جورج والاس هو نتيجة للتورط الامريكي في حرب آسيوية اخرى : حرب فيتنام ، نتيجة لتدهور نفس الحزب : الحزب الديموقراطي .

ان مكارثي وجولد وتر ووالاس، يعبرون اذن عن ظاهرة مستمرة في السياسة الامريكية والمجتمع الامريكي، لهذا فان ظهورهم على المسرح لا يثير تساؤلا ما ، ولكن مايجب ان يثير الاهتمام هو التعرف على القوة التي تختارهم للتعبير عنها .

لقد حاولت ان اتعرف على هؤلاء الناس حينما ذهبت الى امريكا لاول مرة سنة ١٩٦٨ ، وحضرت انتخابات الرئاسة وقتها . لقد اردت ان اكتشف من هم المؤيدون الذين يعبر عنهم والاس .حسنا .. لا لغز هناك .

انهم ــ كما اكتشفت ــ هم جزء هام من الشعب الامريكي .طبقة تقع في اسفل الطبقة الوسطى . ناس يعملون باجسامهم ، يفكرون بايديهم ، يدفعون اشتراكات لنقابات لا تهتم بهم .. ناس يسوقون تاكسيات او يخدمون في بار . ناس يذهبون للصيد مع اطفالهم في الاجازات . ناس يناولون اطفالهم الى زوجاتهم بينما يصفقون لمرشحيهم ، انهم يحدثونك عن دنيا مليئة بالاعداء طلبة ، شيوعيون ، صينيون ، النيويورك تايمز ، فيدل كاسترو، الروس ، نيويورك ، السود ، متعاطو المخدرات .

انها دنيا غريبة ، مليئة بالمذعورين والخائفين . المذعورين من الهزيمة الامريكية في فيتنام . المذعورين من اصرار السود على المساواة بهم . المذعورين من مطالبة الفقراء بنصيب في الثروة . المذعورين من سعى الطلبة لنصيب في السلطة .

ان نموذج هؤلاء المذعورين هو الرجل الذى « ليس شابا » ليس اسود . ليس فقيرا . هذا النموذج يعيش في منزله الخاص ، لديه سيارة ، عليه قرض ، يؤمن بأن الضرائب التي يدفعها مرتفعة

وان الفقير يريد الحصول على شيء مقابل كـله وان السـوديريدون اكثر مما يستحقون . ان دنياه مليئة بالخوف اكثر ماهى مليئـة بالكراهية ولكن فيها من الكراهية مايكفى لجعلها خطرة. انه يريد التغيير . لهذا يعتمد على اليمين المتطرف فى اجراء هذا التغيير. يعتمد على جولد ووتر ووالاس لمجرد انهما يقولان له ان التغيير بسيط ،. فقط غير الرجل الذى فى كرسى الرئاسة فيعود المجتمع الامريكى الى سـنة مثل سـنة ١٩١٠ .انهم يقولون له ان ثورة السود فى امريكا غير موجودة !

يكفى قمعها مزيد من القنابل ، يقولون له انحرب فيتنام غير موجودة . يكفى ان تسقط امريكا عددا كافيا من القنابل خارجيا، وتسكت كل الاصوات المنشقة داخليا . . ثم ياتى النصر . يقولون له ان اى معارض لحرب فيتنام يجب «محاكمته» بتهمة الخيانة بعد جرجرته من شعره علنا امام المحكمة ،وكل متظاهر يجب ان تدوسه سيارة البوليس .انهم يقولون له ــ باختصار ــ ان مشاكل المجتمع الامريكى المعاصر لاتمثل فى الواقع اية مشكلة . انهاجميعا ممكن حلها بتعيين مزيد من رجال البوليس وانتاج مزيد من القنابل بعدها يمكن للمجتمع الامريكى أن يعود الى سنة ١٩١٠ ، حينمـا كان هناك حصار فى الشتاء ، وولائم فى الربيع ، حينما كان الاطفال يذهبون الى السباحة فى البحيرات ويلعبون كرة القدم ويعبدون الله ويحترمون والديهم والدولار وامريكا . ان معظمهم يريد أن يعود الى زمن فى امريكا كان يعيش فيه فى نفس المنزل طول عمـره ، ويعرف كل شخص يقابله فى الشارع . زمن لم تكن فيه فيتنام ، الصين ، الاتحاد السوفيتى ، الشـيوعية ، الطلبة . انهم ــ كمريض فى مستشفى ــ لا يسـالون انفسـهم ابدا .. هـل فيتنام تنتمى لامريكا ؟ اهـل هى مهمـة لها ؟ اليسـت واحدة من الاسنان المؤلمة للشعب الامريكى التى يجب خلعها ؟ .. ابدا . انهم فقط يرددون لك حجة واحدة : « لقد فقدنا الصين من قبل .. ولن نفقد فيتنام الان » . يقولون لك ذلك كما لو كانت الصين ولاية امريكية .كمالوكانت الحرب الاهلية الطويلة التى عاشتهـا الصين لتحرير نفسها هى مجرد مباراة كرة .

هؤلاء هم الملايين التسعة الذين اعطوا لجورج والاس سنة ١٩٦٨ والملايين الـ ٢٧ الذين اعطوا اصواتهم لجولد ووتر سنة ١٩٦٤ ، هؤلاء هم الذين سوف يستمرون ــ مع انهم يتناقصون ــ كقوة ضاغطة فى السياسة الامريكية لسنوات طويلة مقبلة . انهم يريدون

حربا مقدسة ضد كي شيء في العالم يختلف مع الاسلوب الامريكي في الحيـــاة .

هؤلاء هم الذين تنبأ بهم معلق امريكي ـ جون فربانك ـ سنة ١٩٤٧ ، حينما كتب معلقا على موجة طاغية وقتها ضد الشيوعية: « ان خوفنا من الشيوعية سوف يستمر في الايماء لنا بسياسات عدوانية معادية للشيوعية في اسيا وكل مكان اخر ، وسوف ينقاد الشعب الامريكي الى ان يفكر ـ وربما يعتقد حقا ـ ان مساندة الحكومات المعادية في آسيا هي بشكل ما دفاع عن الاسلوب الامريكي في الحياة . ان هذا اخطر من السياسة الامريكية الى ان تقيم نظما تحاول اخماد الحركات الشعبية في اندونيسيا والهند الصينيـة ، والفيلبين ، والصين ، وهكذا .. بعد الوقوف لمحاربة الشيوعية في آسيا ، سوف يضطر الشعب الامريكي في النهاية الى محاربة شعوب آسـيا .

ان هذا الخوف الذي تنبأ به المعلق الامريكي باثاره المدمرة مبكرا في سنة ١٩٤٧ هو الذي يجعلنا نفهم عودة اليمين الامريكي الى العنف عقب كل فترة من الهـــدوء ، ان مكارثي وجولد ووتر ووالاس لم يكونوا اذن سببا في هذا المرض الامريكي ، ولكنهم كانوا واحـدا من اعراضـه ..

ان المرض الحقيقي بعد ذلك في المجتمع الامريكي هو التفرقة العنصرية فحتى الان ـ حتى هذه السنة ـ مازال الامريكي الاسود يعيش في اجزاء كثيرة من امريكا كمواطن من الدرجة الثانية . في الوظائف ؟ آخر من يعين واول من يفصل . في البطالة ؟ فرصة تعطله هي فرصة الرجل الابيض في الاجور ! اجره هو نصف اجر الرجل الابيض . في نيويورك يعيش منفيا في حي خاص به هو حي هـــارلم .

ان حي هارلم في نيويورك مشهور بانه حي الزنوج ، ولكنه في الواقع ليس اكثر احياء السود بؤسا . ان هذا « الشرف » تحظى به احياء اخرى كثيرة غير حي هارلم . اما حي هارلم فهو العاصمة الزنجية ، مثلما نيويورك هي العاصمة الامريكية غير الرسمية . ان الاحصائيات تقول ان ٥٠٪ من الاسر الزنجيـة هنا يقل دخلها السنوي عن اربعة آلاف دولار ، بينما تنخفض النسبة الى ٢٠ ٪ في الاسر البيضاء .

ولقد كان الرئيس الامريكي الراحل جون كنيدي يقول مستنكرا : ان الطفل الامريكي الاسود ـ بصرف النظر عن مواهبه ـ لديه

احصائيا نصف فرصة الطفل الابيض فى التخرج من مدرسة عليا، ثلث فرصته فى التخرج من كلية ، ربع فرصته فى الحصول على وظيفة ، واربعة اضعاف فرصته فى التعطل .

ان هذه المشكلة هى التى جعلت امريكا من البداية بلدا منقسم الشخصية ، هناك دائما امريكا البيضاء ، وامريكا السوداء . ان امريكا لم توقع الهدنة قط بين هاتين الصورتين المتعارضتين . واحيانا — كما حدث مرة من قبل اثناء الصراع المرير بين الشمال والجنوب — وصل هذا الصراع الى قمته فى الحرب الاهلية . حرب كانت تمثل نقطة المواجهة بين الامريكتين .

ان تاريخ امريكا كله ليس الا تاريخا لمحاولات التوفيق بين هاتين الامريكتين : امريكا البيضاء ، وامريكا السوداء . انه توفيق لايتم ، وصلح لاينعقد .. لانه يتحرك على اساس اقتصادى . فما دام الامريكى الاسود هو الاضعف اقتصاديا فانه لن يحصل ابدا على المساواة الكاملة مع الامريكى الابيض . ما دامت جراثيم المرض حية .. فان اعراض المرض مستمرة .

بل ان اعراض هذا المرض نفسه امتدت لتصيب قطاعات اخرى كثيرة فى المجتمع الامريكى : ان الجيل الامريكى الجديد — فى نوبة من الاحتجاج الاخلاقى ضد امراض المجتمع الامريكى — بدأ يحمل لواء المعارضة ضد هذه الامراض — انه كما قلت من قبل — يريد لامته الشرف حتى بغير قوة . بعد ان اصبحت امريكا قوة . بغير شرف . انه يتساءل دائما « لقد غزونا الفضاء ماذا عن الجوع؟ » ويتساءل ايضا « اننا نتحمل اعباءنا .. **فلماذا لانتحمل انفسنا .. لماذا لايستطيع مائتا مليون امريكى ان يتحملوا بعضهم ؟ . »**

انه جيل جديد يريد أن يغسل قاذورات اليمين الامريكى . جيل متنبه لامراض مجتمعة ، متطلع لعلاجها . هذا هو الجيل الذى وقف بقوة ضد رئيسه حينما قرر غزو كمبوديا نفسها ، جيل يعرف المشكلة .. ولكن ردود فعله تختلف كثيرا فى مواجهة هذه المشكلة .

ان بعضهم — بعض الشباب الامريكى — يخرج فى مظاهرة ، وبعضهم يتحول الى هيبيز كما يسمونه فى امريكا . ان حركة الهيبيز انتشرت بين الشباب الامريكى — المتعلم بالذات — ويتهمونها هنا فى امريكا بالانحلال وبعدم ايمانهم بالقيم التى تعارف عليها المجتمع الامريكى . وانا ضد هذه النظرة السائدة فى بلاد كثيرة — ومن بينها

مصر ـ التي ترى حـركة الهيبيز في هـذا الاطار .. الاطار الذى يعتبرها حركة انحلالية كل مقوماتها تعاطى المخدرات واطالة الشعر وممارسة الجنس ، ان هـذه المظاهر صحيحة .. نعم . ولكنى اختلف في تفسيرها .

ان هذه الحركة هي وجه آخر للتفسخ الذى يشعر به الجيل الامريكى الجديد . يجب أن نفهم اولا ان هؤلاء الهيبيز هم أولا ساخطون ثم بعد ذلك نختلف معهم في كل شيء . نختلف مثلا في ان الفرد حينما يسقط نفسه من المجتمع ـ فتعاطى المخدرات هو سقوط من المجتمع ـ فانه بذلك لايحل مشكلة ، ولكنه يخلق مشكلة . انه لايقدم حلا .. ولكنه يمارس حلاً سلبيا اذا كانت السلبية حلا على الاطلاق . ان الهروب ليس حلا ، الفرار ليس حلا ، الغياب عن الوعي ليس حلا . انه فقط .. غياب عن الوعى .. عن الواقع . من الحقيقة . انه يعتبر الدوس هـكلى ـ مجرد « اجازة كيميائية » يأخذها الفرد من الواقع .

× × ×

لقد حاولت مرة ان أدخل الدنيا التي يعيش فيها هؤلاء الهاربون من الواقع . هؤلاء الهيبيز .! كنا في نيويورك . مجموعة من الشباب في هذه الشقة . خليط مشترك من الشبان والشابات . بعضهم طويل الشعر ، بعضهم عارى الصدر ، بعضهم كثيف الشارب ، كلهم يحمل الماريجوانا !

ان الماريجوانا هو النوع المنتشر حاليا من انواع المخدرات في امريكا . ان « تعميرة » الماريجوانا التي توضع في سيجارة واحـدة ملفوفة تتكلف ٧٥ سنتا ، ستين قرشا بسعر السوق السوداء في القاهرة ، خمسة وثلاثين قرشا بالسعر الرسمى .

ولكن السجاير ليست هي الوسيلة الوحيدة لتدخين الماريجوانا .. لقد اخترت وسيلة اخرى عندما دعيت الى هذا الحفل : « جوزة » نعم « جوزة » كالتي يستعملها اى حشاش ، بعـد اضافة التكنولوجيا الامريكية اليها . انها بعد هذه الاضافة ـ لم تبق جوزة تماما ، لقد اصبحت دورقا زجاجيا بانبوبة عند الرقبة . انبوبة يتفرع منها خرطومان . خرطوم لك ، والثاني لفتاتك ، او زميلك في التدخين ، داخل الاناء الزجاجي خليط من الخمور او اى خليط آخر يختاره المدخنون . بعـد ذلك معروف : الدخان ، الماريجوانا ، النار ، التدخين .

كانت التجربة جديدة بالنسبة لى . تجربة ترددت فيها اكثر

من مرة ، الى ان هزمنى حب الاستطلاع فى النهاية ، وها انا الان فى وسطها. قبل ان يبدا التدخين .

عندما تدخن الماريجوانا ـ هكذا قالت لى الفتاة المثقفة بجانبى ـ اسمك بهـذه .

ماهذه ؟

ـ هذه انبوبة تنظر منها الى الشقة والناس والاشياء من خلالها . انبوبة ترى من داخلها الشيء الواحد مضروبا فى ستة. الكرسى تراه ستة . الوجوه تراهم ستة .. وهكذا ! صندوق الدنيا .. معين !

ثم .. « استمع الى هذه الموسيقى .. سوف تكتشف الان أن الموسيقى قد بدات فجاة تصبح اكثر عظمة . موسيقى الخنافس .. انظر الى الانبوبة .. تامل فى راسك . تحول الى النافذة... انظر الى السماء .. ان الشمس الواحدة فى السماء سوف تراها شمسين ، القمر قمرين ، النجمة نجمتين ، و.. و.. و.. »

ولم اشعر بشيء من هذا كله . كان الصداع فى راسى اكثر وجودا من اى شمس او قمر فى السماء .. صداع ، صداع ، صداع ، ثم رغبة فى القيء .. ولكن ، لاشيء من المتعة ، لاشيء من اللذة لاشيء حقيقى من هذه الاوهام ، هذه الاجازات الكيميائية . كل شيء خرج من راسى ماعدا حقيقة واحدة : ان هؤلاء الهاربين من الواقع ، ليسوا ظاهرة منعزلة .. ولكنهم يمثلون عملية سقوط سلبى من المجتمع . هؤلاء الهاربون مؤقتا . تقدرهم مجلة « تايم الامريكية بمليونين من الشباب .

× × ×

ولكن الشباب الامريكى ليس كله من هؤلاء . ليس ـ حتى ـ معظمه . ان معظمه اكثر ايجابية وتنبها للواقع . انهم يريـــدون تصحيح الاخطاء الضرورية فى المجتمع الامريكى . انهم ـ مثـــل جميع حركات الشبـــاب فى العالم ـ حركة لم تقدم البديل للامر الواقع . ان كل ماهو موجود هو فى رايهم موجود بخلل . حسنا. ولكن ماهو البديل ؟ هذا السؤال ليس من مهمة الشباب الاجابة عليه ـ انهم ـ بحكم سنهم المبكرة وخبرتهم المحدودة ـ يعرفون فقط مايقفون ضده . ولكنهم لايحتفظون بصورة واضحة الملامح لما يقفون من اجله ليس هذا خطا ، ليس هذا عجزا . هذا شباب .

ان الامل الوحيد لتصحيح المجتمع الامريكى هو الشباب الامريكى .. انهم شباب يرى ان الانسان المعاصر اصبح قريب الشبـــه

بالصورة التي رسمها هكسلي له في روايته « عالم جديد شجاع » انسان : يأكل جيدا، يلبس جيدا ، يمارس الجنس جيدا ، ومع ذلك فهو بلاروح .

× × ×

واذا كنا حتى الان قد استعرضنا اتجاهات قطاعات كثيرة في المجتمع الامريكي ، فمازال امامنا القطاع الاكبر ، الذي يشكل الاغلبية . ان نموذج هذا القطاع هو « الرجل المتوسط » .

ان معظم تعاملك اليومي سوف يكون مع هذا «الامريكي المتوسط» امريكي الطبقة الوسطى . انه قد لاينتمي اقتصاديا للطبقة الوسطى ولكنه ينتمي اليها بأفكاره وهمومه . ان « الامريكي المتوسط هو ـ فوق كل شيء ـ مفهوم عقلي ، وضع أخلاقي ، حالة نفسية ، مجموعة من القيم والاهواء والميول . بهذا المعنى سوف يمثل « الامريكي المتوسط » بالنسبة للمهاجر دائما نصف الشعب الامريكي تقريبا . انه قد يكون رئيسك في العمل ، او جارك في المسكن ، او البائعة في محلك المفضل ، او ام الفتاة صديقك ، او صاحب المنزل .

انك قد تعرفه بما ليس فيه اكثر مما تعرفه بما هو فيه . انه ليس غنيا، وليس فقيرا . ليس مثقفا ، وليس جاهلا . انه يكره الفقر ، يخشى التغيير ، يتطلع الى الثروة .

انه يؤمن بالديمقراطية ، الحرية ، الدستور ، ويعبد الله ـ مع انه قد ينسى صلاة الاحد من اجل برنامج تليفزيوني ، انه يأكل جيدا ، يسكن جيدا ، يتسلى جيدا ، يعمل بمشقة ، ويحلم ببيت في ضواحي المدينة .

انه قلق ، ولكن امامه صناعات ضخمة كاملة تعيش على هذا القلق : السجاير ، المشروبات الروحية ، الافلام ، التليفزيون، الالعاب الرياضية ، اليانصيب ، المحاضرات .. الخ ..

ان شيئا في العالم يجب الا يزعجه في اجازته الاسبوعية .

اذا رآك في هذه الاجازة فانه دائما يسألك « هل اعجبتك امريكا ؟) » انه يصبح سعيدا لو اعجبتك . ولكن ينزعج جدا اذا قلت له انها لم تعجبك . في الواقع ، ربما يشعر نحوك من الآن فصاعدا بشيء من الجفاء .

انه يسألك ايضا : « مارأيك في هذا العنف بالجامعات ؟ انني لا ارى داعيا ابدا لخوفهم على امريكا . لماذا الخوف ؟ ممن تخاف ؟ من الحكومة ؟ من البوليس ؟ من الكونجرس ؟ لا . لا . بالله

عليك ، هل رايت بنات المستر نيكسون وزوجته فى التليفزيون امس ؟ هل يخاف الانسان من رجلٍ هو رب لهذه الاسرة ؟ »

انه يحب ايزنهاور لانه اب فى كرسي الرئاسة . يكره ترومان لان « . . العمل كبير عليه » يعجب بكنيدى لانه تعبير عن الحكم الامريكى) . يكره جونسون لانه يتصرف كراعى بقر .

ان هذا الامريكى المتوسط له مقايسه التى يحكم بها على الاشياء دائما . ان الصورة الرومانتيكية للانسان فى راسه هى فرد ضد الظروف ، بشرط ان ينجح هذا الفرد فى النهاية ضد الظروف . ان الفشل بالنسبة له هو خروجك من السباق قبل الجولة الاخيرة . الفشل هو ان تبدا فى الياس او الغش فى قواعد اللعب. اما النجاح فهو قدرتك على التكيف مع الظروف . النجاح هو ان تبدا من الصفر .

انه يقرا النيويورك تايمز ــ احيانا الديلى نيوز ــ ويحب افلام المغامرات ويهوى الكتب التى تحدثه عن امريكا سنة ٢٠٠٠ ، ويخرج الى الريف فى الاعياد ، ويحتفظ بالبوم مصور عن كل رحلة ويحلم بجولة حول العالم بعد التقاعد .

انه عندما يشعر بالخوف يتحرك الى اليمين بسرعة . وعندما يشعر بالطمانينة يتحرك الى اليسار ببطء . فى الازمات يصبح متطرفا . فى الرخاء يصبح سعيدا .

انه احيانا يشعر بالتجاهل. احيانا يرى نفسه «اغلبية صامتة» فى امريكا . انه يفكر فى التضخم ويحس بالفوضى ويتزعج من انتشار العنف ويحذر من تعليم الجنس لاطفاله فى المدارس ويقلق من احتمال تعاطيهم المخدرات فى الجامعات ، مبتئس من خفوت صوته فى المسائل السياسية الكبرى .

ان كل القضايا الكبرى لها دائما معنى شخصى بالنسبة له . ان المنزل والاسرة هما بؤرة اهتمامه ، وكل قضية كبرى يجب ان تفسر على ضوء علاقتها به شخصيا وباسرته . ان التضخم معناه قطعة لحم اقل ، والجريمة معناها قلق على طفله الصغير عند رجوعه من المدرسة .

لقد جاء بنيكسون الى البيت الابيض لانه وعد بحل لكل هذا . لقد طرد جونسون من الرئاسة لان من يخلق مشكلة لن يكون قادرا على حلها . لقد صلى خوفا على حياة طاقم ابولو ١٣ لانهم صورة للرواد فى خياله ، لقد اختلف مع ابنه امس لانه جعل امه تبكى طوال المساء . لقد اعطى ثقته لايزنهاور ، ولكنه معجب

بنيل ارمسترونج اكثر من اعجابه بنيكسون، ويحب جون واين اكثر من مارلون براندو .

انه يرسل من جيبه برقية تعزية لجاكلين كينيدى بعد مصرع زوجها . ان كل شخص يقنعك بشراء سيارة قديمة ، ويجعل زوجته سعيدة ، هو شخص صالح ـ فى رايه ـ لعضوية الكونجرس . كل شخص بدا من الصفر وتحدى الظروف هو مرشح صالح لعضوية مجلس الشيوخ .

انه دقيق فى مواعيده وشغوف بتجديد حياته وحريص على تذكر عيد ميلاد زوجته . انه يقف بالصف الطويل فى عز البرد كل كريسماس لكى يدخل « راديو سيتى » فى نيويورك ، ويرسل بطاقات التهنئة لاصدقائه فى اعياد الميلاد ، ويغنى النشيد القومى فى مباريات كرة القدم ، ويتبرع بدولار من اجل نجاح مرشحه فى الانتخابات ، وخمسة دولارات من اجل بناء كنيسة ، وخمسين دولارا لانقاذ طفلة مريضة من الموت !

انه لا ينفعل لخبر .. ولكنه يهتز لمأساة .

ان حجم أسرته محدود ، بالكثير اثنين او ثلاثة .. ان اسرته صغيرة ونشاطه ضخم وحركته سريعة واولاده يعتمدون على انفسهم منذ صباهم المبكر . أن زوجته لها قيمة عنده لانها زوجته .. وليس لانها ام لأطفاله .

انه يدخر لشراء هدية لزوجته ، وشراء سيارة جديدة .. والقيام برحلة حول العالم عند التقاعد . ان قصة كفاحك فى الحياة تسحره اكثر واكثر مما تسحره شهاداتك واصرارك يدهشه اكثر من استمرارك وشخصيتك تعجبه اكثر من اصل اسرتك . انه لا يجد مانعا ابدا فى ان يبدأ من جديد .. ويعرف كل شىء جديد .. ويتعود على كل شىء جديد .. ويبدأ فى دراسة شىء جديد فى سن الستين .

انه مستعد لارتداء اى شىء .. والتحدث فى اى شىء .. وتجربة كل شىء .

انه يفكر دائما كما لو كان يعيش بمفرده وسط قارة خالية من السكان .

انه يدخر قسط التأمين على حياته وزوجته وسيارته قبل ان يدفع ايجار المنزل .

انه يقول لك أن فى امريكا الآن مائة الف شخص تزيد ثروتهم

على مليون دولار . لهـــذا لايرى مانعا ابدا فى ان يكون هو رقم واحد بعد المائة الف !

⊛✦⊛

انه يؤمن بالمسيح والتكنولوجيا . يعبد العـذراء والدولار . . يصلى من أجل الحصول على الثروة الآن والغفران فيما بعد !

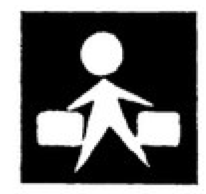
× × ×

ن . . هذا هو **«الرجل المتوسط»** فى امريكا . هذا هو الاغلبية هذا هو **« مستر امريكا »** . . الذى ستقابله زميلا فى العمـل او رئيسا او صديقا او مجرد جار لك فى الشقة التالية .

بعد ان تتعرف على هذا الرجل ـ على **مستر امريكا** هذا ـ تستطيع ان تبدأ فى التعرف على الحياة فى امريكا وعلى المصريين فى امريكا .

الفصل التاسع :

المعلم سكر .. مهاجر رغم أنفه !



سافر المعلم سكر الى نيويورك !

ان المعلم سكر ـ هذا الشاب الذى يعمل فى محل جزارة فى بولاق بالقاهرة ـ هاجر الى امريكا ! انه لم يقصد الهجرة .. ولم يقصد امريكا .. ولم يقصد اى شىء اكثر من العودة الى دكان الجزارة فى بولاق بالقاهرة . حيث يبيع اللحم ويدخن الشيشة كل يوم .. بالمسبحة فى يده والطاقية البلدى على راسه والجلباب المفتوح الصدر ذى الاكمام الواسعة فوق جسمه

جسم ضخم يدل على الرجولة المطلقة .. من وجهة نظر المعلم

سكر . رجولة يرمز اليها هـذا الشارب الضخم الذى تستطيع ان تراه فى وجه المعلم سكر من مسافة بعيدة ..

بهذا الجسم اصبح سكر جزارا ، ومعلما .. وكل شىء يحلم به منذ الطفولة ! ان كل راسماله فى الحياة هذا الجسم .. « بكتفين يقف عليهما أسدان . وذراعين يقف عليهما جملان ، وشارب يقف عليه صقران .. الى آخر الصورة التى يعبر عنها زكريا أحمد فى الاغنية المشهورة .

ان المعلم سكر لم يقصد ان يهاجر .. ولم يقصد ان تكون هجرته الى امريكا .. انه مبدئيا ـ لا يعرف اين توجد امريكا هذه . ان كل ما يعرفه فى هذه الدنيا هو المسافة بين محل الجزارة الذى يعمل فيه . وبين البيت الذى يقيم به فى حى بولاق .. بالقاهرة .

ان كل مايعرفه المعلم سكر هو محل الجزارة .. والكرسى امام الدكان والشيشة امام الكرسى .. وورقة اليانصيب التى يشتريها كل يوم .. وكوب العرقسوس الذى يشربه مرتين فى اليوم .. والبنت القمر ـ قمر الدين يعنى ـ التى تتمخطر فى مشيتها امام المحل كل يوم . البنت عزيزة .

« ياصلاة الزين .. يارب توعدنا .. يارب توعدنا وتعمل المراد » .. هكذا كان المعلم سكر يتمتم كل يوم بصوت تسمعه بنت الجيران القمر ـ عزيزه ـ عندما تمر امامه مرتين فى النهار .. ربما كان مرورها هـذا لايتم الا لمجرد سماع كلمات المعلم سكر .. انه شاب ، جزار ، قوى الصحة ، مفتول الشارب .. انه ليس صاحب المحل بعد ـ ولكنه يحلم بذلك يوما ما . انه يرى فى عزيزة كل الحلاوة التى توجد فى العالم .. عندما تمر عزيزة امامه .. بالشبشب فى قدمها واللبان فى فمها .. والكحل فى عينيها .. والبرقع على وجهها والملاية اللف فوق جسمها فان الانشراح ينطق من كلماته والبهجة تقفز الى صوته ، والسرور يشع من عينيه « .. يا صلاة الزين ، النبى تبسم .. يا ارض احرسى ما عليكى » .

كيف تحرسها الارض وعزيزة تسير فوقها بجسم هزاز . جسم راقص ؟

ولكن الواقع انه كان رقصا متبادلا . عندما يرقص جسمها

يرقص شاربه . عندما يهتز خصرها يهتز قلبه . عندما يتلوى وسطها يتلوى خرطوم الشيشة فى يده !

× × ×

ثم .. اختفى هذا كله . لم يعد يتلوى فى المعلم سكر شىء سوى امعائه . ان الجوع صعب والاكل قليل والنقود غير موجودة . والغربة فى بلاد الخواجات صعبة .. خصوصا عندما يكون هؤلاء الخواجات امريكان ! ان المعلم سكر لم يفكر مطلقا فى ان حظه سوف يأتى به الى هنا ؛ الى نيويورك .. ان كل ما كان يفكر فيه منذ سنتين ـ عندما كان فى القاهرة ـ هو ان يصنع ثروة يعود بها الى حى بولاق ليقيم فيه محل الجزارة ليشتريه به والبنت عزيزة لكى يتزوجها . هذا كله ما دار فى ذهنه يوم ذهب يتطوع فى صفوف قوات الجيش الانجليزى التى تحارب باصرار ضد قوات المحور فى تلك الايام السوداء من ايام سنة ١٩٤١ . لقد تطوع فى صفوف الجيش الانجليزى لانه سمع من رفاق له جاءوا من التل الكبير عن الثروة التى يحققها كل من يعمل منهم فى الجيش البريطانى ، ويتاجر بعد ذلك فى مخلفات الجيش البريطانى .

بهذا الهدف ـ هذا الامل ـ دخل المعلم سكر متطوعا فى صفوف الجيش الانجليزى شهر ، شهران ، ستة أشهر .. ثم نقلوه على ظهر سفينة انجليزية محاربة فى البحر الاحمر . شهران آخران ثم انتقلت السفينة الى العمل فى المحيط الهندى يوم .. يومان .. ثلاثة .. ثم وقع المحظور .. فبعد ان تم تموين السفينة فى أحد موانى جنوب أفريقيا .. استطاعت البوارج الالمانية ان تكتشف هذه السفينة الجديدة الانجليزية و .. أصابتها فى مقتل !

الان غرقت السفينة ، غرق البحارة .. غرق كل شىء .. لم تكن السفينة هى وحدها التى غرقت .. وانما غرقت معها ايضا فى تلك البقعة من المحيط الهندى .. كل تلك الآمال داخل المعلم سكر ـ كل أمل فى الثروة ، فى محل الجزارة ، فى عزيزة .

× × ×

ان المعلم سكر ـ الله وحده يعلم كيف ولماذا ـ استطاع النجاة مع ستة آخرين من البحارة . هؤلاء هم بقايا السفينة الحربية الانجليزية الغارقة . ان الله يعلم ان عزيزة تعيش الآن فى بولاق دون أن يقول لها أحد « يا صلاة الزين .. يا قمر .. يا قمر الدين » ! ربما من اجل هذا ـ من اجل هذا فقط ..

صمم المعلم سكر على النجاة بجلده من الشمس الحارقة والمياه المالحة فى تلك البقعة السوداء من المحيط الهندى . ربما من أجل هذا فقط .. ظلت الحياة تدب داخل ذراعى المعلم سكر وهو يصارع الموج سابحا فى اتجاه لا يعلم بالضبط اين يمكن ان يقوده .. ويبحث عن شاطىء لايعلم بالضبط متى يظهر فى الافق .

ومع الانفاس قبل الاخيرة من حياة المعلم سكر استطاع اخيرا ان يرى من بعيد شيئا يشبه الشاطىء .. اى شاطىء ؟ اى ارض ؟ اى قطر ؟ انه لا يعلم بعد ..

ان كل مايعلمه انه بعد ساعتين او ثلاثة استطاع ان يصل الى هذا المكان .. وان يتأكد بنفسه انه ارض ، عليها ناس ، ثم ان هؤلاء الناس يسكنون فى دولة اسمها: جنوبافريقيا !! سبحان الله .. يحيى العظام وهى رميم !

هذا كل ما يتذكره المعلم سكر . انه يتذكر فقط انه كان فى ذلك اليوم مجرد رميم .. اقل من رميم . وان الامل الذى غرق منه فى المحيط الهندى قد عاد اليه الآن من جديد : الامل فى العودة الى عزيزة .. والله زمان على القمر .. قمر الدين الذى يتمخطر فى بولاق .. كيف يصل المعلم سكر الى بولاق ؟

ــ اين بولاق هذه ؟

ــ فى كايرو يا خواجة .. انا اصلى من كايرو ..!

وبمجهود غير قليل استطاع المعلم سكر ان يفهم اخيرا من الناس الذين سألهم ان الوصول الى كايرو من جنوب افريقيا يحتاج الى ركوب باخرة ، اى باخرة فالبواخر التى كانت تتجه من جنوب افريقيا الى قناة السويس وقتها كانت كثيرة . ان المعلم سكر لايستطيع ان يركب باخرة .. فلا توجد معه نقود .. ولكن .. هل عدم وجود النقود يمنع الانسان من التسلل الى اى باخرة ليلا .. والاختفاء فيها الى ان تبحر .. فتصبح المسألة امرا واقعا ؟! حيعملوا ايه يعنى ؟ يرمونى فى البحر ؟ يرمونى .. !

وركب المعلم سكر الباخرة ، اى باخرة .. لايهم ، فكل البواخر لابد ان تؤدى الى كايرو ! يوم .. يومان.. اسبوع.. « متى تصل الى بولاق ؟ الى كايرو ؟ »

ــ كايرو مين يامستر ؟ الباخرة دى رايحة نيويورك !!

نعم ؟ نيو ايه ؟ نيويورك ؟ اين توجد نيويورك ؟ ان المعلم سكر لايستطيع ان يسأل كثيرا .. ان لغته الانجليزية لاتزيد على تلك الكلمات القليلة التى استطاع ان يلتقطها خلال شهور تطوعه فى

الاسطول البريطاني . وحتى لو كان المعلم سكر لايستطيع ان يسال . . بلغة انجليزية معقولة ـ فانه ايضا لم يكن سيعرف بالضبط اين توجد نيويورك هذه . ان المعلم سكر يعرف الدنيا بالجملة . . ولا يعرفها بالتفاصيل . انه يعرف فقط ان العالم يعيش فيه جنسان اولاد عرب . . واولاد افرنج . . ان الانجليز والالمان والطليان وكل شخص اخر ليس ابن عرب . . هم اولاد افرنج . . خواجات يعنى !

انهم على السفينة الان يقولون للمعلم سكر ان هناك بلادا اخرى غير بلاد الانجليز اسمها بلاد الامريكيين . . وان هناك مدينة اخرى غير كايرو اسمها نيويورك . . لا . . لا . . الآن سيدخلون مع المعلم سكر في التفاصيل . . كلام لايفهمه المعلم سكر . . الم اقل لك انه يريد ان يعرف العالم بالجملة . لزومها ايه التفاصيل دى بقى ؟!

ولكن المعلم سكر لايستطيع الان ان يختار . . ان عليه ان يعرف الآن كم تبعد نيويورك هذه عن بولاق . . عن كايرو . . !

ـ تبعد كثير . . كثير قوى ياستر . . كلها كام اسبوع وتوصل نيويورك !

وتمتم المعلم سكر بلغة لايعرفها أحد على السفينة غيره . . « **ياعالم؟ ياهوه ؟ الواحد ينوى يروح مصر . . يلاقى نفسه رايح بلاد الامريكان؟ علم الانسان ما لم يعلم** » !؟

ولم يكن امام المعلم سكر مفر . لم يكن يستطيع ان يختار . انه ـ في مثل هذا الوضع ـ لايملك سوى حلين اثنين فقط : ان يلقى بنفسه في المحيط الذى تسير فيه الباخرة ، او ينتظر حتى يصل الى نيويورك هذه . . لعله يجد قطارا هناك او حتى « اوتوبيس » يوصله الى بولاق . . والله زمان ياعزيزة !!

× × ×

في ميناء نيويورك . . يساله الضابط المختص :

ـ معاك باسبور ؟

ـ لا

ـ اسمك ايه ؟

ـ سكر . .

ـ سكر ؟ ده اسمك انت شخصيا ؟

ـ ايوه

ـ طيب . . اسمك بالكامل ايه ؟

ـ سكر محمد سكر !

ـ ايه اللى جابك ؟

ـ .....

فى البداية لم يستطيع المعلم سكر ان يروى. ان اللغة لاتسعفه.. بعد قليل استطاع بكثير من الاشارات وبعض الانجليزية وقليل من العربية ـ ان يعطى لضابط الجوازات فكرة ما عن حكايته : انجليز .. اسطول .. بحر .. المان .. طاخ .. غرقنا .. شاطىء .. كايرو .. نيويورك .. خواجات ..

وبشكل ما .. لم يتصور ضابط الجوازات ان سكر لايملك فى جيبه شيئا .. انه لم يتصور ، أو لم يشأ ان يتصور . المهم .. انهم اعدوا له اوراقا مؤقتة بديلة عن جواز السفر ، واعطوه مهلة ثلاثة اشهر . . يغادر نيويورك بعدها .. يغادرها الى كايرو .. أو الى اي مكان آخر ـ لايهم .

وفكر المعلم سكر . سأل الناس .. وفكر .. استفسر .. وفكر .. ثم جلس وفكر . انه الان فى بلاد الامريكان بلا مليم واحد . معدته بلا طعام .. طريقه الى بولاق .. الى عزيزة فى بولاق .. هو طريق بعيد بعيد .. لابد من باخرة والباخرة لابد لها من تذكرة .. التذكرة لابد من نقود .. والنقود غير موجودة .. اذن ما العمل ؟ . لا عمل سوى .. العمل ـ هكذا فكر المعلم سكر وهو فى يومه الاول بتلك المدينة بلاد امريكان .

ولكن المشكلة لم تحل بعد .. اى عمل يستطيعه المعلم سكر مع هؤلاء الخواجات اى عمل .. ومعلوماته فى الانجليزية لاتتجاوز الخمسين كلمة ؟ ان مايعرفه يتضمن بغير شك كلمات اساسية يستطيع أن يبدأ بها . كلمات مثل .. فود .. مونى جود مورننج . ثانك يو .. ويرك .. جود ..

« أنت راجل جود ! ابن حلال باين عليك !!

هكذا قال المعلم سكر لاحد اصحاب محلات مسح الاحذية فى نيويورك عندما دخل عليه فى نفس اليوم يجرب حظه فى العمل . .

هل يرضى المعلم سكر ان يقوم بمسح الاحذية ؟ .. نعم .. ماهو السيىء فى هذا ؟ انه يحتاج الى طعام .. الى فود ! والفود عايز مونى .. ومسح الاحذية يمكن ان يأتى له بهذه الـ .. مونى .. هذه النقود !

يوم .. يومان .. اسبوعان، ثم بدأ المعلم سكر ينتقل الى اعمال اخرى كثيرة .. تقول كناس ؟ تقول بياع ؟ تقول صبى بقال ؟ تقول صبى جزار ؟ يمكن ..

المهم ان هذه الدنيا الجديدة بدات تدهش المعلم سكر .. ان الناس في الصباح مسرعون كما لو كان « .. ضاربهم السلك ; وفي المساء يرقصون كما لو كان .. « مخبوطين بحقنة بنج » .. ان الشوارع نظيفة .. « تلحس من عليها العسل! (والبنات) .. مفاعيص زي مايكونوا بياكلوا في الشهر مرة » !

ومع ذلك .. فان الحياة الجديدة بدات تعجبه وتسحره .. انه لم يفهمها في البداية .. ولكنها أعجبته . انها لم تعجبه كمقيم فهو موجود هنا رغم أنفه .. موجود بالصدفة .. انه موجود الى ان يدخر نقودا كافية لعودته الى بولاق على الاقل .

ولان النقود الكافية لم تتجمع لديه في الاشهر الثلاثة المسموح له بها فقد استطاع ان يحصل على تصريح بثلاثة اشهر اخرى .. نعم . بالكلمات الانجليزية المتتابعة التي يلتقطها المعلم سكر كل يوم أصبح يستطيع التفاهم مع الناس . التفاهم بصعوبة في البداية ، ثم بصعوبة أقل فيما بعد ..

× × ×

وبهذا الشكل مرت على المعلم سكر في نيويورك ستة اشهر ، تسعة اشهر ، سنة .. نعم . سنة كاملة .. استطاع خلالها ان يدخر نقودا كثيرة . نقودا اكثر بكثير من قيمة التذكرة التي كان يريدها اصلا .. ان المعلم سكر لم يكن امامه مفر من ذلك .. انه يكافح وظهره الى الحائط .. لا احد يعرفه هنا .. لا احد يساعده .. لا احد ولا شيء سوى ذراعيه ! بهاتين الذراعين استطاع سكر ان يدخر في اول سنة له بنيويورك — ٨٠٠ دولار .. بالضبط — ٨٠٠ دولار و ٤٥ سنتا .

الان يستطيع المعلم سكر ان يفكر وهو مستريح . الان ، بهذه الدولارات وتلك اللغة المحدودة التي تكفيه — بدا يفكر في المستقبل . ان أهدافا جديدة تدخل الآن في راس المعلم سكر . اهدافا لم يكن يتخيلها من قبل . لقد كان يريد ان يصبح صاحب محل جزارة في القاهرة .. لماذا لا يكون صاحب محل جزارة هنا .. نعم .. هنا في نيويورك ؟ ايه المانع ؟!

هكذا بدا المعلم سكر يسعى نحو الهدف الجديد .. انه يدخر .. الدولار فوق الدولار — ويعمل .. الساعة بعد الساعة لكي يحقق هذا الهدف .. ان المعلم سكر اشتغل باعمال كثيرة ، ولكنه يرى ان القيمة كل القيمة ، والمركز كل المركز .. هو ان يكون الانسان : جزارا .. يرى ان السحر كل السحر والاحترام كل الاحترام هو ان يصبح الانسان : معلما !

× × ×

ومرت سنة. سنتان. ثلاث، ثم حقق المعلم سكر هدفه! لقد اصبح فعلا صاحب محل جزارة في نيويورك!

وفي اليوم التالي لدخوله هـذا المحل .. ارسل المعلم سكر الى القاهرة ــ الى بولاق في القاهرة ــ يطلب قمر الدين .. يطلب عزيزة! بعـد شهور قليلة وصلت عزيزة، وام عزيزة، واخت عزيزة، واخ عزيزة .. وابن عم عزيزة و ١١ شخصا آخرين من الاصهار الجدد للمعلم سكر ..

و .. عندما تذهب الى نيويورك الان . تستطيع ان تسأل عن محل الجزارة ــ والمطعم ــ الذي يملكه سكر محمد سكر في بروكلين بمدينة نيويورك .. فوق المحل تستطيع ان ترى المنزل الذي تسكن فيه عائلة المعلم سكر. انه مستعمرة «المعلم سكر»! على المحل نفسه تستطيع ان تقرأ باللغة العربية «المعلم سكر» كلمتين لم يجد صاحب المحل ترجمة لهما سوى ما كتبه على اللافتة باللغـة الانجليزية «Mr. Sugur.» وارجوك ــ لا تخطيء في الاسم . لانك ان اخطأت .. فسوف تصححه لك سيدة تجلس في الداخل.. هذه السيدة هي: مسز شوجر ــ عزيزة .. سابقا!

× × ×

انني لو لم اسمع هذه القصة بنفسي في نيويورك .. لو لم اشاهد ابطالها .. لو لم اتأكد من نتائجها .. لتصورت انها من حكايات الف ليلة وليلة .. ان احدا لو قص لي هذه الحكاية في القاهرة لقلت انها فيلم سينمائي من اخراج حسن الامام؛ قصة لايستطيع ان يتخيلها ابرع كاتب ولا احسن مخرج . ولكن الواقع يصبح احيانا اكثر براعة من كتابة القصة واكثر تلفيقا للاحداث من حسن الامام .

وبعد كثير من التردد ، وبعـد اختصـار كثير من الاحـداث ــ قررت ان اكتب القصة كما وقعت .. فليصدق القاريء او لا يصدق هذا ما حدث على اي حال . ثم انها بعد هذا كله ــ ليست اغـرب قصة رأيتها للمصريين المهاجرين على اي حال .

فاذا كان المعلم سكر قد اصبح مهاجرا رغم انفه .. اذا كان قد اصبح مهاجرا دون ان يقصد الهجرة .. فان هناك من الحالات ماهو اغرب منه .. نعم . هناك في هذه المدينة نيويورك ــ تستطيع ان تقابل نماذج اكثر غرابة . من المصريين .. الذين لم اكن اتصور من قبل انهم يمكن ان يكونوا بهذه الجراة .. وهذه القدرة على المغامرة .

خذ مثلا قصة هذا المعلم الاخر: المعلم عطية ..

× × ×

ان عطية ـ بعكس المعلم سكر ـ ليس من القاهرة . . انه من مواليد الاسكندرية . . انه على وجه الدقة ـ من مواليد شارع الباشا بقسم الجمرك ـ من مدينة الاسكندرية .

عندما قابلت عطية فى شارع برودواى بمدينة نيويورك تصورت انى قابلت شخصا قادما من الاسكندرية منذ خمس دقائق وليس منذ ٢٤ سنة . ان اللهجة ، خفة الدم ، الصوت ، التعبيرات ، الملامح الحركات . كلها هى العلامات المميزة لاى اسكندرانى حقيقى تقابله فى الاحياء الشعبية بمدينة الاسكندرية .

انه مازال فى الثالثة والاربعين من عمره . . بجسم طويل ورأس نحيل الشعر يقترب من الصلع . . وشارب خفيف . . وبدلة تتحول عند اللزوم الى جلباب بلدى !

ان اى رفيق دراسة لعطية يستطيع ان يتذكره الان عندما اقول : انه كان تلميذا بمدرسة ابراهيم الاول بالاسكندرية ، ثم طالبا بمدرسة محمد على الصناعية . انه لم يكمل تعليمه فى تلك المدرسة ـ تستطيع ان تقول انه فشل فى ذلك . . مع انه شخصيا لا يقول انه فشل . انت تعرف طبعا كم يكون الشاب مشاغبا وشقيا فى تلك السن المبكرة ان آثار تلك الشقاوة مازالت الى اليوم موجودة فى ذراعى عطية . آثار الفتوة والمعارك والخناقات .

ولكن الشقاوة لم تكن هى وحدها سبب انقطاع عطية عن التعليم . لقد كان الفقر سببا اقوى . فمع ان والد عطية كان يعمل مساعد مأمور بمصلحةالموانىء بالاسكندرية. . الا انه كان يرزح تحت عبء الاسرة التى انجبها . . هل تدرى كم طفلا انجبهم الحاج حسن ـ والد عطية ؟ هذا هو الرقم ـ ١٤ ـ نعم ـ اربعة عشر ولدا وبنتا !

ان الاحياء من اشقاء عطية الـ ١٤ هم سبعة ، بعد ان مات سبعة . البقاء لله . . ولكن المهم ان الانسان عندما يولد فى مثل تلك العائلة . . ويعيش وسط تلك الهموم . . فان افكارا كثيرة تراوده . . الانقطاع عن التعليم ؟ ممكن . هكذا فعل عطية . العمل ؟ ممكن . هكذا اشتغل عطية فىجنرالموتورز بالاسكندرية. الهجرة؟ جائزة ففى تلك السن ١٩ سنة يصبح كل منا طائشا لا تراودة سوى الافكار الطائشة ! . . ولكن الفكرة لم تكن طائشة ابدا بالنسبة لعطية . كانت الفكرة جادة جدا . . منتهى الجد . انها لو لم تكن كذلك لما دفعته الى ان ينفذ مشروعة . . ويهاجر فعلا الى استراليا فى سنة ١٩٤٦ .

ولكن الشاب المصرى ذا التسعةعشر عاما لم يلبث ان مل الحياة فى استراليا بعد اشهر قليلة . لقد اصابه الملل . . او الفشل . .

لا احد يدري بالضبط .. ان كل مايدريه صاحب الشان نفسه ــ هو انه شد رحاله على . امريكا ..

ماذا يفعل شاب فى مثل سنه الصغيرة ، وخبرته المحدودة،ولغته الانجليزية الركيكه .. فى امريكا ؟ ماذا يفعل فى نيويورك ؟ ان عطية لم يكن يعلم بالضبط ماذا يمكن ان يفعله . كل ما كان يفعله هوان يهاجر .. وان الهجرة بالنسبة له امر جاد جدا . وانه مستعد لتحمل اية مصاعب تواجهه فى سبيل هذا الحلم الجاد جدا ! لهذا كافح ــ كافح عطية بيدية واسنانة الى ان استطاع ان يعمل فى نيويورك .. مساعد طباخ ! ان الاجر قليل جدا ــ مجرد ٢٥ دولارا فى الاسبوع ــ ولكنه ليس فى موقف يسمح له بالاختيار .. انه فقط يسمح له بالبحث عن الطعام .. وهذا العمل الاول فى امريكا ــ مساعد طباخ ــ يوفر له الطعام .. والخمسةوالعشرون دولارا كل اسبوع . رضا!.

ولكن بعد ستة اشهر فقط بدا عطية يحس بعدم الرضاء .. انه لم يترك الاسكندرية ومصر كلها ، مقابل خمسة وعشرين دولارا فقط يحصل عليها كل اسبوع .. يحصل عليها من مثل هذا العمل المرهق فى نيويورك .. لم يكن هناك داع للهجرة اذن .. مادام عطية يستطيع ان يقتنع بمثل هذه النتيجة المتواضعة .. اذن .. ماهو الحل هل هناك حل ؟

× × ×

نعم .. هناك حل جنونى اهتدى اليه عطية .. ان امريكا دخلت حرب كوريا . والجيش الامريكى يعلن عن حاجته الى متطوعين لماذا لا يتطوع ؟ انه لا يحمل الجنسية الامريكية .. ولكنهم لم يضعوا هذا ضمن شروط التطوع . لماذا اذن لا يجرب حظه ؟ ..

ومرة اخرى ــ انت تعلم كم يكون الانسان طائشا فى تلك السن المبكرة ــ قرر عطية ان ينفذ فكرته . وخلال شهور قليلة كان عطية فعلا يحارب مع كوريا ضمن اول دفعة متطوعين يرسلها الجيش الامريكى الى هناك . شيء لا يصدقه عقل .. ولكن من قال ان هجرة عطية كان يمكن ان يصدقها عقل ؟!

وهكذا اصبح عطية محاربا كوريا . ولكن حرب كوريا كان لابد ان تنتهى وعندما انتهت عاد عطية الى نيويورك ليكتشف انه لايحمل الجنسية الامريكية بعد .. وان ادارة الهجرة الامريكية ترفض تلك الجنسية كمهاجر .. رغم انه حارب سنتين مع الامريكيين فى كوريا .قبل ان تظلم الدنيا فى وجه عطية امسك ورقة وقلما . فلقد

اصبح الان يجيد اللغة الانجليزية ـ وبدأ يكتب « .. **عزيزى المستر دوايت ايزنهاور .. رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية .. !! »**

هكذا مرة واحدة ـ قرر عطية ان يحول مشكلته الشخصية الى مشكلة تحتاج الى قرار رئيس الجمهورية ! ان ماكتبه عطية فى الخطاب لم يزد عن الوقائع التى حدثت بالضبط . **« انني اقيم فى امريكا منذ سبع سنوات .. حاربت فى الجيش الامريكى فى كوريا لمدة سنتين .. وادارة الهجرة ترفض منحى الجنسية الامريكية .. ويا عزيزى الرئيس ايزنهاور .. هل يرضيك هذا ؟ ! .. »**

طبعا ايزنهاور لا يرضيه !! **النتيجة** : حصل عطية على الجنسية الامريكية حصل عليها ـ بالضبط فى ٢٢ مارس سنة ١٩٥٣ .

ولكن الجنسية لاتزيد عن ورقة صغيرة .. انها ليست شيئا بمليون دولار ، ولا هى تصريح بالسكن مجانا .. ولا هى بطاقة تعفيه من دفع الايجار ! ما زال امام عطية اذن ان يبدأ حياته من جديد .. بالدولارات التى ادخرها خلال فترة تطوعه كجندى فى كوريا .

وبدأ عطية يدخل فى مناقصات ومزايدات .. نعم .. اصبح عطية تاجرا .. انه تاجر .. ومقاول .. ومتعهد .. لقد بدأ يحصل على مناقصات توريد الأطعمة والتموين الغذائى لبعض وحدات الجيش الامريكى . انه الآن امريكى .. واسعاره هى الاقل فلماذا لا ينجح فى ذلك ؟ !

وهكذا استمر عطية فى تجارته الجديدة عشر سنوات اخرى . وعندما احس بأن نقودا كافية قد تجمعت لديه . بدأ يفكر فى الاستقرار . ان الاستقرار بالنسبة له لم يكن الزواج . لا ليس بالنسبة لعطية .

ان الاستقرار بالنسبة لعطية كان شيئين : اولا ان يصبح صاحب محل .. بقالة او جزارة او اكل .. المهم محل مملوك له والسلام .. وثانيا : ان يستدعى اكبر عدد من افراد اسرته المقيمين بالاسكندرية لكى يحضروا الى هنا الى نيويورك ـ واذا لم يمكن حضورهم للعمل معه ـ فعلى الاقل يكون لمشاهدة نجاحه فى حياته الجديدة .

بالطبع من حق عطية ان يؤمن بانه نجح .. مادام قد بدأ محله الجديد هذا برأس مال ٧٥ الف دولار ! محل لم يكتب عطية على

لافتته من الخارج سوى مجرد كلمتين بالانجليزية .. « مطعم كليوباترة » ! ..

وعندما اتجهت الى تقاطع شـــارع ٩٤ وشارع برودواى فى نيويورك لكى ازور هذا المطعم .. دخلت من الباب لاجد مطعما فاخرا تم تجديده مؤخرا فقط . ان تصميم الديكور فيه فن وذوق وبساطة .. لان الذى صممه هو فنان مصرى مهاجر هو الاخر اسمه جمال الزغبى . فنان سوف تسمع عنه فيما بعد .

اقول ان الديكور فيه ذوق ، وهذا فى حد ذاته سبب رئيسى من اسباب نجاح المطعم .. انك عندما تدخل الى المطعم ستفاجأ بأن الباب الى يسارك عندما تدخل من الباب سوف تجد المناضد مقسمة بطريقةثابتة تفصلها حواجز فىمستوى راسك. وعلىالمائدة التى جلست عليها وجدت قائمة الطعام مطبوعة فى كتيب صغير . ان صورة عطية مطبوعة امامك على الغلاف بقميص مفتوح وكرافتة مدلاه ويدين تشرحان شيئا ما — لا ادرى ما هو — ثم طاقية الطباخ البيضاء متراجعة فوق راسه الاصلع . فوق الصورة مكتوب باللون الاحمر : « عطية ، رئيس طباخينا الدولى » . دولى فعلا عطية هذا !!

وعندما قلبت فى الكتيب وجدت نفسى امام كلمات عربيـــة منطوقة باللغة الانجليزية . يبدو ان عطيـــة يريد تعليم اللغـــة العربية لزبائنه ! ان اول سطرين فى الصفحة ينطقان هكذا باللغة الانجليزية « نتمنى ان تتمتاوا بى تآمنا الاجنبى ، وبالموســـيكا الشركيـــة ، وديكور الغـــير مالوف .. نهيتكم لمصلهتكم ومصلهتنا ان تجربوا كل الاتباك المختلفة » !

الترجمة — بالانجليزية الصحيحة فوقها — هى : نتمنى ان تتمتعوا بطعامنا الاجنبى ، وبالموســيقى الشرقيــة والديكــور غير المالوف . اننا نستحثكم (نحيطكم كما ترجمهـــا عطية) لمصلحتنا ومصلحتكم ان تجربوا كل الاطباق المختلفة .

وهكذا تسير باقى صفحات الكتيب الصغير . ان اسم الطبق فى قائمة الطعام مكتوب بالعربية المنطوقة انجليزيا ، ثم تحتهـــا الشرح باللغة الانجليزية الصحيحة .. مثلا :

همص تاهينا : حمص مخلوط بزبدة السمسم. الثمن — دولار

ماهشى : فلفل اخضر محشو .. اوراق عنب محشـــوة .. الثمن — دولار ونصف دولار .

شيش كباب : لحم ضان مشوى على اعواد شواء مع فلفل

اخضر . طماطم وبصل الثمن ـ ثلاثة دولارات ونصف دولار .

كوفتة : لحم ضان مطحون مشوى .. مع الارز .. الثمن ثلاثة دولارات .

فتة كليوبترا : طبق خاص جدا . خبز شرقى مبلول فى حساء اللحم .. يعلوه الارز .. وشرائح اللحم وعصير الثوم . الثمن دولاران ونصف دولار .

ملوخية بالفراخ : فراخ مطبوخة فى خضراوات شرقية مع عصير الثوم والارز . الثمن ٤ دولارات .

فول مدامس : فول مجفف مع بيض وزيت وسلاطة شرقية الثمن دولاران ونصف دولار .

و .. هكذا تستطيع ان تحصل على الطعام فى قلب نيويورك .. ووسط ديكور هو اكثر من مجرد ديكور .. انه مناخ وجو كامل يحيط بك طوال الوقت الذى تجلس فيه على المائدة داخل هذا المطعم المصرى .

فى هذا المطعم المصرى يعمل ١٤ شخصا على ورديتين . كل وردية من سبعة ، من هؤلاء سوف تجد اثنين من السودان . وواحدا من اليمن واثنين من المانيا وثمانية من مصر ! ان الثمانية المصريين هم جميعا من اقارب عطية واخوته . فبعد ان نجح عطية فى مشروعه الجديد هذا .. وبعد ان كتبت عنه جريدة « النيويورك تايمز » .. ارسل الى الاسكندرية ليستدعى اسرته انه الآن يعيش مع والدته واربعة من اخوته وخمسة من اولاد وبنات اخوته ، اصغرهم عمرها ١٧ سنة .

ان وجيهة ـ هذه اصغرهم وعمرها ١٧ سنة ـ ممنوع عليها ان تقف طويلا فى النافذة . عيب . ان عطية يقول « ماعندناش بنات يبصوا للجدعان من الشبابيك ان عطية اذن رجل مصرى « جمش » .. ان المصرى « الجمش » فى وسط نيويورك ان بنت اخته هذه يجب الا تكون ملابسها خارجة عن متطلبات الحشمة .. انها لا تستطيع ان ترى فيلما فى السينما الا اذا رآه عطية اولا . و « انت فاهم ايه يعنى ؟! الاصول .. اصول »! هكذا يقول عطية بعد ٢٤ سنة عاشها وما زال يعيشها الان وسط مدينة نيويورك ، وليس وسط حى بولاق بالقاهرة هكذا يطبق مقاييسه الاسكندرانية على الافراد العشرة الذين يكونون اسرته فى نيويورك .. ويعيشون فى منزلهم الخاص ذى الطوابق الثلاثة بشارع برودواى .

ونتيجة لهذا اصبح لدى عطية « مستعمرته » السكانية الاخرى فى نيويورك ــ ثانى « مستعمرة » سكانية مصرية فى المدينة الامريكية الفخمة . ان هذه المستعمرة هى المنزل المستقل الذى تعيش فيه اسرة عطية المكونة من ثلاثة اجيال فى نيويورك .

واذا سألت عطية الان : كم تبلغ قيمة هذا المحل الذى تملكه؟ فانه سوف يرد بسرعه :

ــ مائة الف دولار .

ــ كم يبلغ حجم المعاملات التجارية السنوية للمحل ؟

ــ مليونين من الدولارات .

ــ كم تبلغ الضريبة التى تدفعها للحكومة الامريكية سنويا ؟

ــ سبعمائة الف دولار .

ــ لماذا تعتقد ان مطعمك قد نجح الى هذه الدرجة ؟

ــ لانني موجود فيه دائما .. لان الطعام فيه مطبوخ بعناية .. لان الاسعار فيه معقولة .. ثم لان الديكور به جذاب .

ــ لماذا اخترت اسم كليوباترة للمحل ؟

ــ لانني كنت اريد ان يحمل المحل اسما مصريا ..

ــ ما هذه الصورة المعلقة فى مدخل المحل ؟

ــ انها صورة السفير محمد حسن الزيات مندوبنا فى الامم المتحدة .. فى احدى المرات الكثيرة التى جاء فيها لزيارة المطعم.

ــ هل الطعام الذى تقدمه مصري حقا ؟

ــ انني اشتري المواد الخام من نيويورك طبعا .. ولكن طريقة الطبخ هى المصرية .

ــ لماذا لم تتزوج حتى الان ؟

ــ لان الزواج كان سيشغلنى عن النجاح فى عملى .

ــ هل تعتقد انك سعيد الان ؟

ــ نحمده .. !

* * *

والواقع ان قصة نجاح عطية .. بالاضافة الى القصة السابقة لنا عن المعلم سكر .. يمكن ان تقودنا الى عدة نتائج هامة .

فالمصري التقليدى عندما يوضع فى ظروف التحدى يستطيع ان يفعل المستحيل . انه يستطيع ذلك بشرط ان يتحرر من نفسه . بشرط ان يتحرر من تلال الصدأ التى تراكمت فوقه ، وطنات السلاسل التى قيدت حركته . انه يستطيع ان يفعل المستحيل رغم انه يدخل السباق بموارد محدودة واستعداد

متواضع للغاية . انني استطيع ان اؤكد انه لولا هذا الاحساس بوجود التحدى .. لولا صعوبة كل شيء امام سكر وعطية .. لما كان ممكنا ان يصلا الى تلك النتائج على الاطلاق ..

انها مسألة تثير الاعجاب .. ولكنها ايضا تثير الدهشة .. فلو التجأت الى العقل والمنطق لكان يجب أن يفشل بطلا القصتين السابقتين فى حياتهما الجديدة فشلا مؤكدا . انهما ــ فى البداية ــ لم يملكا اى موهبة ــ أى كفاءة خاصة ــ يعرضانها على المجتمع الذى هاجرا اليه . لم تكن لديهما الموهبة ، ولكن كان لديهما شيء اكبر من الموهبة . كان لديهما الاصرار . والتصميم ... التحدى الامل ــ روح المقاومة .. مقاومة الظروف الصعبة والامكانيات المحدودة .

لقد القيا بنفسيهما وسط مجتمع لايرحم .. مجتمع يعطيك كل القيمة اذا عملت ٢٤ ساعة فى اليوم .. ويسحب منك كل قيمة اذا اهملت ساعة فى اليوم . فلانه لا يوجد فى هذا المجتمع الجديد احد يعرفك .. ولا احد يجاملك .. ولا احد يتوسط لك ولا أحد يعطف عليك .. ولا أحد يهمه امرك اصلا .. فانك فى تلك الحياة الجديدة لا تملك غير يديك واسنانك وعقلك .. هذا كل ما تملكه .. كل ما تدخره . كل ما تبدأ به الحياة الجديدة. ان المحيط وراءك . والنجاح امامك . ان الفاشلين تحت قدمك والناجحين فوق راسك . انك لا تملك بين القاع والقمة سوى عقل تفكر به .. وفكرة تؤمن بها . هذا راسمال كاف جدا .. مادام التصميم موجودا والارادة موجودة .. وروح النضال موجودة

× × ×

انى اجد ان هذا التفسير الوحيد المقبول للنتائج التى وصل اليها سكر وعطية وعشرات غيرهم انه التفسير الذى كنت انتهى اليه فى كل مرة اسمع أو ارى او المس بنفسى النتائج التى حققها احد هؤلاء المصريين اللذين هاجروا رغم انفهم .

ان سكر وعطية لا يمثلان اغرب نموذجين يمكن ان تقابلهما . هناك مثلا نموذج ثالث ، ولكن لم اقابله شخصيا .. لهذا لم اكتب قصته بالتفصيل .. رغم انى سمعتها من مئات المصريين وغير المصريين الذين قابلتهم فى امريكا .

ان هذا النموذج الغريب اسمه : احمد ابو العيلة . انه لم يكن اكثر من فقى ! نعم . شيخ معمم بالجبة والقفطان والمصحف فى يده وكل النوايا الحسنة فى راسه . ان احمد ابو العيلة هو

الآن مهاجر مصرى يعيش فى نيوجرسى بالولايات المتحدة . يعيش بعقـل مع مصر وزوجة من امريكا . نعـم .. زوجة مستر « ايلا » .. هكذا يسميه الامريكيون ، هى امريكيـة وتعمل فى سلاح الطيران الامريكى . ان زوجة المستر ايلا ـ الشيخ ابو العيلة سابقا ـ هى ضابطة برتبة كولونيل ! انها الان مسلمة ، وزوجة ، وأم وكولونيل ، وتساعد زوجها احيانا فى محل البقالة الذى يملكه ، وتستطيع أحيانا ان تقرأ بعض الآيات فى المصحف الذى يحمله زوجها دائما !

لقد كان من المفروض ان اقابل هذا الرجل المصرى ـ احمد ابو العيلة .. وبعد أن حصلت على رقم تليفونه فعلا من عم لبيب الرجل العجوز الطيب الذى يعمل موظفا بوفدنا فى الامم المتحدة .. اكتشفت ان الرقم قد تغير .. وان الوقت امامى لم يعد يتسع للبحث عن الرقم الجديد .. الا على حساب المواعيد الاخرى التى ارتبطت بها فى الاسبوعين التاليين . لهذا لم اذهب ولم اقابله .. ولكن ماسمعته عنه كان يكفى جزئيا للحديث عن هذه الظاهرة التى لمستها فى المصريين المهاجرين الاوائل الى امريكا .

فمن خلال النموذجين اللذين تكلمت عنهما فى البداية . سكر وعطية ـ ثم النموذج الثالث الذى سمعت عنه فقط ولم اقابله .. احمد ابو العيلة .. تستطيع ان تحدد بالضبط طابع الجيل المصرى الاول الذى هاجر الى امريكا . انه جيل يتكون من اناس هاجروا بالصدفة او ـ بالكثير ـ هاجروا وهم ينوون فى عقلهم الباطن ان يجعلوها غيابا مؤقتا .. هجرة مؤقتة .. تجـربة لا تضر .. اذا نجحوا كان بها .. واذا لم ينجحـوا عادوا الى ما كانوا فيه ..

انهم اذن جيل وضع نفسه وسط ظروف اكبر منه .. واكبر من طاقته .. فلم يكن لديهم بديل سوى التقدم الى الامام أو الموت فشلا .. ان هجرتهم لم تكن محسوبة .. انها كانت مجازفة اكثر مما كانت مغامرة .. ولكنها انتهت الى نتائج طيبة رغم انها كان من الممكن الا تصبح كذلك .

× × ×

ان هذه الصفات كلها اختفت من الجيل التالى من المهاجرين المصريين . فمن النادر ان يهاجر الآن نموذج اخر مثل سكر او عطية . ان الهجرة اصبحت فى معظم الحالات الآن مغامرة وليست مجازفة . وحتى بعد أن أصبحت مغامرة فهى مغامرة محسوبة مقدما بشكل او بآخر .

والمهاجر لم يعد شخصا مجردا من اى تعليم .. فاقدا لاى كفـاءة . لقد أصبح شخصا متعلما كفئا ، يريد عملا اكثر مما يبحث من تجربة ..

ان هذا الجيل التالى من المهاجرين تستطيع ان تلمسه من خلال نماذج كثيرة بين المصريين الذين يعيشون الان فى امريكا . اننا نستطيع ان ناخذ هذه القصة نموذجا على ذلك .

امير ادوارد سابا . مصرى مهاجر . يعمل الان مصمما لبرامج العقل الالكترونى فى نيويورك .

ان امير هو شاب مصرى تخرج فى كلية تجارة عين شمس منذ ست سنوات فقط . اول عمل له كان محاسبا بشركة الشرق للمقاولات وآخر عمل هو محاسب بشركة الطيران العربية المتحدة ان البحث عن فرصة . كان بداية تفكير امير فى الهجرة منذ ثلاث سنوات . ان تنفيذ قراره بالهجرة الى امريكا استغرق سنتين كاملتين . فى هاتين السنتين كان امير يعد نفسه ـ علميا ـ لمواجهة المستقبل المجهول الذى سيواجهه بعد هجرته . لقد التحق بالجامعة الامريكية فى القاهرة لكى يدعم مستواه فى اللغة الانجليزية ، والتحق ببرنامج للتدريب على العقل الالكترونى ـ فى القاهرة ايضا ـ لانه يريد سلاحا اضافيا معه يساعده على العمل بعد هجرته .

وعندما هبطت طائرة امير فى نيويورك .. نزل هو منها لكى يرى امريكا لاول مرة . من اليوم التالى مباشرة بدأ يبحث عن عمل . ان اول شيء فكر فيه هو الذهاب الى وكالة توظف .. فى الوكالة حددوا له اسم شركة يتوجه اليها فى اليوم التالى لكى يختبروه شفويا ويسالوه عن خبرته . الان فقط احس امير بقيمة الاستعدادات العلمية التى زود نفسه بها قبل مغادرته القاهرة . ان مجرد تدريبه على العقل الالكترونى فى القاهرة اعطاه فرصة فى الحصول على هذا العمل الجديد اكبر من غيره . وبتعبير امير نفسه « .. ان مرتبك هنا ـ فى امريكا ـ يزيد بنسبة تتراوح بين ١٥ و ٢٥ ٪ لو كنت حاصـلا على برنامج تدريبى فى العمل الالكترونى » . ان اول مرتب حصل عليه امير هو سبعة آلاف دولار فى السنة . ان مرتبه الآن قفز الى تسعة الاف دولار فى السنة . ان السبب فى ذلك هو ان امير لم يهدأ . فرغم انه وجد العمل فعلا .. الا انه بعد شهرين فقط من وصوله الى امريكا التحق بمعهد فى نيويورك لدراسة برامج اكثر تقدما فى العقل الالكترونى . برامج استمر فيها الى جانب العمل ـ لمدة سنة

اشهر ، كلفته خمسمائة دولار .. بعد انتهاء الدراسة استطاع امير ان يحصل على عمله الحالي ـ مصمم لبرامج العقل الالكتروني فى شركة متروبوليتان لايف للتامين . واحدة من اكبر واحسن شركات التامين .

ان امير يعيش الآن مع زوجته في بروكلين بمدينة نيويورك . ان زوجته مصرية . فى الواقع انه تزوج فى القاهرة قبل هجرته الى امريكا .. ولكنه لم يستدعها الى نيويورك الا بعد شهر من عمله هناك . ان زوجة امير لم تتحول الى عبء عليه في امريكا ، بل اصبحت عاملا رئيسيا في مساعدته هناك . ربما كان ذلك لأنها حاصلة على ليسانس الآداب قسم انجليزى . ربما لانها هى ايضا فكرت معه فى الهجرة الى هناك . ربما لان قدرتها على التكيف مع المجتمع الجديد كانت اكثر من غيرها . المهم ان زوجة امير نفسها هى الاخرى حاليا موظفة فى « بنك مونتريال » بمدينة نيويورك . ان امير وزوجته يعيشان الآن فى شقة متوسطة بمدينة نيويورك ـ الايجار مائتا دولار فى الشهر .. رغم انه من أهم المشاكل التى واجهتها عن البحث عن شقة فى البداية هو ان صاحب المنزل ـ كما هى العادة دائما فى امريكا ـ يطلب منك شهر تامين وشهر مقدم وشهر ايجار ـ اى ان عليك ان تدفع ايجار ثلاثة اشهر فى الشهر الاول . ومع ذلك فان امير يرى « ان الشخص الامريكى العادى هنا يحاول ان يفهمك ويتعاطف معك ويساعدك ويقدر فيك حرصك على تعلم شيء جديد باستمرار . هذا هو مالمسته من زملائى ورؤسائى فى العمل هنا .. مادمت تؤدى عملك جيدا وباخلاص فانك ستحصل على تقدير الجميع .. وعلى الترقيات ايضا » .

ويقول امير ايضا « ان اجادة اللغة الانجليزية تلعب دورا هاما فى عثورك على العمل المناسب هنا . ليس هذا فقط ، بل ان هناك اصطلاحات انجليزية فى كل مهنة لابد ان تكون ملما بها حتى لاتتصور الشركة ان خبرتك غير كافية للعمل الذى تطلبه . ان اقل اعتراض يثار فى هذه الحالة هو ما يقوله الامريكيون دائما عن مثل هذا الشخص . انهم يقولون عنه انه : لا يستطيع ان يتفاهم » .

× × ×

ومع اننا ربما نعود الى امير وقصته فيما بعد الا اننى اريد ان اشير هنا ان النماذج الرئيسية الثلاثة فى هذا الفصل ـ سكر وعطية وامير ـ يمثلون التغير الذى طرأ خلال سنوات قليلة على طبيعة ونوع المصرى المهاجر الى الخارج ـ والى امريكا بالذات .

ان النماذج الثلاثة يمثلون اشخاصا ناجحين ، ولكن طبيعة

النجاح ومداه واسبابه اختلفت تماما خلال جيلين اثنين فقط من المهاجرين المصريين الى امريكا . فحيث بدأ الجيل الاول من الصفر .. بدأ الجيل الثانى من نقطة أعلى من مجرد الصفر . وحيث بدأ الجيل الاول من مجرد تعلم اللغة بدأ الجيل الثانى من تعلم لغات العقل الالكترونى . وحيث هاجر الجيل الاول دون قصد .. هاجر الجيل الثانى بقصد الهجرة مقدما .. وحيث هاجر الجيل الاول بأقل استعداد واقل تخطيط .. هاجر الجيل الثانى باستعداد أكبر وتخطيط أكثر احكاما .

ان الهجرة بالنسبة للجيل الاول كانت مجرد جملة اعتراضية فى حياته .. ولكنها بالنسبة للجيل الثانى كانت تغييرا نهائيا فى حياته ان الجيل الاول ذهب يبحث عن حلم وردى اللون . حلم الثراء بقفزة واحدة . ولكن الجيل الثانى سافر بحلم وردى اللون ايضا ، ولكنه حلم اكثر تواضعا . انه مجرد الحلم بوظيفة اعلى !

ان هذه الجملة الاخيرة تشير فى الواقع الى عيب خطير فى الجيل الثانى من المهاجرين المصريين . فرغم أنه جيل أكبر استعدادا وأحسن تعليما واكثر قدرة على المساومة .. الا انه يهاجر بحثا عن .. وظيفة . انه يترك فى مصر حياته وصداقاته وذكرياته واسرته ووظيفته .. انه يسافر .. يهاجر .. ينتقل من مجتمع الى مجتمع .. من حياة الى حياة .. انه يركب السيارة والسفينة والطائرة .. انه يبدأ الاندماج مع اسلوب جديد .. وتفكير جديد. انه يفعل هذا كله ، لكى يصبح فى النهاية : موظفا ! ان المرتب اكبر .. والفرص اوسع ...والحياة اكثر تنوعا .. والنظرة للامور اوسع مدى .. ولكنه فى نهاية الامر مازال موظفا .

ان هذا يمثل عيبا خطيرا نجده فى المصريين فقط . انك لاتجده فى اللبنانيين أو السوريين . أو الفلسطينيين الذين يشكلون جالية اخرى كبرى فى امريكا اكبر من المصريين . جالية حملت عصاها على كتفها ـ فلم تكن لديها مجرد حقيبة واحدة ـ ورحلت الى امريكا منذ اكثر من مائة سنة مضت .

ان التطور الذى حققته تلك الجاليات فى امريكا خلال مائة سنة .. اختصره المصريون لكى يتم فى عشرين سنة فقط ، مع فروق كثيرة فى النتيجة طبعا ..

ان اهتمامنا الآن سوف يتحول فى الفصل التالى الى تلك الجالية الاكبر عددا .. والاكثر حركة .. الجالية العربية فى امريكا . ان الاهتمام بالعرب ككل .. يمكن ان يلقى لنا اضواء على المصريين ـ كجزء ـ الذى هاجروا الى امريكا ..

الفصل العاشر :

العرب فى أمريكا ..
مليون .. مع وقف التنفيذ !



١٨٤٠
مرفأ نيويورك .
٣٠ ابريل
صباح السبت

كل شيء هادىء في ميناء نيويورك . المراكب راسية على الارصفة لا احد يعمل في الميناء .. فاليوم عطلة اسبوعية . لا احد من عمال الشحن . لا احد من عمال التفريغ .. ما عدا عشرين او ثـلاثين عاملا .. وقفوا على الرصيف في انتظار شيء ما . على بعد خطوات قليلة يقف عمدة نيويورك ، والى جانبه مدير الميناء ورئيس عمال التفريغ . ان الحديث بينهم يسير فى اتجاه واحد .. من العمدة الى المدير الى رئيس العمال . كل شيء سوف يكون جاهزا .

صوت بوق ينطلق من تلك النقطة التي يتطلعون اليها في الافق مرتين
بوق ينطلق من تلك النقطة التي يتطلعون اليها في الافق مـــرتين
وثلاث مرات . انها هي . نعم .. هي بالضبط .. السفينة التي وقف الجميع في انتظارها من الصباح الباكر .

بعد قليل اصبحت تلك السفينة راسية على الرصيف . مدير الميناء يتأكد من اسم السفينة المكتوب في المقدمة . نعم ـ اسمها « السلطانة » . رئيس العمال يصعد مع اثنين من مساعديه الى ظهر السفينة للانتهاء من الاجراءات الادارية بسرعة . ان قائمة البحارة طويلة : واحد ، اثنين ، ثلاثة ستة ... ستة وستين . مضبوط ٦٦ بحارا . قائمة البضائع المستخدمة داخل السفينة هي ايضـا طويلة : بهارات .. بن .. عاج .. بلح .. هدايا .. سجاجيد .. سجاجيد فارسية .. « هذه شحنة ثمينة » ! هكذا يتمتم رئيس العمال فالسجاجيد نادرة هنا .. خصوصا اذا كانت فارسية .

وفي نفس الوقت كان العمدة ـ عمدة نيويورك ـ قد صعـد الى السفينة لكي يرحب بضيفه الكبير .

ـ « .. اهلا وسهلا .. بمستر احمد بن نعمان .. ممثل فخامة السلطان سيد سعيد .. سلطان مسقط وزنجبار . انني باسم سكان نيويورك الثلاثمائة الف .. وباسم رئيس جمهورية الولايات المتحدة مارتن فان بورين .. وباسمي ارحب بك كأول ضيف عربي رسمي في مدينتنا . »

ويرد احمد بن نعمان : « انني باسم سلطاننا المفدى الشيخ سيد بن سعيد .. اشكرك . وارجو أن اتمكن من مقابلة فخـامة رئيس الولايات المتحدة ، لانقل اليه تحيات سلطاننا وهـداياه التي احملها تعبيرا عن تقديرنا لبلاد الامريكان .. » .

وبسرعة يقول العمدة : « نعم بكل تأكيد ياسيدي . انا أيضا لدينا الهدايا التي نود أن نرسلها الى فخامة السلطان .. كما اننا سوف نقوم بتجديد هذه السفينة السلطانية التي حملتكم الى هنا . تفضل ياسيدي .. تفضل .. فاصحاب المقامات الرفيعـة ورجال الاعمال في مدينتنا ينتظرون ذلك لتقديم تحياتهم » .

× × ×

وعندما نزل احمد بن نعمان من سفينته السلطانية في ذلك اليوم من شهر ابريل سـنة ١٨٤٠ ، نزل بعباءته الواسعة وعقاله العربي ، وعينيه المتجولتين ، نزل سائرا على البساط الاحمر المفروش له على ارض الرصيف . ونزل ليكون أول عربي على مستوى عال يصل الى هذه الدنيا الجديدة . بهدف اقامة أول علاقات تجارية بين بلد عربي

.. وبين هذه البلاد الامريكية الجديدة . زيارة مازالت ترمز اليها الآن تلك الصورة الفخمة المرسومة لاحمد بن نعمان ، والمعلقة اليوم فى مكتب لجنة الفن بقاعة مدينة نيويورك .

وعندما قام احمد بن نعمان فى تلك الزيارة بتفقد احياء مدينة نيويورك .. لم يكن يتصور أن واحدا أو اثنين من هذه الاحياء نفسها سوف يصبح فيما بعد مقرا لآلاف متزايدة من المهاجرين العرب الى أمريكا .

انه لم يكن اول عربى يصل الى الولايات المتحدة . لقد سبقه عربى آخر الى عبور الاطلنطى قبل ٧٢ سنة . عربى اسمه القس الياس الموصلى .. جاء وقضى ١٥ سنة متجولا فى الولايات المختلفة، قبل أن يعود من جديد الى بلاده .

ولم يكن احمد بن نعمان ايضا آخر عربى يضع اقدامه على تلك الارض التى تقع فى الجانب الآخر من العالم . وانما كان قدومه بداية لقدوم عرب كثيرين الى هذه الدنيا الجديدة بهدف التجارة . ومن الآن فصاعدا سوف نلمح من وقت لآخر بعض الاسماء العربية ضمن قوائم المسافرين القادمين الى نيويورك . سوف نلمح مثلا اسم القس كافورى قادما من سوريا الى نيويورك فى سنة ١٨٤٩ . وسوف نلمح ايضا فى شوارع نيويورك المزدحمة رجلا آخر يتجول مرتديا الملابس العربية المميزة ـ العباية والعقال ـ ونكتشف ان اسمه هوانطون بشلانى .. سورى من بيروت ، فلم تكن هناك بعد دولة اسمها لبنان .

وبعد ١٦ سنة فقط من زيارة أحمد بن نعمان سوف نسمع عن صفقة ضخمة ابرمتها حكومة الولايات المتحدة الامريكية مع الامبراطورية العثمانية . بمقتضى هذه الصفقة وصلت الى امريكا سفينة بضائع تسمى « سابلاى » ، حاملة على ظهرها ٣٣ جملا تم شراؤها من الجزيرة العربية لكى تستخدمها الحكومة الامريكية فى تسهيل السفر داخل الولايات المختلفة فى الجنوب الغربى . مع هذه الشحنة وصل أيضا اثنان من المرافقين الاتراك وثلاثة من الاعراب . مهمة تدريبية . ان واحدا من هؤلاء الاعراب اسمه « الحاج على » .. ولكن الاسم تحول ـ على الطريقة الامريكية ـ ليصبح « هى جولى » ! هكذا سجل الاسم عندما عين الحاج على فيما بعد موظفا فى الحكومة الامريكية . العمل : كشاف .

وحتى الان كان العرب المسافرون الى امريكا يذهبون الى هناك لاهداف تجارية اساسا . انهم عرب .. تجار.. يهود أو مسيحيون .. نادرا مسلمون .. يعبرون الاطلنطى لكى يعودوا الى بلادهم بعد

فترة تطول او تقصر حسب نوع التجارة التى يزاولونها . ان سفر هؤلاء الى امريكا فى البداية كان ضروريا قبل ان تبدأ الهجرة الى أمريكا فى السنوات التالية . ففى كل مرة يعود واحد من هؤلاء التجار الى قريته بسوريا أو لبنان .. فانه يحكى القصص والاخبار عن امريكا .. من تلك الدنيا الجديدة .. من الذهب المكتشف والاراضى الواسعة والمزارع الضخمة والتجارة المزدهرة .

وسرعان ما بدأ المهاجرون العرب يتجهون الى امريكا ابتداء من سنة ١٨٦٥ فما بعدها . لقد ذهبوا بالمئات فى البداية ثم بالالاف قبل نهاية القرن التاسع عشر .

× × ×

وحتى قبل نهاية القرن التاسع عشر ــ حتى سنة ١٨٧٥ ــ كان المهاجرون العرب القادمون من سوريا قد بداوا يفتحون فنادق متزايدة فى نيو أورليانز .. ولويزيانا .. ونيويورك .. لكى يستقبلوا فيها مواطنيهم القادمين من الشام .

ان هؤلاء القادمين الجدد لم يأتوا الى امريكا بدافع الهجرة .. او بنية عدم العودة . لقد جاءوا على اعتبار انهم سوف يقضون هنا ــ فى امريكا ــ عدة سنوات .. ثم يعودون من جديد الى قراهم وعائلاتهم فى الشام . لهذا جاءوا بعد أن تركوا غالبا كل حيازاتهم فى رعاية اسرهم التى ما تزال تنتظر فى الشام .

ان السوريين المهاجرين ــ مع مراعاة أن هذا الاسم يشمل اللبنانيين ايضا ــ كانوا يتجهون أولا الى مدينة نيويورك . ربما يبقون فيها . وربما ينتقلون منها الى ولايات اخرى بعد ذلك . مسالة ظروف . ان نيويورك هى محطة الوصول بالنسبة للجميع ، ومحطة العمل بالنسبة للاغلبية . لهذا فقبل أن تنتهى سنة ١٩٠٠ ، كان عدد السوريين المهاجرين المقيمين فى مانهاتن وبروكلين بمدينة نيويورك قد تجاوز رقم العشرة الاف . ان كل هؤلاء المهاجرين .. كل هؤلاء القادمين من مدن وقرى الشام .. كانوا أصحاب قصة واحدة ، وبداية واحدة ، مع ان نهاية كل منهم كانت مختلفة .

ونحن نستطيع ان ناخذ مثلا قصة هذا المهاجر السورى .. بطرس سعد . ان سعد شاب ترك قريته فى الشام ليصل الى نيويورك مع وصول العاصفة الثلجية سنة ١٨٨٨ . لقد وصل ليجد أولا أن نيويورك ليست مدينة الذهب ، ولكنها مدينة الثلج ، لقد جاء ــ ليس بهدف الاستيطان هنا نهائيا ــ ولكن بهدف تكوين اكبر ثروة ممكنة فى اقصر وقت ممكن .. ثم يعود بعدها الى قريته

يعود ليشترى قطعة ارض ويبنى منزلا ويتزوج ويصبح رب اسرة انه لم يعد الى قريته .. ولكن هذا ما كان فى راسه على اى حال يوم وصوله الى نيويورك فى تلك الايام الباردة من سنة ١٨٨٨ .

وفى نيويورك نصح المجربون السابقون هذا المهاجر الجديد ورفاقه الاربعة بالاتجاه الى الداخل .. الى الولايات الاخرى .. والعمل كباعة متجولين . ان احدا منهم لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية .. وربما كان هذا العمل احسن طريقة بالنسبة لهم لكى يتعلموا الانجليزية من واقع الحياة الامريكية .

وفعلا .. بدا سعد رحلته فى ولايات امريكا كبائع متجول .. يشترى البضائع بالجملة ويبيعها بالقطاعى . ان رحلته ـ مع رفاقه الاربعة استمرت ثلاث سنوات . فى تلك السنوات قام الرجال الخمسة بالتجول ، بالبيع والشراء ، وتعلم اللغة الانجليزية . بعد السنوات الثلاث عادوا الى نيويورك . قليل من الاستقرار ثم التحقوا بمدرسة مسائية . بعد فترة بسيطة عاد سعد الى عمله كبائع متجول . هذه المرة انحصر تجوله فى ولاية كاليفورنيا . من كاليفورنيا عاد الى نيويورك من جديد لكى يبدا نفس الدائرة . بداية ونهاية .

وقبل ان يغادر سعد نيويورك هذه المرة . كان قد بدأ يحس انه قد اصبح ثريا بشكل ما . وكتعبير منه عن هذه الثروة .. ارسل حوالة بريدية الى اخيه فى سوريا .. حوالة بمبلغ مائتى دولار .

وفى اليوم التالى لوصول هذه الحوالة الى الاخ الملهف المنتظر فى سوريا .. كان اربعون سوريا ـ من اسرة بطرس سعد واقربائه قد حزموا امتعتهم مهاجرين الى نيويورك .. ليكونوا فى رعاية اخيهم الذى اصبح مستوطنا هناك .

× × ×

بهذا الشكل استطاع عدد المهاجرين العرب فى امريكا ـ سوريين لبنانيين ان يصل الى ربع مليون شخص قبل نشوب الحرب العالمية الثانية .

ومن المفيدهنا ان نتساءل : ماهونموذج الاشخاص الذى كان يغلب على تلك الهجرة ؟ ماهو نوع الكفاءات التى كان يتمتع بها ؟ وما هى الاعمال التى كانت متاحة امامه ؟ ..

ان معظم العرب الذين هاجروا الى امريكا فى الحرب العالمية الثانية كانوا : فقراء غير متعلمين غير مهرة غير مدربين ويحترفون الزراعة او التجارة ويجهلون اللغة الانجليزية . ان نصفهم انتهى به المكان الى الولايات الجنوبية فى امريكا .. حيث الحاجة الماسة الى

عمال للمزارع باجور منخفضـــــة .. وحيث استطاع بعضهم ان يشترى بعد فترة مزرعته الخاصـــة في ولايات جورجيـا .. او تكساس .. او تينيسي .. او ميسيسبي او نيومكسيكو او اريزونا وربعهم تقريبا استقروا فى ولايات الشاطىء الشرقى لامريكا .. فى نيويورك .. او نيوجرسى .. او بنسلفانيا .. أو نيوانجلاند .

اما الباقون فقد عملوا كباعة متجولين فى مختلف الولايات .. افتتحوا محلات بقالة .. او عملوا فى البارات والجاراجات والمطاعم

والحقيقة المؤكدة بعد هذا كله انهم جميعا واجهــوا فى البداية ظروفا اقتصادية صعبة .. بلغت قمتها فى سنوات الكساد العظيم بامريكا فى اواخر الثلاثينات . لقد وجدوا امامهم المشاكل والحواجز والعقبات . لقد ذاقوا احيانا قسوة الفقر ومرارة الجوع . لقد تعرضوا للاستغلال بواسطة التجار الجشعين الذين اعطوهم اقل القليل . ولكنهم ـ قليلا وبالتدريج ـ استطاعوا أن يتغلبــوا على الهزيمة المؤقتة . ان الكساد لم يجرفهم ، لانهم كانوا فقراء أصلا . غير مهرة أصلا . لهذا استطاعوا البقاء حتى تمر العاصفة . وحينما حدث فيضان البطالة استطاع كل منهم ان يطفو برأسه ـ راسه فقط ـ فوق تيار البطالة . ومثلما يحدث فى البحـر حينما تهب العاصفة .. حيث تنجو القوارب الصـــغيرة من الغرق .. فانهم استطاعوا النجاة بانفسهم فى الوقت الذى غرق فيـــه غيرهم . واستطاعوا العمل . حينما تعطل غيرهم .

انهم لم يعودوا الى بلادهم لانهم لم يستطيعوا قبـــول الياس كنتيجة اخيرة لهذه الرحلة الطويلة ، هــــذا جزء من سيكولوجية المهاجر عندما يواجه هذا الموقف . ان الياس معناه الفشـــل .. والفشل معناه الهزيمة . والهزيمة معناها أن تبـــدا « شماتة » الاعداء .. ويختفى اعجاب الاصدقاء والاقرباء . لهذا لم يكن امامهم بديل عن العمل ـ والعمل الشاق . ان اختيارهم لمهنـــة التجارة المتجولة مثلا هو احدى التضحيات التى قبلوها حتى يتفادوا الياس الفشل والهزيمة . فان تكون بائعا متجولا فى امريكا ـ فى تلك الايام المبكرة فى القرن العشرين ـ معناها أن تحمل بضــاعتك على كتفك وتدق المنازل بابا بابا . ومع اشتغال العمال فى امريكا وقتها ساعات طويلة بالمصانع والمزارع .. مع المسافات الطويلة التى كانت تفصل منازلهم عن المراكز التجارية . فان البائع المتجـــول فى امريكا كان يعتبر بين الاوساط الفقيرة فى تلك الايام زائرا مطلوبا فى اى منــزل انه صديق ياتى بالبضائع المطلوبة ، مثلما ياتى ايضا بالاخبار المتناثرة ان الســوريين واللبنانيين الذين مارسوا هـــذا العمل اكتشفوا

الولايات المتحدة مرة ومرة من شاطىء الى شاطىء . لقد تجولوا فى امريكا ولاية ولاية .. مدينة مدينة .. شارعا شارعا .. منزلا منزلا . ان هذا السورى ، هذا اللبنانى المهاجر .. هذا البائع المتجول .. كان يظل طوال النهار يبيع .. ويتجول الى ان يحسب مكافاته فى اخر الليل . انها مكافاة لا تزيد عن وجبة ساخنة ومكان ينام فيه . انه يسكن فى بيت مزدحم بزملائه المهاجرين العرب المتجولين مثله . بيت مزدحم بقدر ما تتسع الارض لاجسامهم النائمة . انهم ينامون معا .. ياكلون معا .. يواجهون المصير المجهول معا فى هذه الارض الجديدة معا .

لم يكن امام السورى او اللبنانى المهاجر بديل عن تلك الحياة الشاقة . انه معدم الثروة .. محدود المعرفة .. جاهل باللغة . لهذا كان محتاجا الى مثل هذا الحل للتفاهم مع المجتمع . ومع قبوله بالاجر المخفض واستعداده للحياة عند حدها الادنى ؛ فان تاجر الجملة كان محتاجا له .. محتاجا لتشغيله كوحدة بيع مستقلة .. باقل التكاليف .

واحيانا كان هذا اللبنانى البائع المتجول يصبح ــ بعد فترة من الوقت تاجر جملة . ساعتها كان يقوم باستدعاء مجموعة جديدة من اقربائه ورفاقه القدامى بسوريا ولبنان .. لكى يبدأوا معه نفس الدورة من جديد .. هو تاجر الجملة .. وهم الباعة المتجولون . ان الفارق فى هذه الحالة هو انه سوف يتولى رعايتهم باكثر مما راعاه التاجر الذى . انه سوف يوفر لهم المسكن وسوف يتعامل باسمهم مع السلطات المحلية .. وسوف يفض نزاعاتهم ، ويحل مشاكلهم ويدخر لحسابهم . هكذا فعل الالاف من اللبنانيين والسوريين فى امريكا . هكذا فعلت مثلا سيدة لبنانية فى مدينة سبرنجفيلد اسمها منتورة فرنجية . انها هى نفسها بدات الحياة فى امريكا كبائعة متجولة .. قبل ان تصل ــ مع زوجها ــ الى تجارة الجملة . ان السوريين واللبنانيين فى جيلهم المهاجر الاول بأمريكا ــ استطاعوا الوصول الى هذه النتيجة من خلال بداياتهم المتواضعة فى التجارة المتجولة ، ومحلات البقالة والبارات والمقاهى والمطاعم ومحلات الجزارة والجاراجات والمزارع والسكك الحديدية ان هذه النتيجة تبدو مدهشة . فى الواقع ان مجرد استمرارهم يبدو مدهشا ــ لو تذكرنا المستوى التعليمى المنخفض جدا الذى بداوا منه حياتهم فى امريكا . مستوى لم يضمن ــ فى الغالبية العظمى من الحالات ــ مجرد معرفة عشر كلمات من اللغة الانجليزية

مستوى فرض عليهم ـ عند وصولهم الى امريكا ـ ان يدخلوا المجتمع من القاع تماما ـ من تحت القاع أحيانا . انهم .. عندما وضعوا اقدامهم على اول درجة في السلم .. تمسكوا . بايديهم واقدامهم واسنانهم ـ من الوصول الى تلك الدرجة التي اصبحوا عندها في جيلهم الثاني جزءا من الاغلبية في امريكا ـ جزءا من الطبقة المتوسطة .

ان الحواجز العالية الكثيرة التي واجهت المهاجرين السوريين واللبنانيين في البداية كانت ضخمة . يكفي هنا جهلهم باللغة . يكفي ان تعلم ان ٩٧٪ من الجيل الاول في امريكا سجل ان تعلم اللغه الانجليزية كان أكثر المصاعب التي واجهته بالنسبة للاندماج في المجتمع . فلانهم جاءوا بلا تعليم ولا لغة ولا كفاءة فقد كان كل شيء في أمريكا يبدو لهم غريبا عليهم . كل شيء غريب .. كل شيء صعب الفهم .. مستحيل الادراك . ان تكيفهم مع المجتمع في البداية واجهته حواجز جعلتهم مضطرين الى التجمع معا ـ كاقرب او مجرد زملاء ـ في مناطق سكنية متجاورة كاسلوب من اساليب الدفاع عن النفس ثقافيا . من هذا الدفاع بدأ تكيفهم مع المجتمع . بدأ من نقطة الصفر . واذا كان الحاجز اللغوى قد استطاع أن يؤخر اندماجهم في المجتمع الجديد خلال جيلهم الاول .. فانه ـ من ناحية اخرى ـ حافظ على تراثهم العربي الذي جاءوا به من مجتمعهم القديم .. من سوريا ولبنان . لقد جعلهم يسرعون الى اقامة أحيائهم الخاصة وبناء كنيستهم الخاصة ومسجدهم الخاص واصدار صحفهم الخاصة نعم .. لجأ السوريون واللبنانيون الى التركز معا في احياء خاصة ومنازل متجاورة . واحيانا كانت هذه الاحياء تتحول الى « مستعمرات » لبنانية وسورية داخل مدن امريكا . عندك شارع واشنطون مثلا في نيويورك قبل سنوات .. وشوارع بروكلين في نيويورك الان .

ولجأوا أيضا الى اقامة كنائسهم الخاصة ومساجدهم الخاصة ونواديهم الخاصة . ان معظم المهاجرين العرب الاوائل الى امريكا كانوا مسيحيين ان المهاجر العربي المسلم كان يجد نفسه هنا من البداية . اقلية . ولكن العربي المسيحي كان يجد نفسه ـ ايضا ـ اقلية . ان الاثنين اذن كانا يشعران انهما في موقف واحد من الدفاع الثقافي والروحي داخل هذا المجتمع الجديد . ان العربي المسيحي لم يجد في كنيسة هذا المجتمع بديلا عن كنيسته هو .. لهذا استطاع ان يقيم خمسين كنيسة عربية في امريكا . والعربي المسلم

كان هو الاخر يجد ان بناء المسجد ضرورى بالنسبة له لكى يحتفظ بتراثه معنا . لهذا قام ببناء ١٧ مسجدا واربعةمراكز اسلامية فى امريكا . مراكز ومساجد تجدها الان فى واشنطون العاصمة .. فى ديترويت .. فى ميتشجان .. فى لوس انجلوس .. فى نيويورك .. فى شيكاغو فى بنسلفانيا الخ

وقبل ان يتم بناء اول مسجد اسلامى فى امريكا سنة ١٩١٩ . كانت الكنيسة العربية قد بدا بناؤها فى امريكا قبله بعشرين سنة ان الفارق الزمنى لم يكن هاما . لان الكنيسة والمسجد لم يكونا مجرد كنيسة ومسجد بالنسبة للعربى المهاجر سواء كان مسيحيا او مسلما . لقد كانت الكنيسة اكثر من مجرد كنيسة ، والمسجد اكبر من مجرد مسجد . ان كليهما كان رمزا للتاريخ ، رمزا لحضارة .. لتراث .. لثقافة .. رمزا لارتباط روحى باسرة ومنزل وارض تقع هناك بعيدا . فى الشرق الاوسط . لهذا كان المسجد والكنيسة بديلا عن الاخر . حيثما وجدت الكنيسة فهى بيت للمسلم والمسيحى . حيثما وجد المسجد فهو رمز واحد عند المسيحى والمسلم . انها سيكولوجية الاقلية ــ الاثنان معا اقلية ــ ضمن هذا المجتمع الجديد . انها سيكولوجية الدفاع عن النفس . انها نفس السيكولوجية التى وقفت وراء اصدار اللبنانيين والسوريين لصحفهم الخاصة . صحف باللغة العربية بدات الجالية المهاجرة من اللبنانيين والسوريين فى اصدارها داخل امريكا نفسها ان مشاكل الحياة وضرورات التكيف مع المجتمع الجديد لم تمنع هؤلاء المهاجرين الاوائل من اقامة نشاط ثقافى مشترك .

وكالعادة دائما .. كانت الصحافة هى اول تعبير عن هذا النشاط .. فبدات الجالية العربية فى نيويورك اصدار صحيفة « **كوكب الشرق** » .. كاول جريدة باللغة العربية فى امريكا . بعدها تتابع صدور الصحف العربية على مر السنين : جريدة « **الايام** » مثلا . **الناشر** : يوسف معلوف . جريدة « **الاصلاح** » **الناشر** شبلى داموس . جريدة « **الهدى** » **الناشر** : اخوان مكرزل . جريدة « **مراة الغرب** » . **الناشر** نجيب دياب . جريدة « **السائح** » . **الناشر** : عبد المسيح حداد . جريدة « **السمير** » . **الناشر** : **ايليا ابو ماضى** .

ان هذه الصحف وغيرها كثير لعبت دور الرمز المشترك ، التعبير المشترك ، اللسان المشترك ... لهؤلاء المهاجرين الاوائل القادمين من الشام .. بالاضافة الى دورها التقليدى فى ربط المتناثرين منهم معا .

وقبل ان تنتهي سنة ١٩٢٠ كان هذا التعبير الثقافي المشترك قد امتد خطوة أخرى الى الامام .. عندما قام بعض المثقفين العرب ـ الان بدأ وجود المثقفين العرب ـ في تشكيل جمعية اسموها «رابطة الكلاميات » . رابطة لاهل الشعر والنثر منهم . ان انتاجهم من الشعر كان يعكس روحا رومانتيكية بلهجة ميتافيزيقية مع شيء من الواقعية في انتاجهم الادبي من النثر . ان المجموعة المؤسسة لتلك الرابطة تقابلت اولا في منزل جبران خليل جبران في مدينة نيويورك . مجموعة كانت تضم اسماء لامعة من المقيمين في المهجر .. من بينهم **مثلا : ميخائيل نعيمة .. عبد المسيح حداد .. امين الريحاني .. وايليا ابو ماضي .**

ومن الان فصاعدا سوف تبدأ عجلة الحياة في الدوران بهؤلاء المهاجرين العرب في امريكا . ان الحواجز العالية امامهم تتساقط واحدا بعد الاخر . ان تفاهمهم مع المجتمع بدأ يصبح اسهل . . ان لغتهم الانجليزية بدأت تصبح كافية . ان عددهم ينمو بسرعة . ان ضعفهم الاقتصادي يتجه تدريجيا نحو القوة . ان احياءهم الفقيرة تتحول ببطء الى مساكن انظف . ان اعمالهم المتواضعة بدأت تتحول الى تجارة واسعة . لهذا بدأ عدد منهم ينمو الى درجة تسمح له بالانتقال من شارع واشنطن في نيويورك الى الشارع الخامس ـ شارع البنوك ورجال الاعمال في مدينة نيويورك . في هذا الشارع تتابع ظهور عدد متزايد منهم : سليم ملوك ـ مستورد . عائلة البردويل ـ تجار . عائلة جبارة ـ تجار . نعيم تادرس ـ مستورد للسجاجيد الفارسية البير سليمان واخوان عطية .. مستوردون ايضا للسجاجيد الفارسية .

ان هذه الاعداد المتزايدة في المهاجرين اللبنانيين والسوريين قد بدأت تتصرف الان بنية الاستيطان . ان كلا منهم قام باستدعاء اسرته و « استيراد » زوجته من قريته الاصلية في الشام . زوجة جاء بها لكي تساعده في ادارة محل البقالة الذي اصبح هو مالكه او محطة البنزين التي اصبح صاحبها او محل الازياء الذي يملك راسماله .. انهم يشكلون لانفسهم النوادي والجمعيات الخيرية . انهم يجمعون من بعضهم التبرعات لاقامة كنيستهم الخاصة او مسجدهم الخاص .

ان تاثيرهم في المجتمع وعملهم لنموه يبدأ في الظهور شيئا فشيئا .. ان المجتمع نفسه يعبر عن تقديره لهم بطريقة تنمو مع نمو نشاطهم . فعندما تحتفل الجالية اللبنانية السورية في مدينة سبرنجفيلد مثلا بمرور ٢٥ سنة على قدوم عميدهم الى المدينة ـ

احتفالا جرى فى سنة ١٩٣٨ ــ ان الاحتفال يحضره عمدة المدينة والشريف ومساعد النائب العام وبعض اعضاء الكونجرس ورجال الكنيسة الكاثولوكية . . ولكن . . عندما تحتفل نفس الجالية ــ فى نفس المدينة . . بعد ٢٥ سنة أخرى ــ بمرور خمسين سنة على قدوم عميدهم الى سبرنجفيلد ــ فان الاحتفال يحضره حاكم الولاية . . بالاضافة الى عمدة المدينة وبعض اعضاء الكونجرس و . . رسالة تهنئة من البيت الابيض !

انهم الان ــ المهاجرون العرب فى امريكا ــ اصبحوا من القوة والعدد بما يسمح لهم بالتحول الى جزء هام من المجتمع الامريكى. وحينما ننظر الان الى تجمعاتهم واعدادهم فسوف نجد فورا رقما مدهشا . . سوف نجد ان عدد العرب المهاجرين الان فى أمريكا ، أو الامريكيين الحاليين ذوى الاصل العربى ، قد وصل الى رقم المليون . وسوف نجد انهم متناثرون فى عدد من ولايات امريكا على النحو التالى :

اريزونا ٢٠٫٠٠٠ ــ كاليفورنيا ٣٠٫٠٠٠ ــ كونيكتيكوت ١٧٫٠٠٠ ــ فلوريدا ٢٠٫٠٠٠ ــ جورجيا ١٢٫٠٠٠ ــ الينويز ١١٫٠٠٠ ــ انديانا ٢٢٫٠٠٠ ــ ايوا ٢٠٫٠٠٠ ــ كانساس ١٠٫٠٠٠ ــ كنتوكى ١٢٫٠٠٠ ــ ماريلاند ١٠٫٠٠٠ ــ ماساشوستس ١٤٫٠٠٠ ــ متشجان ١٤٫٠٠٠ ــ مينيسوتا ١٠٫٠٠٠ ــ ميسورى ٢٠٫٠٠٠ ــ نيو انجلاند ٢٠٫٠٠٠ ــ نيوجرسى ٣٠٫٠٠٠ ــ نيوميكسيكو ٢٠٫٠٠٠ ــ نيويورك ١٢٫٠٠٠ ــ اوهيو ٣٦٫٠٠٠ ــ أوكلاهوما ١٤٫٠٠٠ ــ بنسلفانيا ٢٠٫٠٠٠ ــ داكوتا الجنوبية ١٥٫٠٠٠ ــ تينيس ٢٠٫٠٠٠ ــ فرجينيا ١٨٫٠٠٠ ــ ولايات اخرى ٤٠٫٠٠٠ ــ المجموع = ٨٨٠٫٠٠٠ .

ان هؤلاء ال ٨٨٠ الف عربى يضاف اليهم مائة الف اخرون هاجروا الى الولايات المتحدة فى السنوات العشر الاخيرة . وبذلك يصبح العدد الاجمالى للمهاجرين العرب فى أمريكا حسب آخر احصاء هو ٩٨٠ الفا . أى انه من بين كل مائتى مواطن أمريكى الان . . سوف نجد مواطنا واحدا عربيا ، أو امريكيا من اصل عربى . . ان هؤلاء المهاجرين وصلوا الى أمريكا فى أربع موجات متتالية :

● **الموجة الاولى :** هم الذين تكلمنا عنهم فى بداية هذا الفصل ــ هؤلاء المزارعون أو التجار الفقراء الذين سافروا الى أمريكا حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . ان متوسط السن من مهاجرى تلك الموجة هو ٢٤ سنة ، و ٦٠٪ منهم كانوا غير متزوجين ، وعندما تزوجوا فان ٨٨٪ منهم جاءوا بزوجاتهم من قراهم الاصلية .

● **الموجة الثانية :** هم الذين هاجروا الى أمريكا بين سنتى ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ . وهؤلاء يتكونون اساسا من ابناء فلسطين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة تحت ضغط الازمة الاقتصادية التى

نشأت من بداية سيطرة اليهود على كثير من قطاعات الاقتصاد فى فلسطين بالاضافة الى قطاعات كبيرة من اقارب المهاجرين اللبنانيين والسوريين الاوائل . وهذه الموجة بدأت تشهد تحول المهاجرين من مجرد عمال .. الى اشخاص ينتمون الى الطبقة المتوسطة .

● **الموجة الثالثة** : بدأت تصل الى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٧ . وفى هذه المرة أصبح الفلسطينيون اغلبية فى هذه الموجة من المهاجرين . لقد كان هذا يرجع الى المأساة التى قامت بها الحركة الصهيونية عندما طردت وشردت اكثر من مليون فلسطينى من بلادهم ..

ويضاف الى ذلك ان هـذه الموجـة بدأت تضم ايضا عددا من الاردنيين والمصريين ـ الان يوجد مصريون لاول مرة ـ ذهبـوا الى الولايات المتحدة للعمل او التدريس والتدريب والتعليم .. ثم اختاروا البقاء . معنى ذلك أن هـذه الموجـة تقف على طرف نقيض مع الموجة الاولى .. فبينما حملت الموجة الاولى مهاجرين غير متعلمين ، حملت هذه الموجة مهاجرين متعلمين اساسا . وبينما استقر المهاجرون الاوائل فى أعمال التجارة المتجولة ، او الزراعة .. فان هذه الموجة اتجهت الى التبعثر فى المدن الكبرى بولايات امريكا .. لانها عملت بالتدريس او المهن الفنيـة المتخصصة فى انحاء امريكا .. وابتداء من هذه الموجـة فقط .. اصبح من النادر الآن ان نرى جامعة امريكية أو حتى كلية .. بغير عضو عربى فى هيئة التدريس .. او حتى مجرد طلبـة فى الدراسات العليا ..

● **الموجة الرابعة** : بدأت منـذ عام ١٩٥٧ ، وطوال السنوات العشر التالية . فى تلك الفترة هاجر الى الولايات المتحدة سبعون الف عربى ، يضاف اليهم ثلاثون الفا منذ سنة ١٩٦٧ .. حيث ساعد قانون الهجرة الامريكى الجديد الذى صدر فى اول يوليو ١٩٦٨ على ان يقوم كثير من الامريكيين ذوى الاصل العربى بجلب اقاربهم كمهاجرين .

ومرة اخرى نجد ان هذه الموجة يغلب عليها ـ اكثر من اى موجة سابقة ـ النموذج العربى المتعلم ، المتخصص المدرب . ونلاحظ ايضا انها تضم نسبة كبرى من المصريين الذين ذهبوا الى هناك ـ بحكم تعليمهم ـ ليصبحوا اساتذة فى الجامعـات او اطبـاء او مهندسين او فنيين . وبعضهم احرز شهرة واسعة فى مجال عمله خلال سنوات قليلة من وصوله .

وسوف نلاحظ ايضا ان تمتع المهاجرين فى هذه الموجة بكفاءات

تعليمية عالية ومتخصصة ، قد وضعهم فى مركز قوة افضل .. من حيث القدرة على المساومة والحصول على فرص احسن او اسواق العمل بالولايات المتحدة .

وتستطيع ان تخرج من الموجات السابقة ايضا بأن المهاجرين العرب المقيمون فى الولايات المتحدة الان يمكن تقسيمهم بشكل آخر:

● اولا : هناك مهاجرون منذ وقت طويل ـ يمثلون ثلاثة اجيال جدودا وآباء وابناء . وهؤلاء سوريون ولبنانيون فى نسبتهم الكبرى ..

● وثانيا : هناك مهاجرون منذ وقت قريب نسبيا ذهبوا يبحثون عن العمل والاستقرار المعيشى ، ومعظمهم من الفلسطينيين والمصريين وبعض العراقيين والاردنيين .

ومن الطبيعى ان ينحصر كلامنا هنا عن القسم الاول ، أى المهاجرون الذين يرجع اصلهم فى البداية الى لبنان او سوريا .. فؤلاء هم الذين تكلمنا عنهم من البداية ، وهم الذين يمكن أن نتابع النتائج التى حققوها حتى الان .. كمهاجرين ، وهم الذين نستطيع مقارنتهم فى النهاية بالمهاجرين الحديثين ، الذين وصلوا الى امريكا منذ مطلع الخمسينات .

اننا سوف نلاحظ اولا ان المشكلة الاولى للجيل الاول من المهاجرين اللبنانيين والسوريين كانت هى التكيف مع هذا المجتمع الجديد ابتداء من الصفر ، ابتداء من مجرد فهم اللغة الانجليزية نفسها . الان اختفت هذه المشكلة من الجيل الثانى ، جيل الابناء الذى ولد متجنسا بالجنسية الامريكية .

وسوف نلاحظ ايضا انه بعد أن كان الجيل الاول يتكلم اللغة العربية ويجهل الانجليزية ، اصبح الجيل الثانى ـ جيل الابناء الذين ولدوا بامريكا ـ يتكلم الانجليزية ويجهل العربية . ان ٢٠٪ من هذا الجيل الثانى ، و ٧١٪ من ابنائه .. لايفهمون ولا يتكلمون ولا يكتبون اللغة العربية .

وهنا سوف نضع ايدينا على ظاهرة غريبة . ان هذا الجيل الحالى من الابناء اكثر ارتباطا مع تاريخ وتراث واهتمامات امته العربية ، مما كان عليه آباؤه الذين هاجروا فى البداية . انها ظاهرة لاحظتها اكثر من مرة فى امريكا ، رغم ان الاباء كانوا اقرب الى تاريخ بلادهم العربية من ابنائهم . ورغم ان الابناء يجهلون حتى الحديث باللغة العربية . ولكن وجه الغرابة يختفى عندما نعلم ان الجيل الاول كان اكثر اهتماما بتوفير الطعام منه بمتابعة قضايا بلده .. حكم اضطرارى . كما اننا بالاضافة الى ذلك سوف نجد مثيلا لهذه

الظاهرة من الجيل الثالث للمهاجرين الالمان او اليابانيين فى امريكا خلال سنوات الثلاثينات والاربعينات .

ولو نظرنا الى هذا الجيل الحالى من المهاجرين ذوى الاصل اللبنانى أو السورى ـ فى مقارنة مع الجيل الاول من ابائه واجداده الذين جاءوا الى امريكا قبل نهاية القرن التاسع عشر او فى مطلع القرن العشرين .. فاننا سوف نضع ايدينا فورا على اختلافات رئيسية بين النموذجين .. اوجه اختلاف . .واجه تشابه ايضا .

فالمواطن الامريكى الحالى .. صاحب الاصل اللبنانى اوالسورى .. هو شخص يتحول تدريجا الى الاعمال المتخصصة التى تحتاج الى كفاءات اكبر وتعليم اطول .. هذا خلاف . ولكنه مازال من ناحية اخرى يفضل أن يكون هو صاحب العمل وليس مجرد مستخدم . هذا استمرار . انه اذا لم يكن صاحب عمل .. فانه يسعى ليكون كذلك غدا . لهذا نجده الان قد اصبح فعلا ـ او هو فى طريقه الى ان يكون ـ صاحب راس المال فى الا عقارات، مشروعات التامين ، الحلاقة ، الغسيل ، ومحطات الخدمة . . .

انه الان ـ بعكس جده او ابيه ـ متعلم . فى الواقع ان تعليمه كان رد فعل للمشكلة التى واجهها جده وابوه . لقد انشغل ابوه عن التعليم فى البداية بمشكلة اكثر الحاحا ، وهى مجرد البقاء حيا .. وعندما احس الاب بان عدم التعليم يحصره فى مجال اختيار محدود للغاية .. أصر على تعليم ابنه حتى النهاية .. وبينما كان الاب ينفق معظم امواله على الطعام والملبس والمسكن ، فان الابن الحالى اصبح لديه مايسمح له بشراء اسهم والمضاربة فى البورصة والادخار لشراء منزل .. وبينما كان جده مشغولا بالحياة ، وكان ابوه مشغولا بالحياة السعيدة ، اصبح الابن مشغولا بالحياة مع الثروة .. لقد كان جده يتكلم العربية ويجهل الانجليزية ويفهم العربية، اما هو فانه الان يتكلم الانجليزية بطلاقة طبعا ـ ويتكلم الفرنسية ايضا ـ ولكنه لايتكلم العربية ولايفهمها .. انه الان ياكل الهامبرجرا الامريكى والسجق .. ولكنه فى المنزل يفضل الطعام العربى كل يوم احد . ان مايمنع زوجته من تقدم الطعام العربى كل يوم هو الوقت الضيق . ومع ذلك .. فانه حتى فى الايام العادية .. سوف تجده .. يتناول الطعام الامريكى فى منزله . بعد اجراء التحسينات العربية عليه ، وبعد ان يحجز مكانا على مائدته لطبق من الكبيبة اللبنانية ..

انه الان يستمع الى موسيقى الجاز خارج منزله والى فيروز ـ مع انه لا يفهمها ـ داخل منزله . انه يرقص التانجو كل اسبوع

. . والدبكة كل شهر . ان برامجه المفضلة فى التليفزيون هى الاستعراضات والرياضة والاخبار وبعض البرامج السياسية . انه مع الحزب الجمهورى بمحفظته ، ومع الحزب الديموقراطى بعواطف والده الذى راى سنوات الكساد العظيم . ان غريزة الملكية فى داخله اقوى ما يكن . . جزئيا بسبب الرغبة فى الامن . . وجزئيا بسبب الامل فى الثروة . انه مؤمن فى الاقتصاد بمبدأ «دعه يعمل» . وفى السياسة بمبدأ « دعه يتكلم» . وفى المسكن بمبدأ « دعه يرفع الايجار » . . لانه هو شخصيا مالك لمنزل . ان كل زملائه امريكيون ، ومعظم اصدقائه لبنانيون ، وبعض جيرانه مصريون . انه يكره الفقر لانه لم يحصل على الترقية من الطبقة العاملة الا مؤخرا . وبينما بدأ جده حياته فى امريكا عاملا ، اصبح ابوه متوسطا ، وهو الآن يحاول ان يحتفظ بمكانه فوق الطبقة المتوسطة . ان احدى عينيه تتطلع الى قمة الجبل، والعين الاخرى تفزع من العودة الى السطح .

× × ×

هذا هو المواطن الامريكى ذو الأصل اللبنانى السورى . . الذى اصبح اليوم نتيجة حية لتلك الموجات الاولى من المهاجرين العرب، التى ذهبت الى امريكا قبل نهاية القرن التاسع عشر ومع بداية القرن العشرين . هذا هو المواطن الذى اصبح يمثل الآن ــ بعد ان لحق به مؤخرا مصريون وعراقيون وفلسطينيون واردنيون ــ مليون مواطن فى امريكا .

والسؤال الآن : لماذا اذن لا نسمع عن نشاط مؤثر لهذا العدد الضخم الموجود فعلا داخل امريكا كمواطنين أمريكيين ؟ لماذا لا نسمع عن ضغط سياسى فعال لهذه الأقلية العربية الأمريكية ، يتساوى على الاقل مع ما تمارسه كل اقلية اخرى داخل دهاليز السياسة الامريكية ؟

ولكى يكون الأمر مفهوما . . فلابد ان اقرر مبدئيا ان الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٧ ، ثم حرب ١٩٦٧ قد ادت الهزيمة العربية فيهما الى اذلال كل عربى فى امريكا بشكل مفزع ومريع . ان هذا يبدو اكثر وضوحا ، واكثر الما ايضا ، خصوصا بعد النكسة المروعة التى وقعت للعرب امام اسرائيل فى تلك الأيام السوداء من سنة ١٩٦٧ . ان هذه الهزيمة قد جعلت هؤلاء المهاجرين ينقسمون فى ردود فعلهم الى قسمين :

القسم الأول : وهو الاقلية . . يتكون من هؤلاء الذين راوا فى الموضوع كله مجرد هزيمة عربية لا يمكن تبريرها ولا تفسيرها .

ان مصادرهم الرئيسية فى المعلومات عنها وعن الاسابيع السابقة عليها تعتمد على الصحف الامريكية والتليفزيون الامريكى ــ وهذا القسم كان رد فعله السلبى هو التنكر مطلقا لأصله العربى .

القسم الثانى : وهو الأغلبية . . لم ير الهزيمة كمجرد مواجهة عسكرية تمت بين العرب واسرائيل ، ولكنه راى أيضا الدور الأمريكى السابق واللاحق فى تأييد الوجود الاسرائيلى . ولقد كان رد فعل هذه الأغلبية هو فقدان الثقة فى صحة السياسة الأمريكية بالشرق الأوسط واهتزاز ايمانهم بصحة تمشى هذه السياسة مع المصالح الحقيقية لامريكا فى الشرق الأوسط . ان هذه الأغلبية هى التى بدأت تعطى مجهودها لشرح وتفسير حقيقة الموقف فى الشرق الاوسط للراى العام الامريكى ، وبدأت ايضا توفر قاعدة مبدئية تعمل منها المقاومة الفلسطينية لابراز الشخصية الفلسطينية فى مواجهة الاحتلال الاسرائيلى . مواجهة تبدو على حقيقتها لأول مرة .

وقد بدأ هذا النشاط يصب فى تنظيمات جديدة تتكون ، أو منظمات سابقة اعيدت اليها الحياة . انها منظمات تضم شخصيات امريكية واعية ، بالاضافة الى اعتمادها على الوجود العربى فى أمريكا .

ولكن . . يثور السؤال مرة اخرى : لماذا لم تستطع كل هذه التنظيمات ، على امتداد السنوات السابقة ، ان تخلق فعلا اتجاهات مؤثرة فى الراى العام الأمريكى ؟ لماذا ــ برغم هذه التنظيمات ــ لم تستطع الاقلية العربية فى امريكا ان تباشر ضغوطا كالتى تباشرها الأقلية اليهودية هناك ؟ لماذا ــ على الاقل ــ لم تنظم حركات احتجاج ضد وسائل الاعلان كالتى نظمها الايطاليون مثلا ضد برامج التليفزيون التى تصورهم كمجرمين ؟

ان مثل هذه الضغوط ــ مثل هذه الجهود لشرح الحقائق ــ لا تبدأ من الصفر هناك ، فهناك هذا المليون عربى . وهى لا تبدأ من القاع . . فالأساتذة العرب موجودون فى كل الجامعات والفنيون العرب يعملون فى معظم المجالات التى لم يعمل فيها آباؤهم . ان الاعداد والامكانيات البشرية متوافرة اذن . . ومع ذلك فانها لم تنتظم حتى الآن بشكل مرض على الاطلاق . هذه هى المشكلة التى لم تحل حتى الآن مع انها لو تم حلها . . لاستطاعت ان تحقق نتائج خيالية . يكفى انها تستطيع ان تقدم الوجه الحقيقى للقضية العربية . . الى مجتمع لا توجد فيه اغلبية . مجتمع اغلبيته هى مجموعة الأقليات التى تعيش فى داخله ! .

الفصل الحادى عشر :

عودة إلى المصريين :
فنان بلا أبواب !



جرسي سيتي .. هي مجرد مدينة امريكية تبعد عن نيويورك ٤٥ دقيقة بالسيارة .ولان المساكن غالية فى نيويورك .. وارخص قليلا فى خارج نيويورك .. فان عددا من المصريين المهاجرين العاملين بنيويورك يختارون مساكنهم فى جرسي سيتي ..

وعندما بدا المصريون يتوافدون بكثرة على تلك المدينة الامريكية — جرسي سيتي — بداوا يحسون انهم اصبحوا يشكلون جالية يتزايد عددها يوما بعد يوم . وعندما فكرت هذه الجالية المصرية فى تنظيم نشاطها الاجتماعى والروحى بدات تسدد الحساب . ان اول فاتورة تلقتها الجالية المصرية فى جرسي سيتي كانت تحمل رقما بسيطا : ثلاثين الف دولار . هذا هو المبلغ الذى كان يجب

على الجالية المصرية فى جرسى سيتى ان تسدده خلال اسبوعين .
و . . فعلا . فى خلال اسبوعين سددت الجالية المصرية فاتورة الحساب . سددت الثلاثين الف دولار . . من مجرد التبرعات التى جمعها المصريون فى جرسى سيتى من بعضهم البعض .
ان هذا المبلغ كان ثمن شراء كنيسة جرسى سيتى . كنيسة ساهم المصريون المهاجرون بنيويورك وجرسى سيتى ـ مسيحيين ومسلمين ـ فى التبرع لشرائها . انها تقع الآن فى ٤٢٧ ويست سايد افينيو بجرسى سيتى . انها اصبحت اول كنيسة قبطية يملكها المصريون فى امريكا واوربا معا . انها ليست مجرد كنيسة يشتريها المصريون لممارسة نشاطهم الدينى . . ولكنهم اشتروها لتكون فوق هذا مركزا لنشاط وطنى واجتماعى . . ومركزا لمساعدة المهاجرين الجدد ايضا . .

وعندما ذهبت لأزور هذه الكنيسة فى جرسى سيتى . . قابلت هناك الدكتور ماهر كمل ـ ٥٢ سنة ـ الذى يساهم بصفة اساسية فى ادارة الكنيسة الجديدة ، بعد ان يفرغ من عمله اليومى كعميد لمعهد شئون الشرق الأوسط فى جامعة جرسى سيتى . وفى المرات العديدة التى قابلت فيها الدكتور ماهر كان يقول لى :

« . . اننا كنا نريد شراء هذه الكنيسة اصلا فى مدينة نيويورك . ولكن كل الكنائس التى رأيناها لا يقل ثمن الواحدة عن مليون دولار . رقم مازال اعلى كثيرا من امكانياتنا كمهاجرين مصريين حديثين فى امريكا . .

« . . ولأن مدينة جرسى سيتى تعتبر عمليا ضاحية من ضواحى نيويورك . . فان البديل التالى كان هو البحث عن كنيسة هنا نشتريها لتخدم المصريين المقيمين فى نيويورك وجرسى سيتى معا .

« . . فى البداية وجدنا ان الثمن الأصلى لهذه الكنيسة هو ١١٠ الاف دولار ، بالاضافة الى التجهيزات الأخرى المزودة بها . . ولكننا عندما تفاوضنا معهم هنا عرضوا علينا بيعها لنا بستين الف دولار .

« . . فى الحقيقة نحن وافقنا على هذا السعر المنخفض ـ ٦٠ الفا ـ ولكنهم كانوا كرماء معنا للغاية عندما علموا اننا ما نزال جالية حديثة فى امريكا ، واننا فى اشد الحاجة لهذه الكنيسة . لهذا استطعنا فى اللحظة الأخيرة أن نشتريها بثلاثين الف دولار فقط . . اننا استطعنا ان نجمع هذا المبلغ من التبرعات التى قدمها المصريون المهاجرون هنا فى جرسى سيتى وفى نيويورك . . وعندما اقول المصريين هنا فاننى أقصد المسيحين والمسلمين . .

فلقد تبرع لشراء الكنيسة عدد كبير أيضا من الاخوة المصريين، المسلمين هنا فى جرسى سيتى . ولم تكن التبرعات تقتصر على النقود فقط . . وانما امتدت الى التبرعات العينية أيضا . ان احدى السيدات المصريات مثلا تبرعت بخاتم من الماس كانت تحتفظ به كهدية من زوجها .

« . . انك اذا كنت تتصور أن الثلاثين الف دولار هى مبلغ ضخم بالنسبة لحداثة هجرتنا الى امريكا . . فمن الضرورى أن تعرف أن عددنا ضخم أيضا . . فحسب آخر احصائية رسمية حصلنا عليها من ادارة الهجرة هنا . . نجد ان عدد العائلات المصرية فى مدينتى نيويورك وجرسى سيتى وصل فى العام الماضى الى ثمانية آلاف عائلة . واذا اعتبرنا ان كل عائلة تتكون من ثلاثة أفراد فقط ـ المهاجر وزوجته وابن واحد لهما ـ فان معنى ذلك انه يوجد هنا ٢٤ الف مصرى . . يعيشون فى مدينتى نيويورك وجرسى سيتى وحدهما » .

× × ×

والواقع ان المصريين فى امريكا اصبحوا يشكلون الآن واحدة من اسرع الجاليات نموا . . رغم انهم يعتبرون ايضا من احدث الجنسيات التى هاجرت الى امريكا . .

ان الدكتور ماهر كامل نفسه هو واحد من هؤلاء المصريين المهاجرين الى امريكا . وبالاضافة الى ذلك فانه واحد من ثلاثة فقط فى امريكا كلها الذين حصلوا على الدكتوراه مرتين فى الآداب والعلوم معا . ان الدكتوراه الاولى حصل عليها فى علم نفس الطفل من جامعة رينى بفرنسا . . والثانية حصل عليها من جامعة لوزان بسويسرا .

ان آخر عمل شغله الدكتور ماهر هو رئيس لقسم الفلسفة بكلية المعلمين . لقد ظل كذلك الى اليوم الذى سافر فيه الى أمريكا منذ ١٢ سنة . لقد عمل أولا استاذا مساعدا فى جامعة جرسى سيتى . . وظل يترقى فى عمله الى ان اصبح الآن عميدا للمواد الاجتماعية ورئيسا لقسم الاجتماع ومديرا لمعهد شئون الشرق الاوسط فى الجامعة نفسها . معهد يلتحق به الحاصلون على البكالوريوس على الأقل . . لكى يحصلوا منه على الماجستير فى شئون الشرق الأوسط .

ولان الدكتور ماهر كامل يمثل نموذجا مشرفا من المهاجرين المصريين فى امريكا . . ولانه من ناحية اخرى رجل جامعى ، ثم له من ناحية ثالثة نشاط اجتماعى واسع بين المهاجرين المصريين . .

فقد دارت بيني وبينه مناقشات كثيرة عن اسباب النجاح والفشل بالنسبة للمهاجر المصرى الجديد فى امريكا .

وعندما زارني الدكتور ماهر مرة فى غرفتى التى اقيم بها فى نيويورك سألته : ما هى احتمالات تعطل المهاجر الذى يعمل فعلا فى امريكا ؟

وقال الدكتور ماهر : من الضرورى ان تعلم مبدئيا انه يوجد فى امريكا عمال عاطلون يزيد عددهم عن خمسة ملايين . . ولكن رغم ذلك فان هذا العدد لا قيمة له فى دولة يزيد عددها عن مائتى مليون . ثم انه بعد ذلك عدد يمثل كبار السن والمصابين بأمراض نفسية او عصبية او المدمنين على الخمر والمخدرات . . كما يشمل السيدات اللاتى يتوقفن عن العمل بسبب الحمل او المدة الأولى من الأمومة . وفيما عدا ذلك فان كل شخص فى امريكا ــ رجلا كان او امرأة ــ له دخل خاص . . ويعتبر عضوا عاملا منتجا وليس عالة على المجتمع الامريكى . فاذا تعطل عن العمل لأى سبب اصبحت مسئولية المجتمع ان ينفق عليه الحد الادنى اللازم للحياة عن طريق التأمين الاجتماعى . انما اقول هذا كله لاننى اريد ان يكون الشخص المهاجر على استعداد سيكولوجى لمواجهة اية مصاعب تطرأ على حياته بعد هجرته .

قلت للدكتور ماهر : هل الشهادات تمثل عاملا هاما فى خلق الاحساس بالأمن لدى المهاجر القادم الى هنا ؟

ولكنه اجاب بسرعة : ان شهادة البكالوريوس او الليسانس مثلا لا تزيد قيمتها بالنسبة للمجتمع الامريكى عن شهادة الاعدادية . ومهما كانت سن الشخص او خبرته فانه هنا يجب ان يواصل الدراسة فى الجامعات . وكم من مرة كان يوم محاضراتى افراد تزيد سنهم عن السبعين . . ويؤدون جميع الواجبات والتقارير والامتحانات جنبا الى جنب وبنفس الحماس الذى يتمتع به طالب او طالبة فى العشرين مثلا . لهذا يجب الا يعتبر المهاجر ابدا ان الليسانس او البكالوريوس هو آخر المطاف بالنسبة له . . بل اننى اذهب الى ابعد من هذا . فهناك اعمال وتخصصات يستطيع ان يلقى صاحبها نجاحا اسرع من غيره . ولهذا ينبغى ان يكون الشخص المهاجر على استعداد لتغيير تخصصه وان يعمل فى ميادين اخرى غير ما يحب او ينوى . . وان يكون على استعداد لتعلم ما تستلزمه الاعمال الجديدة من خبرات . فمثلك المحامى مثلا . . ماذا يستطيع ان يعمل اذا نظرنا اليه على انه رجل تخصص فى القانون المصرى، سواء القانون المدنى او الجنائى . . الخ ؟ ان

القانون هنا يختلف عن المصرى ، ونظام المحاكم مختلف ، واللغة المستخدمة مختلفة . لابد اذن على مثل هذا الشخص المحلى ان يكون مستعدا قبل هجرته الى تغيير خبراته واتجاه تفكيره وعمله . انه يستطيع مثلا أن يدرس علم المكتبات والحصول على الماجستير فى المكتبات مع التخصص القانونى ، او يستطيع دراسة التصدير والاستيراد الدولى والقوانين الخاصة به والاجراءات الجمركية المرتبطة بهذه العمليات . . او يستطيع اذا سمحت الظروف واصر على أن يظل محاميا ـ ان يدرس أربع سنوات ليتخرج كمحام امريكى ، لان كلية القانون هنا تدرس ثمانى سنوات وليست اربعا كما فى مصر . وكذلك يمكنه ايضا ان يدرس ويتدرب على أعمال البنوك والشركات المختلفة . . وينسى اطلاقا تكوين القانون . وهكذا توجد ميادين كثيرة تبعد عن خبرة المحامى السابقة كأعمال السياحة او الأعمال الفنية او التصوير أو دراسة العقول الالكترونية والتخصص فى اعداد المناهج الخاصة بها الشركات المختلفة .

قلت للدكتور ماهر : هذا عن خريج الحقوق . . لماذا لا تستمر فى الامثلة ؟ لماذا لا تتحدث مثلا عن خريج كلية الزراعة ؟

قال الرجل : اذا نظرنا الى خريج كلية الزراعة . . فيجب ان يعرف مقدما ان الزراعة فى امريكا تمارسها عادة شركات كبيرة جدا على مستوى الاف الافدنة ، موجودة فى وسط امريكا . اما الولايات الشرقية مثل نيويورك أو نيوجرسى مثلا فانها ـ رغم اتساعها ـ تهتم اساسا بالصناعة ، ولهذا اتجهت كليات الزراعة فيها الى التخصص فى الكيمياء العضوية . وبهذا يصبح خريج الزراعة رجلا كيميائيا يستطيع العمل فى مصانع الادوية ومعامل المبيدات الحشرية والنواحى المختلفة من الانتاج الصناعى الكيميائى مثل التجميل او انتاج الشعر الصناعى او الاقمشة الكيميائية أو البلاستيك بصناعاته المتعددة او فى معامل ابحاث الصناعات المختلفة . . الخ .

ثم يلاحظ الدكتور ماهر كامل أن هناك بعض الدراسات التى لا توجد فى الجامعات المصرية . . بينما خريجوها يحصلون على فرص ضخمة بمرتبات كبيرة . من هذه الدراسات مثلا دراسة علم الفنادق . . وهى دراسة جامعية عالية يقبل فيها الطالب هنا ـ فى امريكا ـ بعد حصوله على البكالوريوس ـ ويتخصص فيها للماجستير او الدكتوراه . ومن المفيد لمن يدرس هذا التخصص ان يجيد عددا من اللغات الاجنبية الحديثة وعلم الاجتماع والعلاقات الانسانية . . مع الالمام بادارة الاعمال والاقتصاد .

ويقول الدكتور ماهر : انه يوجد فى أمريكا مهاجرة مصرية واحدة استطاعت الحصول على الماجستير فى الفنادق وهى تعمل الآن نائبة المدير العام لاحد الفنادق الامريكيـة الكبرى (على فكرة والد هذه الفتاة المصرية الناجحة يعمل حاليا استاذا بكليـة هندسة جامعة القاهرة) .

ومن الذين يواجهون صعوبات بعد هجرتهم ـ كمـا يلاحظ الدكتور ماهر ـ خريجو العلوم السياسية .. وهذه الصعوبة قائمة حتى بالنسبة للامريكيين انفسهم . اما خـريجو الهندسة فينجحون اذا كانوا متخصصين فى الكهرباء والميكانيكا .. بينما يواجهون الصعوبات فى البداية اذا كانوا متخصصين فى العمارة .. لان هندسة العمارة فى امريكا مختلفة الى حـد كبير جدا عنها فى مصر .

× × ×

ولقد نسيت بعد هذا كله ان اقول ان الدكتور ماهر كامل هو فى الواقع اكثر من مجرد عميد لمعهد شئون الشرق الاوسط بجامعة جرسى سيتى . انه « عمدة » اكثر منه عميد . عمدة للمصريين المهاجرين المقيمين فى جرسى ستى . انه يعيش هناك مع ولديه وزوجته التى تعمل استاذة لعلم النفس بجامعة نيوآرك . ان واحداً من ولديه ـ رءوف ـ مازال طالبا فى كلية طب جامعة كورنيل . وقبل ان يصل رءوف الى سنته السابعة ـ التى يدرس فيها حاليا ـ كان أول دفعته فى بكالوريوس العلوم .. ومع ذلك فان هذا لم يمنعه من أن يمارس هوايته المفضلة .. البنج بنج . فى هذه اللعبـة مثل رءوف امريكا ضمن فريقها فى بطولة العالم ... واستطاع ان يفوز بالمركز الثانى فى تلك البطولة العالميـة . اما الابن الاخر الدكتور فقد تخرج منذ سنتين فى كلية طب كورنيل أيضـا ، ثم حصل على البكالوريوس فى العلوم العسكرية بالاضـافة الى شهاداته الطبية .

× × ×

والدكتور ماهر ليس هو المصرى الوحيد البارز فى الجامعات الامريكية . فى الواقع أن هناك عشرات غيره من المصريين الذين اصبحوا يتمتعون بسمعة علمية طيبة داخل الجامعات الامريكية . عشرات قابلتهم ، وعشرات سمعت عنهم .

من الذين سمعت عنهم مثلا .. الدكتور **محمد الوكيل** ، وهم يعتبرونه من انبغ الاسـاتذة الجـامعيين الذين تخصصوا فى استخدامات الطاقة الذرية . وفى معظم المؤتمرات التى تجـرى

لبحث استخدامات الطاقة الذرية .. سوف نرى كتب الدكتور الوكيل وآراءه مصدرا هاما يرجع اليه العلماء من جنسيات متعددة

وهناك ايضا المهندس **ابراهيم خليفة** الذى يعمل الآن نائبا لرئيس مجلس ادارة شركة فيليبس دوتش وهى اكبر الشركات المنتجة لمعدات مصانع الاسمدة والكيماويات .. والمهندس محمود الطاهرى الذى يعمل مديرا لشركة اخرى من اكبر شركات تكييف الهواء ، والدكتور مصطفى العجيزى — واحد من ابرز خبراء بحوث العمليات فى شركة آى . بى . ام . للعقول الالكترونية ، والدكتور هارون محروس الذى يعمل حاليا رئيسا لقسم الهندسة الكهربائية فى معهد « برات » .. من اكبر المعاهد الهندسية فى شرق امريكا .

ولو عدنا الى اساتذة الجامعات فمن النادر — كما سبق ان اشرت — ان نجد جامعة امريكية بغير استاذ عربى .. او مصرى بالذات . عندك مثلا الدكتورعزيز سوريال عطية الذى يدير الان معهد دراسات الشرق الاوسط بجامعة « يوتا » ان الجامعة — بعد ان نشر الدكتور عزيز عدة كتب هامة باللغة الانجليزية — قررت ان تطلق اسمه على مكتبتها الضخمة فاصبحت تسمى الان « **مكتبة عزيز عطية** » . وعندك ايضا الدكتور **سامى بولس** رئيس قسم التربية بجامعة نيويورك الحكومية فى « نيو بولز » بولاية نيويورك .. والدكتور **عصمت الصايرجى** — من ابرز اساتذة جامعة سبرنجفيلد .. والدكتور **حامد كمال الدين** الاستاذ بجامعة اوكلاهوما .. والدكتور **عباس يسرى** الاستاذ بجامعة سنسناتى فى اوهايو .. والدكتور **سابا حبشى** الاستاذ بكلية حقوق جامعة كولومبيا الذى اهدته الجامعة درجة الدكتوراه الفخرية بعد ان حقق نجاحا كبيرا هناك .

وهناك .. وهناك .. اسماء كثيرة لامعة من المصريين الذين لمعوا هناك رغم الصعوبات الكثيرة أو القليلة التى واجهها كل منهم فى البداية .

ولو حسبنا مدى الفائدة التى تعود علينا من وجود استاذ مصرى فى جامعة اجنبية — مجرد وجوده — فسوف نجد انها اكبر كثيرا مما نتوقع . فنحن من غير أن يتكلم هذا المصرى المثقف فى السياسة .. وبدون ان يضع نفسه وشعبه فى موقف الدفاع .. فان مجرد وجوده .. مجرد ثقافته .. مجرد بروزه علميا .. هو احسن اعلان متحرك عن حضارة الشعب الذى ينتمى اليه انى استطيع أن اضرب على ذلك عشرات من الامثلة للاساتذة

المصريين اللذين قابلتهم فى امريكا . ولكننى سوف اختار نماذج قليلة اقدمها كمجرد اختيار شخصى ..

فلو بدات — مثلا — بالدكتور **رجائى الملاخ** — ذلك الاستاذ المصرى البارز فى الاقتصاد بجامعة كولورادو فسوف اقول فورا: ان رجائى ذهب الى امريكا كمجرد طالب يدرس الماجستير منذ عشرين سنة . وعندما تفوق رجائى فى الماجستير اعطته الجامعة منحة لدراسة الدكتوراه .. الى ان حصل عليها فى الاقتصاد من جامعة رادجارز فى نيوجرسى . ومنذ سنة ١٩٥٦ اصبح الدكتور رجائى استاذا للاقتصاد فى جامعة كولورادو .. ورئيسا لقسم دراسات الشرق الاوسط وافريقيا بنفس الجامعة . ولاول مرة قرر الملاخ — بعد مجهود كبير — ادخال اللغة العربية كمادة اختيارية يدرسها كل من يعد دراسات جديدة عن الشرق الاوسط وتاريخه .

وعندما نشبت ازمة تاميم قناة السويس سنة١٩٥٦ كان اول بحث علمى ينشر فى امريكا مفسرا وجهة نظرنا فى الموضوع .. هو البحث الذى نشره الدكتور رجائى فى جريدة الشرق الاوسط بجامعة كولورادو . وبعدها ايضا نشر اول بحث مماثل عن السد العالى فى الجريدة الاقتصادية التى تصدرها جامعة اوسكانس . وبالاضافة الى ذلك فان اخر عمل كبير للملاخ هو الكتاب الذى نشره له مركز دراسات الشرق الاوسط فى جامعة شيكاغو .كتاب عن اقتصاديات الكويت ، واثنى عليه فى المقدمة يوجينى بلاك الرئيس السابق للبنك الدولى . ثم اصدر الملاخ كتابا اخر عن اهمية البترول العربى بالنسبة لاقتصاديات الولايات المتحدة ونشر فى بريطانيا وامريكا فى وقت واحد . والملاخ الان هو مؤسسة تعليمية عربية فى حد ذاته .. بعد ان تخرج على يديه فى الجامعة ٩٥ طالبا عربيا من بينهم ثمانية مصريين . وفى السنة الماضية وحدها نال اربعة دارسين مصريين درجة الدكتوراه فى الاقتصاد على يديه ..

وعندما تقابل الملاخ فسوف يقول لك على الفور : ان فى امريكا سبعة ملايين طالب بالجامعات والمعاهد العليا . انهم يمثلون عددا اكبر من سكان الكويت ولبنان والاردن وليبيا مجتمعة ومع ذلك فان الاعلام العربى لا يحاول مطلقا الوصول اليهم . انهم — الطلبة — هم اللذين عملوا على اقناع شعبهم بخطأ السياسة الامريكية فى فيتنام .. ومع ذلك فان جهة عربية واحدة لم تحاول

حتى الان ان تقيم علاقات فكرية لشرح قضايانا لهم . لا شيء مطلقا .. سوى المجهودات الفردية . وحتى حينما نعمل كأفراد على شرح حقيقة الموقف فى الشرق الاوسط لهم .. فاننـــا لا نجد المساعدة الكافية من اجهزة الاعلام العربية .. انى اتذكر ما حدث لى مرة فى سنة ١٩٦٨ عندما قرات مقالا معاديا للعرب فى الجريدة التى تصدرها الجامعة ويقراها ثلاثون الف طالب . وعندما اتصلت برئيس التحرير لاشرح له مدى انحياز المقال الى جانب اسرائيل ، قال لى انه يتلقى يوميا ثلاث نشرات على الاقل من منظمات صهيونية مختلفة تشرح له وجهة نظـر اسرائيل فى قضية الشرق الاوسط ، بينما لايتلقى اى شىء على الاطلاق يمثل وجهة النظر العربية .

وعند هذا الحد ــ يقول الملاخ ــ اتصلت بمدير مكتب الجامعة العربية فى نيويورك مكالمة طويلة من كلورادو . ورجوت المدير ان يرسل مطبوعاته ونشراته الى جريدة « كلورادو ديلى » .. التى تصدرها جامعة كلورادو . ولكن السـيد مدير مكتب الاعلام قال ان على الجريدة ان ترسل الى المكتب طلبا رسميا بذلك محددة فيه ما تطلبه بالتفصيل ــ والا فان المكتب لن يرسل اليها نشراته ــ كما لو كانت تلك نشرات سرية لا تصدر للتوزيع العام ! ولقد شعرت وقتها بالاسف الشديد لمثل هذا الاسلوب غير الاعلامى فى العمل الاعلامى . انه يتصور العمل الاعـــلامى عملا مكتبيا كل مهمته كتابة ملخص لاقوال الصحف . اسلوب لا يحاول مطلقـا الاتصال والنزول الى القطاعات المؤثرة فى الرأى العام الامريكى .. ليس هذا مع السبعة ملايين طالب فقط .. وانما مع الـ ٢٢ مليون اسود فى امريكا . ان هذا يحدث .. بالرغم من ان السـود والطلبة يمثلان قوتين ضخمتين ومتعاطفتين معنا داخل المجتمع الامريكى » .

× × ×

والواقع ان هذه الكلمات التى سمعتها من الدكتـــور رجائى الملاخ هى نفسها التى ســـمعتها من كل معظم المثقفين المصريين المهاجرين فى امريكا . وخصوصا اساتذة الجامعات منهم . ولقد كان من الامور المؤسفة مثلا ان ارى عددا كبيرا من ابرز الاساتذة المصريين فى الجامعات المصرية يدخلون مكتب الجامعة العربية فى نيويورك لاول مرة عندما دعاهم ابراهيم شكر الله .. مدير المكتب ــ الى اكثر من اجتماع لسماع وجهة نظرهم . لقد فوجئت ــ

وفوجىء ابراهيم نفسه ـ بانها اول مرة يتلقون فيها الدعوة من مسئول اعلامى عربى للاستماع اليهم ! ان واحدا من هؤلاء مثلا قال لى : « اننى احسست لاول مرة برابطة شخصية مع هذا المكتب عندما دخل معى الاخ ابراهيم شكر الله فى مناقشة علمية عن اليسار الجديد فى امريكا. هذه اول مرة احسست فيها اننى اتناقش مع خبير اعلام وليس مع موظف اعلام . خبير علمى يريد نتائج للنجاح .. وليس موظفا بيروقراطيا يبحث عن اعذار للفشل ». ان المتكلم هنا هو الدكتور محمد المصرانى استاذ ادارة الاعمال فى جامعة سان جون بنيويورك . ان الدكتور المصرانى هو نفسه نموذج آخر من نماذج النجاح بين المهاجرين المصريين فى امريكا . لقد بدأ حياته فى الاسكندرية كمجرد مدرس للغة الانجليزية ثم مأمور ضرائب وبعد ان ترك الضرائب وسافر الى امريكا .. حصل على الماجستير ثم الدكتوراه فى ادارة الاعمال .. حيث عمل بعدها استاذا مساعدا فى جامعة سان جون بدخل سنوى يصل الى ١٨ الف دولار ، وله كتاب ممتاز قررته الجامعة على طلبة الماجستير فى ادارة الاعمال .

ومع كثرة اعمال المصرانى .. فانها لم تمنعه من تأسيس « النادى الامريكى المصرى » فى مدينة نيويورك . ناد تأسس منذ اشهر قليلة فقط ، وبدأ بمائة عضو وهدفه تقديم المساعدات الاجتماعية المحدودة لاى مهاجر مصرى جديد . ومن خبرة الدكتور المصرانى ونشاطه بين المهاجرين المصريين فانه يقول : « ان اول مشكلة تواجه المصرى المهاجر هنا هى اللغة . انه يكتشف بعد حضوره انه لم يدرس اللغة الانجليزية بما فيه الكفاية . ونتيجة لذلك يكتشف أن عليه تدعيم دراسته فيها باحدى طريقتين .. اما الالتحاق ببرنامج خاص فى احدى الجامعات لمدة ستة اشهر بتكاليف تصل الى ستمائة دولار . طبعا هناك طريقة ثانية وهى الاعتماد على الممارسة العلمية .. انها طريقة اوفر .. ولكنها اطول زمنا ..

« .. ومع ذلك فاننى اعرف عددا كبيرا من المصريين الناجحين هنا وخصوصا فى مجالات الهندسة والطب والاقتصاد وادارة الاعمال والمحاسبة ! » .

× × ×

وفى مجال المحاسبة بالذات تستطيع ان تجد عددا كبيرا من الشبان المصريين الذين تخرجوا حديثا قبل هجرتهم بخمس

او ست سنوات على اكثر تقدير . من هؤلاء مثـــلا قابلت فى نيويورك شابا مصريا اسمه فاروق سلامة بشاى . ان فاروق بعد تخرجه من شعبة المحاسبة بتجارة القاهرة ـ عمل محاسبا بشركة الطيران العربية فى القاهرة ، ثم مراجع حسابات فى شركة القاهرة للملبوسات . وعندما هاجر فاروق الى امريكا منذ سنة ونصف سنة فقط كان عمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين وكانت زوجته تعمل مامورة ضرائب .. حيث تخرجت هى الاخرى من شعبة المحاسبة بتجارة القاهرة .

وقبل ان يقوم فاروق بالهجرة فعلا بعدة شهور بدأ ينفـذ مع زوجته تجربة جديدة . لقد قال لها : لماذا لا نجرب التحدث معا فى البيت باللغة الانجليزية منذ ساعة عودتنا من عملنا الى صباح اليوم التالى ؟ لماذا لا تنفذ ذلك كتجربة نطبقها بكل دقة لاجادة مستوانا فى اللغة قبل أن نهاجر فعلا ؟

وفعلا .. نفذ الزوجان هذه التجربة ، بالاضافة الى مراجعة وتنشيط معلوماتهما الدراسية .. والالتحاق ببرامج تعليميـــة جديدة فى المحاسبة واللغات .. الى ان هاجرا فعلا الى نيويورك . ان فاروق يعمل الآن مراجع حسابات بمرتب تسعة آلاف دولار سنويا فى شركة « ويلمارك سيرفيس سيستيم » وهى شركة للخدمات والتسويق . اما زوجته فهى الاخرى مراجعة حسابات فى هيئة رقابية على مصانع ملابس السيدات .

وخلال مناقشتى مع فاروق فى منزله بجرسى سيتى قال لى عدة ملاحظات منها مثلا : « .. اننى اكتشفت عند حضورى الى هنا ان ٧٥ ٪ من معـلوماتى عن الحيـــاة فى امريكا صحيحة والباقى خطأ » ..

« .. واكتشفت أيضا ان على ان اقوم انا بعمـل عـدد من التامينات الاجتماعية اللازمة لتحقيق نفس درجة الامن التى كنت اتمتع بها فى مصر . ان على مثلا ان اشترك فى نظام للتـامين الصحى ـ بالنسبة لى ولزوجتى وطفلتى ـ بمبلغ يصل الى ثلاثين دولارا فى الشهر بخلاف التامين الذى تدفعه شركتى بالنسـبة للعاملين بها . وبالاضـــافة الى ذلك فقد عملت بوليصة تأمين بعشرين الف دولار لحساب أسرتى .. وهى تكلفنى خمسين دولارا شهريا .

« .. واكتشفت أيضا ان رخصة قيادة السيارات التى كانت معى فى مصر قد افادتنى هنا اكثر مما افادتنى رخصة القيـادة

الدولية الى عملتها من نادى السيارات بالقاهرة . لقد ترجمت رخصة قيادتى فى القاهرة الى اللغـــة الانجليزية واعدتها من القنصلية الامريكية .. وبهذه الرخصة استطعت ان اتفادى اجراء الاختبار العملى عن القيادة الذى تشترطه كل ولاية هنـا . ان الاختبار التحريرى ضرورى مهما كان شأنك . ان الاختبار العملى الرسوب فيه معناه ان التحق باحدى مدارس التـدريب على قيادة السيارات هنا.. باشتراك يصل الى مائة وخمسين دولارا

× × ×

والواقع اننى لم اجد فى نيويورك كلها شخصا « محافظا » فى قيادته للسيارة اكثر من فاروق هذا . ان معه الحق .. فنظام المرور هنا دقيق .. والعقوبات صارمة . فعندما يزيد معدل مخالفاتك عن نقطة معينة يسحبون منك رخصة القيادة نهائيـا ولا تستطيع الحصول على رخصة جديدة الا اذا انتقلت الى ولاية جديدة . ان هذا التشدد ضرورى لمنع تزايد معدل حـــوادث السيارات هنا . معدل وصل الى ١٥ مليون حادث فى العام الماضى فقط . رقم كان يكرره لنا فاروق كلما ركبنا ــ امير سابا وانا ــ فى سيارته الفولكس فاجن ذاهبين الى جرسى سيتى او عائدين الى نيويورك او متجهين الى المكتب الترانستور لشركة الطيران العربية .

فى هذا المكتب ــ مكتب الطيران العربية ــ تستطيع ان تلتقى بشخصية ملفتة : عبد العزيز عيد .. المدير النشيط للمكتب وسميحة ثورة الموظفة المصرية المؤقتة هناك . ان عبد العزيز ليس مهاجرا ولكن سميحة هى مهاجرة بشكل ما .

ان سميحة ــ فتاة طويلة رشـيـقة واسعة العينين تدرس المسرح فى نيويورك وتعمل مؤقتا كموظفة محلية فى الطيران العربية وتقيم مع أختها الشابة الاخرى ــ نادية ــ فى شقق الحى الشرقى من مانهاتن فى نيويورك . شقة ايجارها مائتا دولار شـهريا .

انهما أول فتاتين مصريتين اراهما فى امريكا كمهاجرتين . انهما تمثلان فى رايى ــ بعد نادية التى رايتها فى مونتريال بكندا ــ أول نماذج للفتاة المصرية التى تجتاز الحدود وتهاجر وتعمل معتمدة على نفسها .. انها فتاة تواجه الحياة هنا وحدها بكل ثقة .. بكل جراة وامل فى المستقبل . ان الحنين الى الوطن والاهـل والاسرة موجود هناك فى داخلها .. موجود باقوى مما هو موجود فى اى رجل .. ولكن التصميم على الحياة بشرف موجود ايضا

.. موجود باكثر مما يتوقعه اى رجل ! ان نادية وسميحةتعملان كموظفتين محليتين فى نيويورك . نادية موظفة فى الوفد الكويتى بالامم المتحدة وسميحة موظفة فى الطيران العربية . ان نادية اسبق من سميحة فى السفر الى امريكا . انها اسبق اكثر خبرة اقدر احتمالا واكثر مصرية . انها مصرية فى قلب نيويورك .. من شعر الراس حتى اخمص القدم . انك لاتملك فى النهايةسوى ان تحترمها وتقدرها وتتمنى لها النجاح ؟

×××

ان النجاح له سمعة .. مثلما لكل شىء آخر سمعة . ولقد سمعت عنهما اولا من صديق لى يعيش فى نيويورك . صديق مصرى .. فنان .. فنان ذائع السمعة .

ان جمال الزغبى .. هذا هو اسمه ـ هو مجرد شاب مصرى درس العمارة بجامعة القاهرة وتخرج منذ ١٢ سنة وعمل معيدا بهندسة جامعة الاسكندرية . ولكننى سمعت عنه اولا ـ قرات عنه اولا ـ فى الصحف والمجلات الامريكية . قرات عنه فى مجلة « مدموازيل » ومجلة « اميركان هوم » قرات عنه دائما باعتباره الفنان « .. **الشاب المصرى الناجح الذى يملك افكارا جديدة ومتنوعة فى فن العمارة .. والذى يبحث عن حلول فنية لمشكلة الانسان المعاصر الذى يعيش فى مدينة مزدحمة ضخمة كنيويورك»**

هل جمال هو كل هذا ؟ نعم . هو هذا ـ واكثر . لقد ذهب الى امريكا فى البداية لدراسة الماجستير فى العمارة وعندما وصل الى مطار واشنطن فى تلك الليلة .. ليلة مصرع كنيدى ـ جلس مع حقائبه فى المطار ليلة كاملة بغير مليم واحد فى جيبه .. من هناك بدا عدد من زملائه المصريين يساعدونه فعندما درس فى آن اربر بولاية ميتشجان ساعده الدكتور فتحى الديب ـ الذى كان ـ وقتها رئيسا للنادى العربى فى آن اربر ـ وقدم له مسكنه بعدها ساعده ايضا الدكتور صلاح عبد العزيز .. و .. و .. المهم ان جمال حصل بعد سنتين على الماجستير بدرجة الامتياز

هنا بالضبط يقول جمال : « اننى فى‌الواقع لم احس‌بالامتنان او التقدير او الوفاء لاساتذتى فى القاهرة .. الا بعد ان درست هنا فى امريكا . لقد كنت احس ان كل تفوق احققه . انما يرجع الفضل فيه اولا للمستوى الذى علمنا به اساتذتنا فى جامعة القاهرة .

وبعد الماجستير تزوج جمال بامريكيه وحصــــل على اقامة دائمة ، وبدأ يعمل كمصمم معمارى بمكتب المهندس المعمـــارى « ماكس ابريان » بمرتب متواضع . .وهو ١٢٥ دولارا فى الاسبوع وعندما نجح جمال فى اول تصميم له لمدرسة ثانوية بمدينـــة نيويورك ارتفع مرتبه الى ١٦٠ دولارا فى الاسبوع ، ثم الى مائتى دولار قبل ان تمر عليه سنة .. ومائتين وخمسين دولارا قبل ان تمر سنتان . وحينما اصبح جمال فى عامه الثالث ـ رئيس قسم التصميم بالمكتب قدم استقالته . لقد عرض عليه صاحب المكتب رفع مرتبه الى خمسمائة دولار فى الاسبوع ولكنه اعتذر. انه يقول « .. اعتذرت لاننى اردت لنفسى الحرية من زواجى ومن عملى .. حيث وجدت نفسى مشتتا بين الطرفين .. لقد اعتذرت رغم ان صاحب المكتب نفســه ـ ماكس ابريان ـ كان كريما جدا على ومقدرا لعملى .. ان ماكس هو الان رئيس لجمعية المهندسين المعماريين الامريكية .. وخــلال عملى معه صممت مدرستين لهيئة التعليم بنيويورك فازت احداهما بجائزة احسن مدرسة من حيث التخطيط .. وفازت الاخرى بجائزة احسن مبنى خرسانى .. وصممت ايضا مكتبة لجامعة نياجرا ومشروعين اسكانيين لمدينتى نيويورك وسان فرانسيسكو .. بالاضافة الى عدد من المشروعات الاخرى . لقد تركت هذا كله لاعمل مدرسا فى كلية العمارة بمدينة نيويورك .. نيويورك سيتى كوليدج ـ حيث اعطى ١٥ ساعة للتدريس والباقى وقت اخصصه كله للعمل وادارة مكتبى الخاص للرسوم المعمارية . وفى خلال تلك الفترة اختارتنى لجنة من رؤساء تحرير مؤسســة لايف وتايم الامريكية لعمل رسومات لاعادة بناء مدينة بابل . مهمة كان اجرى فيها هو ٣٦٠٠ دولار . بهذا المبلغ قررت ان اعيد تصميم شــقتى ومكتبى الخاص حسب نظرياتى التى اومن بها فى العمارة . هذه هى الشقة التى قرات عنها انت فى المجلات والصحف الامريكية .. بعدها وقع على الاختيار لتصميم مكتب شركة استثمار فى وال ستريت كمشروع يتكلف نصف مليون دولار .. ثم مشروع آخر لجامعة نيويورك .. ومطعم مصرى فى برودواى ثم المعرض المعمارى الذى اقامته مدينة نيويورك واختارونى للاشتراك فيه مع ١٨ فنانا معماريا اخر . اننى الان اعمل فى التدريس بمعهد برات فى بروكلين بنيويورك ـ وهو احد خمسة معاهد مشهورة فى الهندسة المعمارية بامريكا .. كما اننى اقوم بتدريس الماجستير

فى العمارة لثلاثة عشر طالبا اجنبيا من تايلاند والصين والهند وغانة ومصر » .

ان الشخص الذى يقول هذه الكلمات هو مجرد فنان مصرى شاب فى الخامسة والثلاثين من عمره . ان ايراده من التدريس هو عشرة آلاف دولار فى السنة ، ولكن ايراده من عمله الخارجى وصل فى العام الماضى وحده الى ستين الف دولار .. بالاضافة الى المنزل الذى اشتراه بسبعين الف دولار فى غرب شارع ٨٧ بمدينة نيويورك . منزل يؤجره جمال ويحصل منه على ٥٥٠ دولارا شهريا وينوى بيعه بعد تعديله بنصف مليون دولار .

وفى كل مرة كنت اذهب الى جمال لارى شقته الخاصة فى ذلك المنزل .. كنت اريد ان اكتشف فيها الشىء الذى جعلها مثيرة للصحف والمجلات الامريكية . كنت انزل من غرفتى بجمعية الشبان المسيحيين فى شارع ٤٧ واقول للتاكسى « لو سمحت .. اريد ان اذهب الى ٣١٢ غرب شارع ٨٧ وبلا كلمة واحدة من سائق التاكسى ـ ولا حتى هزة راس ـ كان السائق ينقلنى الى منزل جمال » ..

ان صديقى جمال هو عذر لى .. لكى اتحدث عن دنيا كاملة .. دنيا اخرى تعيش داخله وحوله ..

فمن اللحظة الاولى التى تزور فيها جمال بشقته .. فى ذلك الجزء الهادىء من غرب شارع ٨٧ ـ فانك تحس فورا انك تركت الدنيا التى اعتدتها خلفك .. ودخلت دنيا اخرى مختلفة تماما لقد تركت نيويورك ..بزحامها وضجيجها وضوضائها واختناقاتها ـ ودخلت دنيا اخرى ـ وما زالت موجودة فى نيويورك ايضا .

انها ليست مجرد شقة عادية .. تلك التى يسكن فيها صديقى جمال . ان الشىء العادى فيها هو فقط باب الشقة الخارجى . انه باب .. مثل اى باب . ولكن بعد هذا الباب لن تجد فى الشقة اى باب آخر . لا ابواب .. لا حوائط .. لا عوازل .. لا نوافذ .. لا ستائر .. لا شىء مطلقا سوى مساحة مفتوحة . لقد الغى جمال كل الحجرات داخل الشقة ، فتحولت الشقة كلها الى مجرد حجرة كبيرة واسعة . فى داخل هذه الحجرة الواسعة لن تجد سوى لونين اثنين فقط .. الابيض والرمادى .. ان اللون الثالث داخل الشقة سوف يكون بشرتك ! ان فكرة صديقى جمال فى هذه الشقة مازالت هى نفسها كما نشرتها له مجلة « تايم » الامريكية .. « ان كل شخص محتاج الى ركن يتأمل فيه

.. فى هذا الركن يستطيع ان يفكر .. يتامل .. يحلم .. ويبتعد قليلا عن زحام الحياة » .

هذه هى فكرة جمال فى شقته . انه يرى ان « .. المهندس المعمارى .. يجب أن يؤمن بان كل انسان محتاج الى مثل هذا المكان ، تماما مثل حاجته الى الطعام والشراب » ..

ولان جمال فنان يريد هو الاخر مكانا يتامل فيه .. فقد بدا بنفسه . لقد بدأ بتحويل شقته هذه الى مكان ينعزل فيه عن الطبيعة ، عن الدنيا ، عن الزحام والضجيج الذى يطاردك فى كل ركن من نيويورك . لقد امسك بقطع كبيرة من الخشب وبدأ يصنع ديكوره الجديد لهذه الشقة ..

ولكى تكون متأكدا فان الشقة ليس فيها اى ديكور على الاطلاق .. انها مجرد مكان واسع .. بمنصة عالية فى الجانب الايمن .. ومنصة منخفضة فى الجانب الايسر .. وركن فى اليمين .. ومساحة بيضاء فى الشمال . ان المنصة العالية هى ـ بالنسبة له ـ حجرة الرسم . المنصة المنخفضة هى حجرة الاستقبال . الركن هو السرير . المساحة البيضاء هى بمثابة شاشة لعرض الافلام .. بعد هذه المساحة ـ لا شيء ! لا شيء اكثر من مكان خلف الشقة .. هو بمثابة مطبخ ، ومكان آخـــر هو بمثابة التواليت هو الاخر مفتوح . لا حائط هناك .. ولا باب ... ولا شيء على الاطلاق يعزلك عن باقى الذين يجلسون فى الشقة .. لا شيء لا حواجز .. ولا اثاث . ان الشقة كلها ليس فيهـا قطعة اثاث واحدة .. هـذا هو تفكير جمال .. انه يرى ان « .. الانسان هو الذى يتحرك .. اما الاثاث فيجب أن يكون ثابتا » ..

هذه هى الشقة التى يعيش فيها صديقى جمال .. هـذه دنياه .. هذه مملكته .. لقد اختفت الحواجز من هذه الشقة .. مثلما اختفت من حياة جمال نفسه .. ان جمال ليس لديه حياة خاصة به . ان مايخصه يخص كل انسان اخر . هكذا يريد هو ان يعيش . ان الصداقة بالنسبة له ليست مجرد صداقة . انها تحالف عسكرى .. انها اتحاد فيدرالى .. اتحاد مفتوح .. تستطيع ان تدخله متى تشاء .. وتخرج منه متى تشاء .. اذا تركت جمال .. فتستطيع ان تعود بعد سنة لتجد ان صداقته لك مازالت موجودة هناك .. موجودة عنـــد نفس النقطة التى تركته فيها بالضبط .

لهذا السبب فانني كنت اكتشف كل يوم ان جمال اهم من شقته الفريدة . انه اهم ما فيها . انه امامي دائما في كل مرة اذهب الى هناك : عريض الكتفين .. قوى البنية .. طويل الشعر .. مستطيل الوجه .. غليظ الشفاه .. ضخم الانف .. بفتحتين واسعتين حساستين .. وعينين تشبهان ثقبين واسعين محروقين في بطانية من الصوف !

انه امامي دائما في كل مرة .. بيبه المعهودة .. وضحكته المميزة .. وكلماته المتكررة .. « اهلا ابو حنفي » .. « دا احنا النهاردة حنضحك ضحك .. » !

نعم سوف نضحك الليلة كثيرا .. ربما لم احضر الى جمال الا لكي اضحك .. هذه هي العملة الصعبة في نيويورك . ان الناس امامي طوال النهار عاملون مرهقون جادون متعبون يتحركون بسرعة ويرتاحون في هدوء ويبتسمون في بطء .. أما جمال فانه انسان آخر غير هؤلاء الذين كنت اقابلهم طوال اليوم .. انه ليس فقط انسانا اخر .. وانما هو جنس آخر على كوكب آخر تماما . لهذا كنت اشعر ان زيارة جمال هي الشيء الذى ينسيني تعب اليوم كله . ان دنياه مختلفة عن دنياى .. مختلفة كثيرا . انني اموت في نيويورك كل يوم مائة مرة .. ولكن جمال كان يعيش في كل يوم الف مرة !.. انه يدرس ويعمل ويعيش ويحب . ان الحب بالنسبة لجمال هو الصداقة .. هو الناس . هو الزحام الذى يصنعه الناس دائما في شقته كل يوم خميس . ان شقة جمال كانت هي المكان الوحيد في نيويورك اذهب اليه بقميص مفتوح وحذاء يلمع . انني في الصباح اذهب الى الامم المتحدة يوميا بحذاء يلمع — ضروري — ولكن ليس بقميص مفتوح . ان القميص يظل مفتوحا الى مسافة عشرة امتار فقط من مبنى الامم المتحدة بعد هذه الامتار العشرة لابد ان اخرج « الكرافتة » من جيبي واربطها في عنقي .. من هذه اللحظة فصاعدا .. سوف اسير ، واتكلم ، واناقش باحساس رجل محكوم عليه بالاعدام . ان الكرافتة في رقبتي تعطيني دائما هذا الشعور . ولان شقة جمال هي المكان الوحيد في نيويورك الذى اذهب اليه بغير كرافتة .. فانني ادخلها بشعور شخص اطلق سراحه حالا . شخص تحرر من حبل المشنقة منذ دقيقة . ان القميص مفتوح . ولكن الحذاء يلمع هنا ضروري لكي لا افسد انسجام كل شيء يلمع داخل الشقة ..

وفى كل مرة ادخل فيها شقة جمال مساء كل خميس .. فاننى كنت دائما اجد فيها هذا الزحام : اناسا من كل لون وصنف وجنس .. ناسا طوالا وقصارا وبين بين .. بنات وشبانا وعواجيز .. انهم جميعا مختلفون فى ارائهم .. فى ملابسهم .. فى امزجتهم .. ولكنهم جميعا فنانون ! انهم جميعا يحبون الفن .. او يتعاطون الفن .. او يرجون ان يعيشوا حياتهم بفن ! انهم جميعا اصدقاء يعلمون ان باب الشقة مفتوح دائما كل يوم خميس .. فى يوم الخميس يتنازل جمال عن شقته ، عن دنياه لتصبح شقة مفتوحة ودنيا مفتوحة . ان اى شخص يستطيع ان يحضر مع اى شخص . وكل شخص يستطيع ان يفعل اى شىء دون ان يلتفت اليك احد . انك تجلس او تقف او تنام او تضحك او ـ حتى تبكى ـ او تشاهد الافلام السينمائية ، او تتناول عشاءك ، او تشرب كاسك او تسمع موسيقاك .. دون ان يزعجك احد .. انك تستطيع ان تفتح اى مناقشة وتقحم نفسك فى اى مناقشة .. دون ان ينزعج احد !

انها نماذج غريبة من الناس .. تلك التى كنت اجدها دائما فى شقة جمال كل يوم خميس .. ان معظمهم دخل هذه الشقة الان دون ان يعرف الاخر . ولكنهم جميعا ـ بعد خمس دقائق فقط ـ اصبحوا اصدقاء جدا .. تستطيع ان تلمس ذلك من نوع المناقشات الضحكات ، النكات ، القفشات ، الاسئلة .

مرة تسالنى فتاة من الموجودات : قل لى لو سمحت .. كيف تنظرون الى الجنس فى بلادكم .. فى مصر ؟ واحترت بماذا ارد . لهذا قلت لها .. انت يا عزيزتى مازلت صغيرة على هذا السؤال .. وانا مازلت صغيرا على الاجابة اقترح ـ لاغراض عملية ان نبدا بما هو متوافر فعلا .. فتشرحى لى عمليا وجهة النظر الامريكية فى الموضوع !

وقبل ان اتم كلماتى جذبنى من ذراعى رجل آخر ـ لا اعرفه بعد ـ وقال لى : هل احضرت صديقتك معك الليلة ؟

وقلت له : لا .. هل احضرت انت زوجتك ؟!

ـ لا ..

وترددت لحظة ثم قلت له : هل استطيع ان اقترض منك قلم حبر ؟

اجاب الرجل : بكل تاكيد ..

قلت : وورقة صغيرة ؟

اجاب : طبعا ..

قلت : شكرا .. هل اجد معك طابع بريد ؟

ــ يجوز ..

ــ هل تعطيني عنوان منزلك ؟

طبعا .. ولكن .. لماذا ؟

ــ ساكتب خطابا الى زوجتك مصرحا فيه بعواطفى نحوها ..!

وضحك الرجل من النكتة ــ طبعا هى نكتـــة ! ــ ثم قال لى بلهجة جادة ..

ــ انت لا تعلم يا صديقى .. ان زوجتى تعبدنى .. ف الواقع انها قالت لى الليلة اننى نموذج للزوج المثالى ! قلت مستنكرا .. « نموذج » للزوج المثالى ؟ هل انت متاكد انها قالت لك ذلك ؟

اجاب الرجل بدهشة .. نعم ..

قلت له : هل انت تعرف معنى كلمة «نموذج» هذه ف القاموس؟

ــ لا ..

ــ هنا .. ان « نموذج » معناها لغويا شيء تقليد .. تقليـد صغير .. لشيء اصلى حقيقى كبير ! ابحث عن اصلك اذن !!

وعنـدما تركت هـذا الرجل مع ضحكاته ــ ما زلت لا أعرفه ــ التفت نحوى سيدة متوسطة العمر وهى تسالنى : تصور أن جونى يسالنى عن تاريخ ميلادى ؟! هل هذا ــ بذمتك ــ سؤال يوجهه رجل الى امراة ؟ وقلت لهـا : لا باس ... اذكرى له القـرن الذى ولدت فيه !

هكذا كانت تستمر ضحكاتنا كل ليلة . اننا لم نكن نعرف بعضنا قبل خمس دقائق .. ولكننا الآن نبدو كما لو كنا أصدقاء منذ خمس سنوات الجميع يضحكون ف براءة ... يتناقشون .. يتكلمون في بساطة ..

ان جمال يحب البساطة ف دنياه هذه . لهذا تنطبع البساطة على كل من يدخل هذه الدنيا ان حياته مثل دنياه ــ مثل شقته ــ هى مزيج من البساطة .. والخطوط المستقيمة . والمساحات الواسعة . والالوان القليلة . ان شخصية جمـــال هى مزيج من تلك الالوان القليلة .. ولكن الحادة فى تناقضها .. ان خياله يحلق فى السماء

.. بينما قدماه تقفان على الارض .. ان قلبه يحبه دائما .. وعقله عمل أبدا • انه مثالي في آرائه •• وواقعي في أعماله • ان احدى عينيه تنظر للجمال في السماء •• والعين الاخرى تبحث عن الجمال في السرير • ان احدى يديه ترسم لوحة •• والاخرى تتحسس لوحة • ان اعصابه باردة للغاية •• بينما عواطفه ساخنة جدا • انه يحب في منزله كل شيء بسيط •• الديكور، الاضواء، والناس• انه في هذه الشقة يريد الجمال.. ولكنه يريد الراحة قبل الجمال •• الانسجام قبل الجمال • ان الالوان هادئة والضوء شاحب والخطوط مستقيمة والصوت خافت • ان الابعاد في تفكيره أيضا منسجمة : بطيء •• ثابت•• عملي متحفظ•• مسالم •• ان الاصرار هو أقوى صفاته والحب أقوى عواطفه والتفكير أكبر همومه والثقة أصدق طباعه والطموح أبرز دوافعه والبساطة أحسن آماله والمرأة أحب أهدافه ••

ان المرأة تستطيع أن تحصل من جمال على أى شيء بعد الساعة السادسة مساء •• بعد أن يؤدى عمله جيدا • انها تحصل منه على اى شيء ..وهو يعطيها كل شيء.. مادامت ستصل معه الى السرير بعد خمس دقائق •• أو بعد سنة ! لاشيء في هذا العالم يستطيع أن يمنع جمال من ذلك سوى عمل امامه •• أو صديق بجانبه • ومع ذلك فان جمال مستعد لاقتسام كل شيء مع صديقه • كل شيء •• ابتداء من طعامه وشقته حتى •• فتاته ! نعم •• انه يقتسم معك فتاته بنفس المنطق الذي يقتسم به معك آخر كسرة خبز ! ان بعض الناس لا يوافق قطعا على ذلك •• يوافق على اقتسام كل شيء — كل شيء حقا — مع صديقه •• ولكن جمال يفعل ذلك •• انه يفعل — ويستطيع — لانه لا يهتم بالناس •• يهتم فقط باصدقائه من بين الناس • ان جمال في هذا — وفي أشياء أخرى كثيرة — مختلف عن الناس ••

×××

ان جمال هو آخر مهاجر رأيته في نيويورك قبل عودتي الى القاهرة •• في الواقع أن جمال هو واحد من ثلاثة أشخاص جعلوني أرى نيويورك بعض الوقت كشيء أكثر قليلا من وجود ناطحات السحاب•• ومبان عالية .. وشوارع مزدحمة . ان الشخص الثاني لايربطه بجمال سوى مجرد الابتسامة •• فكلاهما يبتسم دائما •• وكلاهما له النظرة الساخرة للحياة دائما • أما بعد هذا السطر فالشخصان

يختلفان في كل شيء في العمل ·· والنظرة الى الحياة ·· وأسلوب التفكير ··

اذا كان جمال بوهيميا في حياته ·· فان الشخص الثـانى هو العكس مطلقا ·

اذا كان جمال تربطه بنيويورك علاقةدائمة كمهاجر ·· فان الثانى تربطه بها علاقة مؤقتة كضيف ·· اذا كان جمال فنان يعمل مهندسا ·· فالثانى فنان يعمل دبلوماسيا ·· اذا كان الاول ينظر للحيـاة بالف عين ·· فان الثانى ينظر لها بعين واحـدة ·· فالعين الاخرى ثابتة حيث توجد زوجته الرقيقة المهذبة ·

ان هذا الصديق الثانى اسمه : ابراهيم شكر الله . دبلوماسى مصرى عمل في نيويورك مديرا مؤقتا لمكتب الجامعة العربية بها ··

هذان هما اول شخصين اضافا الى نيويورك فى خيالى لمحة انسانية

ولكن .. مازال هناك شخص ثالث أحببت نيويورك من خلاله. شخص ـ ربما فلت منى متنكرا فى بعض صفحات هذا الكتاب ـ ولكن اسمه لن يفلت منى الآن ··

الى هؤلاء أهدى كل الصفحات السابقة ·· صفحات لهـا عنوان عصرى : مصرى .. بمليون دولار .. ثم لها عنوان آخر غير عصرى: « الدفع المتين ·· فى شرح أحوال المساكين ·· من المصريين ·· الذين يعيشون فى بلاد الافرنج والامريكيين ·· »

فهرس الكتاب

هذا الكتاب

•• المصري يبحث عن العلم والسوري يبحث عن الشهرة واللبناني عن المال . المصري مثقف والسوري مجادل واللبناني متعب . المصري مطيع والسوري متمرد على السلطة واللبناني ثائر ضدها . المصري قنوع والسوري متطلع واللبناني مجازف . المصري موظف غالبا والسوري تاجر احيانا واللبناني تاجر دائما . المصري محافظ عادة والسوري مغامر نادرا واللبناني مغامر ابدا . فتكون النتيجة هي :

اللبناني يفشل احيانا وينجح غالبا والسوري ينجح احيانا ويفشل نادرا والمصري يعيش .. يعيش فقط .

•• و ... هذه اول نتيجة خرج بها الكاتب الصحفي محمود عوض بعد ان تأمل في حياة مليون و ٨١ الف مهاجر مصري وسوري ولبناني يعيشون في كندا وامريكا .

•• ان المؤلف سافر الى كندا وامريكا لمدة اربعة اشهر .. وخرج في النهاية بهذا الكتاب — اول كتاب يتناول بصراحة حياة المصريين المهاجرين هناك : هل نجحوا .. هل فشلوا .. ولماذا ؟

•• لقد رأى في كندا وامريكا مئات من المصريين المهاجرين وناقشهم وحلل قصص نجاحهم او فشلهم وناقش مدى تكيفهم مع تلك المجتمعات الجديدة عليهم .. ابتداء من اول مصري يصبح نصف مليونير .. الى اول مصري يطلق زوجته هناك !

•• انه كتاب .. سوف ينفد من السوق مثلما نفد الكتاب السابق للمؤلف مرتين : « ام كلثوم التي لا يعرفها احد » !



محمود عوض



الثمن ٢٥ قرشا